THE BURKE LIBRARY
5 0349 334

Abû'l-Ḥasan 'Alî al-Djaznâî
Zahrat el-âs (La fleur du myrte) traitant de la fondation de la ville de Fès
BK67
A169
19264
ISSUED
DATE
Binding
12/45

Date Loaned

Library Bureau Cat. no. 1138

كتاب زهرة الآس

في

بناء مدينة فاس

للامام العالم العلامة أبي الحسن علي الجزناءي

طُبع هذا الكتاب

على اعتناء الشيخ الفُراد بيل

مُدير مدرسة تلمسان

سنة ١٣٤٠
١٩٢٢

بمطبعة باستيد - جوردان سابقا ولان كجول كاربونيل في الجزائر

Library of the
UNION THEOLOGICAL SEMINARY

LIBRARY OF THE
UNION
THEOLOGICAL
SEMINARY
NEW YORK

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله

كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس

للامام العالم العلامة ابي الحسن علي الجزناي رحمه الله

الحمد لله الذى جعل الحمد فاتحة الكتاب واوّل كلام الخلق يوم الحساب وصلى الله على سيدنا محمد المنتخب من لباب الالباب والرضى عن آله وصحبه بأكرم بهم من أهل واصحاب

وبعد يحتوي هذا الكتاب على بابين الباب الاول في ذكر من اسسها من الادارسة الحسنيين . الباب الثاني في ذكر من أدارها بالاسوار وذكر جوامعها وما انتهت اليه من الدور والحمامات وما جاء من الثناء عليها وعلى ساكنها من العلماء المرضيين

الباب الاول

وهذا الباب يستدعي الكلام على فضل الاقليم وحد اصقاعه وحكم أرضه واول من افتتحه وسبب قدوم ولي الله ادريس وذكر عقبه الذين أسسوا فاسًا الى غير ذلك مما يتعلق به من التنبيه عليه والتذكير بما انضاف من الامور اليه اما فضله فقد رُوي عن سفيان بن عُيَيْنة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان بالمغرب بابا مفتوحا للتوبة مسيرةَ أربعين خريفا لا يغلقه الله تعالى

Library of the
UNION THEOLOGICAL SEMINARY

حتى تطلُع الشمس من مغربها نقله ابن الرفيق وفي المصنفات الصحاح من رواية سعيد بن ابي وقاص وغيره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقومَ الساعةُ ومن طريق أخر لا يضرهم من خالفهم او خَذَلهم حتى تقومَ الساعة وأهل المغرب فهم أهل المغرب الذي هو ضد المشرق على اصح التاويلات وأوضح الدلالات وحقيقة المغرب هو المكان الواقع في شق الغربي قال احد الشعراء

(المجتث)

المغـــرب شيء مليح ... ولي دليـــل عليـــه
البـدر يرفـــب منه ... والشمس تجري إليه

وحكى ابو الجلجل في طبقات الاطباء ان ملك اليونان كتب الى عامله بارض بابل ان يبعث اليه بقراط الحكيم بتبجيل وتكريم وأمره ان يَدْفَعَ اليـه جملة قناطير من الذهب لينفله وامتنع وما ذلك إلا لفضل اقليمه على غيـره وأرض بابل من الاقليم الرابع الذى قاس منه واول بلاد المغرب على ما حكاه صاحب جغرافيا جبال برقة وجبال اوتان في المشرق وهذه الجبال آخر عمل مصر وأول عمل القيروان وينقسم المغرب على ثلاثة اصقاع الصقع الاول هو موضع كرسي إفريقية من جبال برقة واوتان إلى جبال نفوسة والصقع الثاني المغرب الاوسط واوله تاهرت (1) إلى جبل سبتة إلى جبال دَرَن والصقع الثالث السوس الاقصى وحدّه في المغرب البحر المحيط الاعظم من ماسة الى صحراء

---

(1) Mst = تهدرت.

المرابطين وهذا الاقليم الرابع هو الاوسط من الأقاليم السبعة التي رسمها حكماء الهند وهو أعمرها وفيه ارض بابل وجزيرة العرب وبقية بلاد البربر في أقصى المغرب وبعض مدن جزيرة الاندلس كاشبيلية وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية وفيه بغداد وباعتداله اعتدلت ابدان اهله فسلموا من شغرة الروم وسواد الحبش وغلظ الترك وجفاء اهل الجبال ودماهة اهل الصين وكما اعتدلوا في الخلقة لطفوا في الفطنة والذكاء والعلم ذكر معنى ذلك صاحب المدهش وغيره وهذا الاقليم عند الحكماء كريم البقعة طيب التربة مخصب البقعة كثير العيون والانهار وقليل الهوام ذوات السموم معتدل الهواء في الفصول الاربعة على قدر متقارب من الاعتدال متوسط في اكثر الزمان تتصل فوائده وفواكهه في كل الازمنة واما حكم ارضه فقال ابو الحسن القابسي في شرح موطا مالك رحمه الله من كتاب الجهاد اختلف الناس في ارض المغرب هل افتتحت عنوة او صلحا او مختلطة على ثلاثة اقوال الاول الذي يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك أنها افتتحت عنوة بالسيف لانه جعل في المعادن النظر للامام ولو صح ذلك لم يجز لاحد بيع شيء منها كارض مصر وطنجة لانها افتتحت بالسيف الثاني قيل صلحا صالح عليها اهلها فان كان كذلك جاز بيع بعضهم من بعض الثالث قيل انها مختلطة ضرب بعضهم من بعض وتركوها فمن بقي بيده شيء كان له وهو الصحيح والله اعلم وقال الداودي في كتاب الاصول له يمر بسط كلام في ذلك اما الذي يوجبه النظر فيها ان تجري على ما توالت عليه القرون الماضية في اخرها وتقرر في ايدي مالكها الا ما تدارت فيه الاخبار انه اغتصب او جلى عنه اهله قال التادلي الحافظ ان ارض المغرب اسلم عليها اهلها ويحكى ان احد عمال المنصور بن ابي عامر حين

تغلب على ارض فاس فال لهم أخبروني على ارضكم أصلح هي ام عنوة فقالوا لا جواب عندنا حتى يأتيَ الفقيه يعنون ابا جيدة بن احمد فجاء ابو جيدة فسأله فقال لَيْسَتْ بصلح ولا عنوة انما اسلم عليها اهلها فقال لهم خلصكم الرجل وابو جيدة هو المدفون خارج باب بني مسافر احد ابواب فاس والدعاء عند قبره مستجاب وله نفع الله به كرامات من اراد الوقوف عليها فليطالع كتاب المستفاد في ذكر الصالحين من فاس والعباد الذى الفه ابو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بالكتاني

نزول البربر بالمغرب

واما سبب نزول البربر بارض المغرب من ارض فلسطين فان ملكها جالوت لما قتله داوود عليه السلام جلب البربر بارض المغرب فتعرفت في تلك البلاد من موضع القيروان الى ساحل البحر الاندلسي وكانت هذه البلاد قبل البربر للروم فجلت الروم فدامهم الى سقلية وهي جزيرة عظيمة في البحر تحاذي بلاد إفريقية ثم رجع الافارقة من الروم الى مدائنهم على صلح من البربر اذ كرهت البربر نزول المدائن فنزلوا في الجبال والرمال والوهاد لكونهم اصحاب ابل وبقر وغنم وسكان بيوت ادم وشعر فعادت المدن رومية والجبال والصحارى بربرية وهم يومئذ على اديان مختلفة ثم بعد بعث النبي صلى الله عليه وسلم وخلافة الخلفاء الراشدين ابي بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم وصدر دولة بني امية ولّى يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري على بلاد المغرب في سنة اثنتين وستين من الهجرة واستفتح بعضه الى ان بلغ البحر الاعظم

حيث ماسة وادخل فيه فوائم فرسه ثم جعل يقول وعليكم السلام فقال له أصحابه على من تسلم يا ولي الله فقال لهم ان قوم يونس عليه السلام سلموا عليّ وسلمتُ عليهم ولولا البحر لأريتكم اياهم واسلم اذ ذاك على يده بعض من بالمغرب وحين رجع منه ارتدَّ بعض من أسلم ثم ولى الوليد بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم موسى بن نصير على المغرب ايضا في سنة اثنتين وتسعين وصار فيه حتى بلغ سبتة وطنجة وجاز منه لبر الاندلس وافتتحه مع مولاه طارق بن زياد وأسلم على يده ايضا بعض من بالمغرب حتى لم يبق منه موضع لا وعبد الله تعالى فيه بسبب قدوم ولي الله الصالح

ادريس بن عبد الله (الكامل) بن حسن (المثنى)

ابن حسن (السبط) بن علي بن ابي طالب رضى الله عنه وكان سبب قدومه من المشرق الى المغرب على ما حكاه محمد بن جرير الطبري وغيره ان اسحاق بن عيسى كلامير بالمدينة وقد على الخليفة موسى الهادي بن ابي جعفر المنصور واستخلف عليها عُمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فظهر منه مخالفة في احكامه فغير عليه ذلك حسين بن علي بن حسن بن حسن بن علي بن ابى طالب رضي الله عنه وربض الناس إمرته واستدعوا حسينا للبيعة فجلس على المنبر وعليه عمامة بيضاء وصار الناس ياتونه يبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وجاء خالد البربرى في مائتين من الجند يقاتل حسينا فقاما اليه ابنا عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهما يحيى وادريس فضربه يحيى على انف البيضة

وقطعها وقطع انفه فشربت عيناه بالدم فلم يبصر فنزل وجعل يده بسيفه عن نفسه وهو لا يبصر استداره ادريس من خلفه فضربه وصرعه وعلاه باسيافهما حتى قتلاه ثم قتل بالمدينة شيعة بني العباس وجاء مبارك التركي فاغاثهم ثم تركهم واقام حسين بالمدينة احد عشر يوما واصحابه يغدروه وخلف بمكة وكان وفد للحج تلك السنة محمد بن سليمان بن علي بن محمد بن عبد الله بن العباس والعباس بن محمد بن علي وموسى بن عيسى بن موسى بن العباس وعلى الموسم سليمان بن ابي جعفر المنصور فاتوا ذا طوى في اربعة آلاف فارس وفد ورد كتاب الهادي بتولية محمد بن سليمان الحرب فوجه محمدًا ابا كامل مولى لاسماعيل بن علي فلما راى القوم صار معهم فظفر به فقتله ثم قاتل محمد بن سليمان حسينا فهزمه وقتله وقتل اكثر من كان معه واقاموا ثلاثة ايام حتى اكلت لحومهم الطير والسباع وكان ذلك بفخ وهو موضع فيه قرية على مسيرة ثلاثة اميال من مكة شرفها الله تعالى كذا ضبطها البكري في كتاب ما استعجم في حرف الفاء وتشديد الكاف المعجمة وكثير من لا خبرة له بالتاريخ يقول له بالجيم والتحقيق انه بالكاف المعجمة كما ذكر وكانت هذه الوقعة في يوم السبت وصادفت يوم التروية الثامن لشهر الحجة من سنة تسعة وستين ومائة وقال فيه احد الشعراء

(المتقارب)

فلأبكينّ على الحسين ... بعَوْلةٍ وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذى ... تركوه ليس بذى كفن
تركوا بفخ غدوة ... في غير منزلة الوطن

كانوا كراما فتلوا لا طائشين ولا جُبُن
غسلوا المَذَلّة عنهم غسل الثياب من الدرَن
هُدِى العِبَادُ بجدهم فلهم على الناس المِنَن

وحضرهُ بعد الوفاة محمد بن سليمان فاتل حسين فجعل جلساؤه يلقنونه الشهادة وهو يقول

كاليت امي لم تلدني ولم اكن لفيت بفخ لا حسينا ولا حسن

وفي هذه الواقعة افلت ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب على ما حكاه المظفري وصار مع مولاه راشد الى مصر وعلى بريدها واضح مولى صالح بن منصور فجعله على البريد الى المغرب فوقع بحومة بلاد طنجة ثم الى بلد وليلي فاعدة زرهون واستجاب له قبائل البربر وعلا أمره وشاع خبره وهذه البلدة قديمة البناء يذكر انها من بنيان القبط وهي معروفة الآن بقصر فرعون من ارض اولاد تعلو وهي متوسطة بين العمارات خصيبة كريمة المياه والغرس والزيتون كان لها سور عظيم قد بقي بعضه وفيه عبرة للمعتبرين ولما وصل مولانا ادريس الى بلد وليلي نزل على صاحبها الامير اسحاق بن محمد بن عبد الله الاوربي فاقبل عليه واكرمه وبالغ في بره وكان نزوله بوليلي في اول شهر ربيع الاول من سنة اثنتين وسبعين ومائة فاقام عنده والناس يغدون عليه الى ان دخل شهر رمضان السنة فبايعه جميع قبائل البربر ولما تمت له البيعة وتمكن سلطانه وعلا شأنه اتخذ جيشا عظيما من قبائل البربر وخرج بهم الى تامسنا ففتح شلة وسائر تلك الحصون وصار الى تادلة وافتتح حصونه الى ان بلغ ماسة وكان اكثر هذه البلاد على دين النصرانية واليهودية والمجوسية والاسلام بها قليل فأسلم جميعهم حتى لم يبق

بالمغرب موضع يعبد غير الله فيه وذلك مما اخبر الرسول به عليه الصلاة والسلام ان يكون فانه جاء في الصحيح انه قال زويت لي الارض فاريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوى لي منها ولما نزل ادريس بخارج تلمسان وأتاه اميرها محمد بن خزر المغراوي وبايعه مع من هناك من القبائل ودخل تلمسان واستقلت له إمارة المغرب باسره اتصل ذلك بالرشيد وصافى واهتم لذلك وخشيَ ان يتوجه لافريقية فيصل اليه لما يعلم من فضله وكماله ومحبة الناس في آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث اليه الرشيد من يقتله واختار لذلك سليمان بن جرير فخرج اليه من بغداد حتى وصل المغرب وقدم الى ادريس بمدينة وليلي فسلم عليه سليمان وسأله ادريس عن اسمه ونسبه ومن اي بلاد قدم وما سبب قدومه الى المغرب فذكر له انه من بعض موالي ابيه وانه اتصل به خبره فاتاه برسم خدمته لاجل محبته وولايته لاهل البيت اذ لا يعدل بهم احد ولا يقاس بهم سواهم فأنس به ادريس وسكن الى قوله وسربه فكان ادريس لا يقعد ولا ياكل ولا يشرب الا معه ولم يزل يترقب الفرصة ويعمل الحيلة في قتله فلم يجد لذلك سبيلا لموالاة مولاه راشيد الذي لا يزايله ولا يفارقه الى ان غاب رشيد ذلك يوما في بعض شؤنه فدخل عليه سليمان فوجده وحده فقال يا سيدي جُعِلتُ فداك اني جئت من المشرق بفارورة طيب لأُطيِّبَ بها ثم اني رايتُ ان الامام اولى بها فخذها لتتطيب بها فقد اثرتك بها على نفسي ثم اخرجها ووضعها بين يدَيْ ادريس فاخذ ادريس الفارورة ففتحها وشمها فلما رآه سليمان فعل ذلك تحصل له مراده وتمت حيلته جعل يتسلل من المجلس وخرج كأنه يريد قضاء حاجته فصار الى منزله وركب فرسا له من سباق

الخيل كان قد اعده لذلك وخرج من وليلي يطلب النجاة وكانت الفارورة مسمومة فحين استنشق ادريس الطيب الذي بها صعد السم الى خياشمه وانتمى الى دماغه فغشيَ عليه وسقط ميتا وذلك في منسلخ شهر ربيع الاخر من سنة خمس وسبعين ومائة فكانت ايام دولته سنتين وثمانية اشهر انتهى ما حكاه البكري في مسالكه قال شاعر على ما حكاه المقري

(الكامل)

أتظن يا إدريس انك مفلت ... كيد الخليفة او يفيك فرار
ان السيوف اذا اقتضاها سخطه ... طالت تقصر دونها الاعمار
فليدركنك او تدلى ببلدةٍ ... لا يمتدى فيها فرار
ملك كان الموت يتبع أمره ... فمتى يقول تطيعه الاقدار

ودفن ادريس رضي الله عنه بخارج باب وليلي ولم يزل الناس يعتنون بزيارة قبره و يدعون الى الله في الحوائج فيستجاب لهم وظهر جسده بكفنه في سنة ثماني عشرة وسبعمائة وازدحم الناس عليه من سائر اقطار المغرب حتى خيفت الفتنة بسبب ذلك فبعث امير المسلمين ابو سعيد بن يعقوب بن عبد الحق تقبل الله اعماله بتفريقهم وتحسيم الفتن من اجل ذلك كذا وقعت عليه في امر سلطاني يقضي بذلك ولما توفي ادريس ترك جارية له مولدة من بلاد البربر اسمها كنزة حاملا في السابع من اشهر حملها وحين دنا وضعها ولدت ولدا ذكرا اشبه الناس بابيه ادريس وذلك في رجب من سنة خمس وسبعين ومائة وسمي باسم ابيه واقام راشد مولاه بامره وكفله الى ان فطن وشب فادبه احسن ادب واقراه القرآن فحفظه وله من السن

ثمانية اعوام وعلمه السنة والفقه والشعر وامثال العرب وحكمها وسياستها ودرّبه على ركوب الخيل والرمي بالسهام ولما كمل له من السن احدى عشرة سنة او نحوها اخذ له مولاه راشد البيعة من سائر القبائل فبويع له بجامع مدينة وليلي في يوم الجمعة مهل شهر ربيع الاول من سنة ست وثمانين ومائة فقد بان له من هذا ان مدة بقية حمل امه به بعد وفاة والده ومدّة كفالة راشد له عشر سنين وعشرة اشهر وحين اخذت له البيعة صعد المغبر فخطب الناس في ذلك اليوم فكان مما قال الحمد لله احمده واستغفره واستعين به واتوكل عليه واعوذ بالله من شر نفسي ومن شر كل ذي شر واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ارسله الى الثقلين بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا صلى الله عليه وعلى ال بيته الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ايها الناس انا قد ولينا هذا الامر الذي يضاعف فيه المحسنين الاجر وللسيئين الوزر ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تمد الأعناق الى غيرنا فان الذي تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا ثم دعا الناس الى بيعته فبايعوه بل وعظهم على التمسك بطاعة الله وطاعته فعجب الناس من فصاحته وبيانه ووزانة عقله وبلاغته وبراعته ثم نزل فتسارع الناس الى بيعته وازدحموا عليه يقبلون يديه فبايعه كافة قبائل المغرب من زناتة وورية وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر وتمت له البيعة واستقام له الامر بالمغرب وتوطا ملكه وكبر سلطانه وفويت جنوده وعظمت جيوشه ومما يذكر هنا انه قال في حال فتاله لمن عانده

(الطويل)

اليس ابونا هاشم شد ازره واوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نشتكى مما يؤلّ الى النصب
ولاكننا اهل الحفائظ والنهى اذا طار ارواح الكماة من الرعب

وقصدوا نحوه من كل مكان ووفدوا اليه من سائر البلدان وكان ممن وفد عليه نحو من خمسمائة فارس من افريقية والاندلس من الفيسية والازد وكتزرج ومدلج وبني يحصب وغيرهم فسر الامام ادريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم وقرّبهم ورفعهم وجعلهم بطانته دون البربر واعتزّ بهم لانه كان فريدا بين البربر ولمّا رأى الامام ادريس ان الامر استقام له وعظم ملكه وكثر حشمه وضاقت بهم مدينة وليلي عزم على الانتقال منها واراد ان يبنيَ مدينة لنفسه فيسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه اهل دولته فركب بعد الاستخارة في خاصة من قومه وجال جملة من النواحي الى ان بلغ جبل زالغ فعزم ان يبني به مدينة عظيمة فظهر له ان الهدام تكثر فيه زمن الفيض فانتقل لوادي سبو وعزم ايضا ان يبني به المدينة فظهر ان السيول تصل اليها في زمن الفطر وما زال ترداده حيث يبني واستشار وزيره عمير بن مصعب الازدي ليرتاد له موضعا للمدينة فصار عمير في جماعة من قومه لينظر ما طلب فاخترق تلك النواحي الى ان نزل على عين ماء مُطَّرِدَة فتوضأ منها هو ومن كان معه وصلى بهم حولها ثم دعى الله تعالى ان يهون مطلبه وان يدله على موضع يرتضيه لعبادته فسميت العين به عين عمير الى الآن ثم ركب وتوجه نحو فحص سايس يطلب ما خرج اليه حتى وصل الى العيون التي ينبع منها نهر وادي فاس

فراى عيونًا كثيرة تزيد على ستين عنصر اطَّرَدَ على رَضْراض حول العيون بعد ان شرب من الماء باستطابه ثم صار مع مسير الوادي حتى وصل الى موضع مدينة فاس فنظر الى ما بين العدوتين فراى غيضة ملتفة كالاشجار . مطردة العيون والانهار . وفي مواضع منها خيام من شجر يسكنها قبيلة من زناتة يعرفون بزواغة وبني يرغس فرجع عميرالى الامام ادريس واعلمه بما راى من الارض وما استحسنه من كثرة مياهها وطيب تربتها ورطوبة هوائها وصحتها فاعجب الامام ادريس من ذلك وسال عن مُلَّاك الارض فقيل له هم قوم من زواغة يعرفون ببني الخير فقال الامام ادريس هذا قال حسن ثم بعث اليهم واشترى منهم موضع الارض بستة الاف درهم ودفع لهم الثمن وانعقد الاشهاد بينهم بذلك في رسم من انشاء كاتبه ابي الحسين عبد الله ابن مالك المالكي الانصاري المخزومي وذلك في سنة احدي وتسعين ومائة ثم ان الامام ادريس ضرب اخبيته وقبابه بالموضع المعروف بجرواوة من عدوة الاندلس ودور عليه جرواوة من الخشب فسمى الموضع جرواوة الى زمننا هذا ثم انتقل بعد ذلك الى الموضع المعروف بالمقرمدة من عدوة القرويين حيث دار الفيطون المتصلة لمسجد الشرفاء ثم شرع في البناء حسبما يذكر بعد كذا ذكره ابن الرقيق وغيره ومن فضل هذه المدينة وشرفها ما نقله خلفهم عن سلفهم انه وجد في كتاب دراس بن اسماعيل المكنى بابي ميمونة بخط يده رحمه الله تعالى حدثني علي بن ابي مطر بالاسكندرية قال حدثني محمد بن ابراهيم الموّاز[1] عن عبد الرحمان بن القاسم عن مالك

---

(1) Mst = بن مواز .

ابن انس عن محمد بن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيّب عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس أفوم اهل المغرب قبلة واكثرهم صلاة واهلها على السنة والجماعة ومنهاج الحق لا يزالون متمسكين به لا يضرهم من خالفهم يدفع الله عنهم ما يكرهونه الى يوم القيامة وان ابي مطر هو ابو الحسن علي بن عبد الله بن ابي مطر من اولاد ابي موسى الاشعري وكان مجاب الدعاء توفي بالاسكندرية سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة كذا نقل صاحب المدارك ودراس(1) رحمه الله ممن ادخل مذهب مالك رضي الله عنه بلاد المغرب فانه كان الغالب عليه في القديم على مذهب الكوفيين الى ان دخل علي بن زياد وابن اشرس واحمد ابن بهلول بن راشد وبعدهم فرات(2) وغيرهم من الحافظين لمذهب مالك فاخذ كثير من الناس به فلم يزل ينتشر ويظهر الى ان جاء سحنون فعظ خلق المخالفين واستقر المذهب بعده في اصحابه فشاع في اقطار المغرب الى زمننا هذا واما اهل الاندلس فكان رايهم منذ أفتتحت على راي الاوزاعي الى ان رحل الى مالك زيادُ بن عبد الرحمان وفرعوس بن العباس ومَن بعدهما فجاءوا بعلم مالك وابانوا للناس من فضله وإقتداء الائمة به فعُرِف حقه ودُرِس مذهبه الى ان اخذ به أمير الاندلس وهو هشام بن عبد الرحمان بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وامر الناسَ جميعًا بالتزامهم مذهب مالك وصيّر القضاء والفتيا عليه وذلك في العشرة بعد السبعين ومائة في حياة مالك رحمه الله وشيخ المفتيين حينيذ صعصعة بن سلام امام الاوزاعية وقد

---

(1) Tout ce qui suit, à partir de ودراس, est textuellement copié par Ibn el-Kâdi (*Djaḏwat*, p. 121 à 123) sous la biographie de Darrâs.

(2) Mst = ابن اشرس والبهلول بن راشد وبعدهم احمد بن الفرات .

لحق به من اصحاب مالك غيره فالتزم الناس بهذا المذهب وحملوا بالسيف عن غيره جملة وأدخل فيها قوم الراحليين والغرباء شيئًا من مذاهب الامام الشافعي وابي حنيفة وأحمد وداوود فلم يمكنوا من نشره فمات بموتهم الا من تدين به في نفسه ممن لا يُوبَهُ بقوله وعلى ذلك مضى الاندلسيون إلى وقتنا هذا وسمّي دَرّاس لكثرة درسه العلم اصله من مدينة فاس سمع من شيوخ بلده وبافريقية من ابي بكر بن اللباد وغيره (1) وبالاندلس من شيوخها ولـه رحلة حج فيها وسمع من علي بن ابي مطر بالاسكندرية كتاب ابن المواز وحدث به بالقيروان سمعه منه ابو محمد بن ابي زيد وابو الحسن القابسي ودخل الاندلس مجاهدا وطال بها فسمع منه ابو الفرج عبدوس بن خلف وخلف بن ابي جعفر وكان رحمه الله من الحفاظ المعدودين من اهل الفضل والدين ممن له الامانة بمذهب مالك واصحابه توفي بفاس سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وقبره بخارج باب الجيزيين معروف والدعاء عنده مستجاب وله بفاس مسجد يعرف به وقد جدد قبره الامير ابو عنان رحمه الله وجعل هنالك رخامة منقوشة باسمه وتاريخ وفاته ونصبت عند راسه في سنة اربع وخمسين وسبعمائة وأخبر ابن التبّان ان رجلا من اهل المغرب قال له سنة سبع وخمسين وثلاثمائة نُمْتُ بالرمادة فرايت السماء والارض تبكيان فقلت ما هذا فقيل لي مات ابو ميمونة دراس بن اسماعيل فكان كذلك وكان كثيرا ما ينشد

(الطويل)

غفلتُ وحادي الموب في اثري يحدو وليسَ معي زادٌ وفي سَفَري بُعْدُ

---

(1) *Djadwat* (éd. p. 122) qui a plagié tout ceci remplace وسمع par وغيره و منه et il continue par le passage qui se trouve ci-dessous après les mots وطال بها.

أُنعِّمُ جسمي باللباس ولينه وليس لجسمي من قميص البلا بدُّ
كأني به قد مُدَّ في برزخ البلا ومن فوقه ردْم ومن تحته لحدُ
وقد ذهبت مني المحاسنُ وامّحتْ ولم يبق فوق العظم لحمٌ ولا جلدُ
فكيف إذًا يارب بالنار قُربت ونارك لا يقوى لها الحجر الصَّلدُ
عسى غافر الزلّات يغفر زلتي فقد يغفر المولى اذا اذنب العبدُ (1)

نقل اكثر هذا الفصل من المدارك وغيره ومن اراد الوقوف على اكثر من هذا فليطالع كتابي المستفاد في مناقب العباد فلنرجع إلى ما نحن بصدده ولما عزم الامام ادريس على بناء مدينة فاس بعد ان اخبر بتربتها وهوائها ورياحها ومائها وتحقق بعدها من الصحراء والبحار والجبال الشامخة والسباخ العافنة وعلم ان ذلك مما يليق بمسكنها رفع يده الى السماء ودعا الله وقال اللهم أجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك وتقام بها سنتك وحدودك وأجعل اهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما ابقيتها ثم قال بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم اخذ المعول بيده وابتدأ بحفر الاساس وأتبعه الفعلة في ذلك فلم تزل دار العلم واقامة السنة ببركته وبركة دعائه رضي الله عنه وذكر ابن غالب في تاريخه ان الامام إدريس حين عزم على بناء فاس واختطاطها مر به شيخ كبير من الرهابين كان مترهبا في صومعة قريبة من تلك الجهات فوقف للامام إدريس وسلم عليه ثم قال له ايها الامير ما تريد ان تصنع بين هذين الجبلين قال اريد ان اختط بينهما مدينة لسكناي وسكنى ولدي من بعدي يعبد الله

(1) Cprz ces six vers à *Djadwat* (éd. p. 122) qui en donne sept.

تعالى بها ويُتلى فيها كتابهُ وتقام بها حدودُهُ فقال له ايها الامير إن لك عندى في ذلك بشرى قال وما هي ايها الراهب قال إنه أخبرني راهب كان قبلي في هذه الديار هلك منذ مئة سنة انه يجددها ويحيى اثرها ويقيم دارسها رجل من آل بيت النُبوءة يسمى إدريس ولها شان عظيم وقدر جسيم لا يزال دين الاسلام قائما بها إلى يوم القيامة فقال الامام إدريس الحمد لله انا ادريس وانا من آل النبوءة وانا بانيها ان شاء الله تعالى فكان ذلك مما قوى عزم إدريس على بنائها ويدل على ذلك والله اعلم ما رواه البرنسي ان رجلا من اليهود احتفر اساس دار من فنطرة عزيلة من المدينة المذكورة والموضع يوميذ شعراء بالطحش والبلوط وغير ذلك فوجد في الاساس قطعة رخام على صورة جارية منقوش على صدرها بالخط الهندي هذا موضع حمام عمر الف سنة ثم خرب فاقيم موضعه بيعة العبادة فقيل أن الامام إدريس لما شرع في بنائها كان يعمل فيها بيده مع الصناع والفعلة فصنع له فاس من ذهب وفضة فكان الامام إدريس يمسكه بيده ويبدأ به الحفر ويختط به الاساسات للفعلة فكثر ذلك على السنتهم في طول مدة البناء فكان الفعلة يقولون هاتوا الفاس خذوا الفاس احفروا بالفاس فسميت مدينة فاس لاجل ذلك قاله صاحب الاستبصار وهذا والله اعلم لا يصح لان الامام إدريس رضي الله عنه لا يجهل ان استعمل الذهب محرم على رجال بل يقال انه لما شرع في حفر آساسها من جهة القبلة وجد في الحفير فاس كبير طوله اربعة اشبار وسعته شبر واحد وزنته ستون رتلا من عمل الاوائل فسميت المدينة به واضيفت اليه نقل معناها المطمري وقال لانه لما تمت البناء قيل للامام إدريس كيف تسميها قال أسميها باسم المدينة التي كانت قبلها

في موضعها الذي اخبرني الراهب انه كانت هنا مدينة ازلية من بناء الاوائل فخربت من الاسلام بالف عام وكان اسمها مدينة ساب ولاكني اقلب اسمها الاول لاسميها به فجاء به فاس كذا نقله ابو الحسن بن عبد الله بن ابي زرع في كتابه المسمى بالانيس وكان تاسيس مدينة فاس على ما ذكر المورخون الذين عنوا بتاريخها وبحثوا عن امورها واحداثها على نحو ما يذكر اما عدوة الاندلس فانها اسست في يوم الخميس مهل شهر ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين ومائة اقام الامام إدريس منها بالموضع المعروف بجرواوة حيث نزل باخبيته وفيابه وابتدأ سورها من جهة القبلة وفتح هناك بابا سماه باب القبلة ثم مر بالسور المعروف بالجرواوة وموضع زيتون ابن عطية وفتح هناك بابا سماه باب جرواوة ثم مر بالسور على الموضع المعروف بالمخفية إلى الوادي الكبير إلى برزخ وفتح هناك بابا سماه بباب المخفية كان يقابل باب الفرج من عدوة القرويين ثم مر بالسور الى الشيبوبة وفتح هناك بابا سماه باب الشيبوبة كان يقابل باب الفصيل المعروف الآن بباب النقبة من عدوة القرويين ثم مر بالسور الى راس مجر الفرح وفتح هناك بابا سماه باب ابي سفين ثم مر بالسور على جرواوة وفتح هناك بابا سماه باب الكنيسة يعرف الآن بباب الخوخة ويخارجه كان يسكن المرضى لتكون روايحهم تحت الريح الغربية فانها الغالبة لفاس وليكون تصرفهم من الماء بعد خروجه من البلد ولا يصل من ضررهم شيء للمدينة ثم انتقلوا من الموضع المذكور لكهوف باب الشريعة الذي باعلى المدينة في زمن المجاعة وكانوا يتصرفونها فأمر بنقلهم لكهوف بظاهر برج الكوكب وهو الذي فيه سكناهم الآن ثم مر بالسور إلى ان وصل باب القبلة المذكور وقد استدار بها السور وبنى

بها جامعا للخطبة بغرب رحبة البئر ويعرف بجامع الاشياخ واما عدوة القرويين فانها اسست في مهل ربيع الاول سنة ثلاث وتسعين ومائة افام بها بالموضع المعروف بالمقرمدة ويعرف الآن بدار الفيطون وبغرب مسجد الشرفاء حيث سكنى جهدة الامام إدريس نفعنا الله بهم وحشرنا في زمرتهم وابتدأ اسوارها من راس عقبة عين علو وفتح هناك بابا سمعه باب افريقية وبه يعرف الآن وجدده ووسعه الامير المستعين في شهر شوال سنة ستين وسبعمائة وكان حول العين هناك غيضة عظيمة يقطع فيها الطريق عبد أسود اسمه علو فرجع ذلك للامام إدريس وثبت عليه فأمر بصلبه على شجرة هناك إلى ان تقطعت أشلاؤه فسميت العين باسمه ثم مر بالسور الى عين دردور إلى عقبة الصعتر وفتح هناك بابا سماه بباب الفصيل وهو الذي ذكرنا يقال له باب النقبة ثم مر بالسور من ضفة الوادي وفتح هناك بابا سماه باب الفرج ويعرف الآن بباب السلسلة ثم مر بالسور الى عيون ابن الصادي المعروفة الآن بعيون الكرازين ثم فتح هناك بابا سماه باب الحديد ثم مر بالسور لاعلى عقبة الجروف وفتح هناك بابا سماه باب القلعة ثم مر بالسور حتى وصل به باب افريقية المذكور وقد استدار بها السور ثم بنى جامعا للخطبة متصلا بمنزله وهو المعروف الآن بمسجد الشرفاء ولم يزل على نحو ما بناه الامام إدريس بن إدريس الى ان اعتلت سفعه وتخلفت اجداره وتداعى إلى السقوط فانتدب لبنائه من ابتغى الاجر من الله تعالى من اصهار الشرفاء الساكنين هناك واقامه على ما هو عليه الآن وذلك في سنة ثمانية وسبعمائة وكان في اثناء ذلك امر الناس ببناء الدور والغرس ونادى فيهم ان كل من بنى موضعا او اغترسه قبل تمام بناء السور فهو له هبة لله تبارك

وتعالى فيظهر من هذا والله اعلم ان من بنى او اغترسه بعد تمام السور انما يكون باستيجار الارض وهو سبب الجزاء في بعض جهاتها وقد بحث بعض عمال فاس لِمَ كانت دار بالجزاء وبارانها دار حرة لا جزاء عليها فصح عنده ان بعض المواضع يكون بها الدور والاجنات والفنادق وغير ذلك ثم ينجلي أو يموت اهلها ولا وارث لهم فيرجع ذلك لنظر العامل في الجزاء فيجزيه ويستخلص بوجه صحيح ثم يخرب أيضا فيجزيه العامل كذا ذكر اشياخنا القدماء ولما فرغ الامام إدريس من بناء اسوار المدينة وجامع خطبتها أنزل القبائل الوافدين عليه من الاندلس بالعدوة الشرقية منها فسميت لذلك عدوة الاندلس ونزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية منها فسميت لذلك عدوة القرويين ثم آمرهم بزيادة البناء والغرس فبنى الناس الدور والمساجد والحوانيت وغرسوا جانبي الوادي من منبعه بفحص سايس الى مصبه في نهر سبو بأنواع الاشجار وحرثت سائر نواحيه بانواع الزراعات فعمرت الارض بالغراسة والحراثة وظهر صلاح ذلك والانتفاع بغلاته في سائر الاوقات وكثرت الخيرات وزادت العمارات وقصدها الناس على اختلافهم من جميع البلاد والاصقاع وسكنها الفقهاء والعلماء والتجار والصناع ولما سكنت مدينته واستقامت رعيته وحضرته الجمعة صعد المنبر فخطب الناس ثم رفع يديه في آخر خطبته وقال اللهم إنك تعلم أني ما ادرت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وانما اردت ان تعبد فيها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقي من الدنيا اللهم وفق سكانها وفطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤنة اعدائهم وادر عليهم الارزاق وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير

وأمن الناس على دوعائه فكثرت بالمدينة الخيرات وظهرت البركات وأقام الامام إدريس ساكنا بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة فخرج إلى غزو من بقي من الكفار بنفيس وبلاد المصامدة فوصل اليها ودخل مدينة نفيس ومدينة اغمات وفتح سائر بلاد المصامدة ورجع إلى مدينة فاس فاقام بها الى شهر محرم من سنة تسع وتسعين ومائة فخرج منها الى غزو تلمسان لتكون الكلمة واحدة في اعزاز الدين فغلب عليها وافتتحها ونظر في اموالها واصلح أسوارها وجامعها الذي بافادير وصنع فيه منبرا وكتب اسمه عليه كذا نقله ابن غالب وصاحب الانيس وقال عبد الملك الوراق في مقباسه دخلت جامع تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرايت في رأس منبرها الواحا من بقية المنبر القديم قد سمرت هناك وعليها مكتوب هذا ما أمر به الامام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة ثم رجع الامام إدريس الى مدينة فاس فلم يزل بها الى ان توفى رحمه الله في أول شهر ربيع الاول سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وثمانية اشهر فكان ايام كهالته وبقية حمله عشر سنين وعشرة اشهر وايام امارته سبعا وعشرين سنة ويذكر أنه دفن بمسجد الشرفاء بازاء الحائط الشرقي منه وقد انشد بعض الشعراء في ذلك

(الطويل)

منازل أهل الله آل رسوله ... فاحبب بهم اهلا واحبب بهم مغنى
مدينة إدريس بن إدريس التي ... بها قبره نار وقبره مبنى

وكان سبب وفاته على ما ذكر البكري أنه أكل عنبا بشرق بحبة فمات من حينه رحمه الله وخلف من الولد على ما ذكره ابن حزم في جمهرته ثلاث عشر ذكرا إدريس وأحمد وعبد الله ويحيى والحسن والحسين وداوود ومحمد وعيسى وعمر وجعفر والقاسم وقيل حمزة وقيل اكثر من ذلك فولي بعده منهم محمد وهو اكبرهم ومما قيل في محاسن فاس

البسيط

يا فاس منك جميع الحسن مستوف ... والساكنون أمنيهم (1) لقد رزقوا
هذا نسيمك ام روح لراحتنا ... وماؤك السلسل الصافي ام الورق
ارض تخللها لانهار داخلها ... حتم المجالس والاسواق والطرق

وقال أخر

(الكامل)

بلد اعرته الحمامة طوقها ... وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأنها لانهار فيه مدامة ... وكأن ساحات الديار كؤوس (2)

وللفقيه أبي عبد الله المغيلي في وصف فاس وهو يتشوق اليها حين ولي القضاء وهو بمدينة ازمور

(الكامل)

يا فاس حيّى الله أرضك من ثرى ... وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التي أربت على ... جنص بمنظرها البهي الاجمل

---

(1) Mst = تهنيهم ; *Qirṭâs* (éd. 18) = يهنيهم ; *El-Azhâr el-ʿâṭira* (p. 154 = أهنيهم).

(2) Cpr. El-Maqqari, t. I, p. 104.

غرب على غرب وتجري تحتها ماء الذهب الرحيق السلسل
بساتين من سندس قد زخرفت بجداول كالايم او كالبصيل
وبجامع الفروي شرق ذكره أنس تذكره يهيم تبلبل
وبصحنه زمن المصيف محاسن فمع العشي الغرب فيه استقبل
واجلس ازاء الكعبة الحسنا به واكرم بها عني بديتك وانهل

وقال آخر

(البسيط)

يا عدوة الفرويين التي كرمت لا زال جانبك المحبور معمورا
ولا سلب الله عليها ثوب نعمة أرض تجنبت الآثام والزورا

وقال آخر

(الطويل)

أليس لها على البلدان فضل عظيم القدر ليس له عديد
اليس ترى عباد الله طرا وكلهم لمالكها عبيد

وقالت الحكماء لا تستوطن الا بلدة فيها سلطان قاهر وطبيب ماهر ونهر جار وقاض عدل وسوق قائم وقالت الحكماء ايضا احسن موضوعات المدن ان تجمع خمسة اشياء وهي النهر الجاري والمحرث الطيب والخطب القريب والسور الحصين والسلطان القاهر اذ به نجاح ما لها وتأمن سبلها وقد جمعت فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها محاسن كثيرة وسأسرد منها نبذا فمنها نهرها المعروف بنهر الجواهر الذي باعلاها بنحو ستة اميال وهو يخرج من نحوستين عنصر أحدها ينبعث من جهة القبلة وبعضها من جهة الغرب مسامة لمشرق الشمس وله منظر عجيب لصفائه وانهماره على

الرضاض فيجتمع ما يخرج من تلك العناصر من المياه فيصير نهرا كبيرا يجري في بسيط من الارض يكاد لا يتبين جري الماء فيه لاستواء أرضه إلى ان ينحدر الى البلد فينقسم في داخلها على جداول كثيرة فيشق اكثر جهاتها وينشعب في داخلها فينتفع به في مساجدها وسقاياتها ودورها وارحائها وحاماتها وسقى جناتها ثم يخرج منها وقد حمل اثقالها وسائر فضلاتها وليس لهذا النهر نظير لصفائه وعذوبة مائه وضحته وبرودة عيونه في زمن الصيف وسخانتها في زمن الشتاء وهو يسخن سريعا يبرد سريعا وينهضم سريعا وهذه لصفات محدودة عند الاطباء ويخرج منه الصدف الثمين الذي يقوم الجوهر ولهذا سمي نهر الجواهر ومن منافعه انه يفتت الحصى التي في المثانة ويذهب الصئبان من الراس والقمل من الجسد لمن اغتسل به وداوم على شربه ويغسل به الثياب دون صابون فيبيضها ويكسوها نقاوة ورايحة طيبة وتوجد فيه السراطين المستعملة في الادوية وليست توجد في غيره الا نادرا ويخرج منها انواع الحوت مثل اللبيس والبوري والسلباح والبوفة ذلك كله حوت لذيذ المطعم كثير المنفعة ومنها ان منها ماء العيون والابار والانهار فمياه العيون عذبة صافية باردة في الصيف سخونة في الشتاء حين يراد ذلك منها ومياه الانهار بعكسها سخنة في الصيف باردة في الشتاء فلا يزال الماء السخن والبارد موجودين في كل زمان وذلك مما يعين على التطهير والتنظيف ومنها قرب المعادن كالملاحة التي عليها من مدشر الساطبي الى وادي مكس وبينهما من المسافة ثمانية عشر ميلا ومن العجائب في هذه الملاحة انها تحرث كلها بالزرع فتجد الفراديس في وسط الملح بخضرة ناعمة وتمايل خاماتها فضلا من الله ونعمة وكمعدن الجص والصلصال وانواع الحجارة

والرمال وذلك على اختلاف انواعه فتصير يصرفه الناس في منافعهم ومنها خشب الارز المجلوب لها من جبال بني يزغة وهي بنحو الثلاثين ميلا عنها يصل منه كل يوم احمال كثيرة فلا يعدم فيها بوجه وقد يعمر العود منه في الموضع الذي لا ينالـه الماء الب سنة وازيد ولا يعبر ولا يستاس ومنها الحطب الكثير الذي يدخلها من جميع جهاتها كجبل بني بهلول فانه يصبح كل يوم من احمال البلوط وفحمه ما لا يوصف كثرة ومنها المحرث العظيم الذي بافطارها سفيا وبعلا وكثرة المجاشر ما ليس على مدينة من مدن المغرب ومنها بُعْدُها من اطراف الارض التي تخاف فيها الفتن والغارات ومنها اختصاصها بجميع الفواكه واصنافها وانواع الخضر والبقول على اختلافها وسائر نوار الارض وازهارها حتى لا يشذ شيء من ذلك لمن طلبه منها ومنها انه لا يعدم بها ولا بنواحيها صيد سوى كان سانحا او طائرا او دارجا ومنها قرب العيون السخنة كحمة خولان وحمة وشتانة وحمة أبي يعقوب فان فيها موقفا للاستحمام والتداوي وقد اعتنى أمير المسلمين ابو الحسن ببناء حمة خولان على وجه محكم لتتم به مصالح الناس ومنافعهم ومنها ان حرها وبردها ليس بشديد جدا وقد اعتدل فيها الفصلان في اوقاتهما فيكون دخول الخريف إلى الشتاء غير متباين الهواء وكذلك كل فصل ينقل من هواء الى هواء من زمن الى زمن بالتدريج فلذلك لها اعتدال الهواء في أرضها وطاب الثرى وعذب الماء وزكت الاشجار وطابت الثمار واخصبت الزروع وكثرت الخيرات وحسنت اخلاق اهلها ونضرت وجوههم وابدانهم وانبتنت اذهانهم وقل ما يخالف بعضهم بعضا في الكلفة والسور والجمال والتنظيف حتى فضلوا على غيرهم في العلوم والصناعات والمعرفة بانواع التجارات ومنها ان أهلها في

العادة افل خلاف على أمرأتهم واكثر طاعة لحكامهم وولاتهم ومنها فربها من وادي سبو الذي تسيل منه جميع الفوارب والسفن الصغار الى البحر الاعظم وتطلع منه الى ملتقى واديها وقد كانت دار صنعة لانشاء الفوارب والسفن الصغار وغيرها بالموضع المعروف بالحبالات من ارض بني عبودة التي بقرب ملتقى وادي فاس في ايام الخليفة عبد المؤمن الموحدي حين اراد ان يتوجه لفتح المهدية سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة كذا وجد بخط الفقيه ابي عبد الله محمد بن القاضي احمد بن ميمون البشتالي وكذا امر أمير المومنين ابو عنان بانشاء جفنتين اثنتين بمنزل خولان احداهما شيطي يجر مائة وعشرين محاربا والثاني شليري يجر ستين محاربا ودفعا بوادي سبو الى ان وصلا الى معمورة سلا سنة ست وخمسين وسبعمائة كل ذلك على يد ثقته ابي عثمان سعيد بن خزرو فد جلب لمولانا أمير المسلمين ابي الحسن رحمه الله من المرية بيلة من الرخام لابيض زنتها مائة قنطار وثلاثة واربعون قنطارا وسيقت من المرية بالاندلس الى بلد العرائش الى ان طلعت بوادي فصر عبد الكريم وجعلت منه على عجلة خشب تجرها القبائل والرؤساء الى ان وصلت الى منزل اولاد مخربة الذين على ضفة سبو الوادي المذكور ووسقت فيه ايضا الى ان وصلت الى ملتقى وادي فاس وحملت منه على عجل الخشب ايضا يجرها الناس الى ان وصلت الى مدرسة الصهريج التي بعدوة الاندلس ثم نقلت منها بعد ذلك باعوام الى المدرسة التي أمر ببنائها ازاء الفرويين وهي التي بوسط صحنها الآن وكان جلبها من المرية سنة خمس وعشرين وسبعمائة فان قيل كيف يتوصل الى وزنها فاعلم ان الذين جلبوها لما ارادوا تفريغها علم على الماء في الجفن الذي وسقت فيه

ثم فرغت منه ومخن فيه فناطر من الرمل بالوزن شيئا فشيئا الى ان بلغ الماء حد ما علم اولا في قاربها ثم فرغ الرمل فعلم بذلك وزنها كذا ذكر بعض الشهود الذين حضروا على ذلك ويذكر أنهم كتبوا رسما بذلك وطولع به أمير المومنين ابو الحسن رحمه الله وكذلك فعل بابواب المهدية التي صنعت من حديد في ايام عبيد الله التي زنة كل واحدة منها الف فنطار على ما ذكر البكري وكان لاميرابو الحسن يدفع لاجمال الكثيرة من خشب الارز من منزل خولان الى معمورة سلا على صفة يعملها البحريون ونهر سبو ينبعث من عنصر في مغارة مهولة في شعراء عافطة ببلاد فازاز الى ان يمر على بلاد وارثين وهذه العين لا يدرك لها قعر وللبربر المجاورين لها تجاريب فيها منها ان المريض اذا ارادوا ان يعلموا هل يبرأ او يموت جلوه لراس العين للموضع المهول فيغطسونه فيه حتى يقرب ان يصفر ثم يخرجونه فان خرج على فيه دم يستبشرون بحياته وان لم يخرج من فيه دم أيقنوا بهلاكه وهذا عندهم متصادق لا ينكر فاله صاحب الاستبصار في عجائب الامصار وهذا لا يفعله الا جاهل وان فعله احد باحد فمات فانه يقتل منه وما سوى ذلك من فصول هذا الباب قد يدرك بالمشاهدة والتجربة وتصيد من وادي سبو هذا الشابل الكبير وهو يطلع من معمورة سلا إلى رأس عين سبو وتصيد منه الحوت الكبير الذي يعرف بالقرب(1) يكون في زنة الواحدة منه فنطار وازيد ويوجد فيه ايضا الحوت المعروف بالشولى تصنع منه الالوان

(1) Mst = بالعرب ; القرب est donné par *Djadwat* (page 25) qui a plagié notre auteur pour ce passage.

بأنواع البقل (1) ولا تشم له رايحة السمك ومنها ميل الناس لسكناها فمنذ سكناها وهي مملوءة باصناف الناس واهل الكور والامصار وانتقل اليها من جميع البلدان القاصية والدانية فليس من اهل بلد ولا اقليم الا ولهم بها متجر ومنزل وصناعة وتصرف واجتمع فيها ما ليس بمدينة من مدن الدنيا واتتها التجارات واهل الصناعات من كل صقع حتى تكامل بها كل متجر وسيقت اليها خيرات الارض وجمعت فيها ذخائر الدنيا وتكاملت فيها بركات العالم فقد صار سكناها لاجل ذلك لا عالم املح من عالمهم ولا رواية اثبت من روايتهم ولا متكلم أجزل من متكلمهم ولا قارىء اتقى من قارئهم ولا طبيب امهر من طبيبهم ولا كاتب اضبط من كاتبهم ولا خطيب ابرع من خطيبهم ولا واعظ أوعظ من واعظهم ولا شاعر احذق من شاعرهم ولا صانع اصدق من صانعهم ولا قوال اطرب من مغنيهم

---

(1) Mst = النفل.

الباب الثاني

الباب الثاني في ذكر من ادارها (فاس) بالاسوار وذكر جوامعها وما انتهت اليه من الدور والحمامات وما جاء في الثناء عليها وعلى ساكنها من العلماء المرضيين قال لم تزل مدينة فاس كلاها الله تعالى من حين اسست دار فقه وعلم وصلاح ودين وهي قاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وقطبها وهي كانت دار لادارسة الحسنيين الذين اختطوها ودار مملكة زناتة وغيرهم من ملوك المغرب في الاسلام ونزلها لمتونة في اول ظهورهم على المغرب ثم بنوا مدينة مراكش فانتقلوا اليها لقرب بلاد الصحراء ثم اتوا الموحدون بعدهم واتخذوها دار ملكهم لقربها من بلادهم ولكونها في جوارهم وبين قبائلهم كما قاله صاحب المقباس وغيره وما زال الامراء والملوك في اثناء ذلك يزيدون البناء بفاس الى ان صار الناس يبنون بارباض المدينتين واتصلت العمارات من كل جهة الى انقراض ايام زناتة فاراد منهم دوناس ابن حامة بن المعز بن عطية بن زيد الاسوار على جميع ارباضها من كل جهة وبنى بها المساجد والفنادق والحمامات وغير ذلك وصارت مدينة واحدة الى ان ولى بعده ابناه الفتوح وعجيسة فحصّ الفتوح عدوة الاندلس وبنى بها قصبة لسكناه بالموضع المعروف بالكدان وفتح بابا في العدوة سماه باسمه وحص ايضا عجيسة عدوة القرويين وبنى بها قصبة لسكناه بعقبة الصعتر وفتح هناك بابا سماه باسمه وكانت بين الاخوين عداوة وصار القتال بينهما وكان القتال

بينهما في الموضع المعروف بكهف الوفادين وكثر العرج بسبب ذلك في ارض المغرب واشتدّ الغلا الى ان ظهر لمتونة باطراف المغرب وظهر الفتوح باخيه عجيسة فقتله ولما ظهر به كره ان يبقى الباب فامر بتغيير ذلك وترك اضافتها اليه فاسقط الناس حرف العين من عجيسة وادخلوا عوضا عنها لالف واللام فقالوا باب الجيسة وبقى ذلك الى الان وبعد ان ظهر باخيه اتاه لمتونة فنزلوا عليه وحاصروه وتخلى عن المدينة ووليها معنصر بن عمه(1) إلى ان دخلوها لمتونة وقتلوا زناتة وفي ايام لمتونة هدمت الاسوار التي باعلى الوادي الكبير بغرب حوض السفرجل والسور الذى اسفله حيث هي الرميلة الذي كان بناه دوناس حين ادار الاسوار على سائر ارباضها وجعل في ذلك افواسا بشبابيك من خشب الارز بالعمل المحكم لدخول الماء وخروجه وكان جعل بين العدوتين فناطر للمجاز لمن في كل عدوة الى الاخرى الاولى فنطرة ابي طوبة التي جددها الامير ابو سعيد عثمان رحمه الله والثانية فنطرة ابي برفوفة والثالثة فنطرة باب السلسلة والرابعة فنطرة الصباغين والخامسة فنطرة كهف الوفادين والسادسة فنطرة الرميلة وحين جاء السيل العظيم سنة خمس وعشرين وسبعمائة حمل فنطرة السلسلة وما بعدها فامر امير المومنين ابو سعيد ببناء فنطرة الصباغين وفنطرة باب السلسلة فبنيتا على حالتهما الآن وبنيت فنطرة الوفادين على يد من تطوع بذلك من المسلمين وبقيت فنطرة الرميلة الى الآن وارجو من الله ان يكون اذخرها لهذا الملك المبارك السعيد وجعلها من حسناته التي يبقى اثرها ويضاعف اجرها وانها

---

(1) Le Mst = عمر بن.

من الحسنات الطويلة لامتاع الكثيرة لانتفاع وسبب اهمال لامراء لبنائها ان اسوار المدينة لما رتب فيها الحجار والسمار في ايام المخالفة واول هذه الدولة المرينية ايد الله ملكها خرج سور الرميلة في فسط اليهود لعنهم الله واشتهر ذلك بينهم فلما تهدمت هذه القنطرة اشاع اليهود ان بناءها عليهم حسبما عليهم حجارة السور ليغتنموا ان يكون اثرها عليهم وليحرموا المسلمين من اجرها ولم يستطع اليهود بالمبادرة لبنائها وقبح على لامراء ان يكلفوهم بناءها خوف ان يبقى اثرها لهم فاهمل النظر فيها بسبب ذلك كل ذلك تلقيناه من جملة شيوخ فاس وما زال كبير لمتونة واميرها يوسف بن تاشفين في زيادة المساجد وسقاياتها وحماماتها وخاناتها واصلاح امورها وافدم من فرطبة جملة من صناع فبنوا منها كثيرا الى ان انتهت الى ما يذكر بعد ان شاء الله تعالى وفي ايامه صارت العدوتان قطرا واحدا وفي ايام ولده على بنى سور الفوراجة التي بين باب الجيسة وباب اصليتن على يد قاضيه عبد الحق بن معيشة بمال وظفه على اهل فاس حسبما ذكره صاحب المقباس وفي سنة اثنتين واربعين وخمسمائة امر لامير عبد المومن بن علي بهدم اكثر لاسوار كذلك الى ان بدا ببناء ما هدم يعقوب المنصور وكمله ولده ابو عبد الله الناصر واقام ببناء القصبة التي بالوادي واتقن اهل السلوك الذين دخلوا مصانع الملوك في سائر لاقاليم انه لا نظير لها لاجل الوادي الذي يشقها وكذلك بنى باب الشريعة على حالها لان كما بنى امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين يوسف بن تاشفين سور زيتون بن عطية واقام البرج العظيم الذي هناك وكتب فيه اسمه وبقاس الآن من لابواب باب الفتوح وباب الكوخة وباب بني مسافر وباب الجيسة وباب اصليتن وباب الشريعة وهي

باب يدخلها الفارس بالعلم العالي والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل العلم ولا يثنى الرمح لارتفاعها وسميت باب المحروق من اجل العبيدي القائم بجبال وزان لما ظهر به وقتل وعلق راسه على باب الشريعة المذكورة واحرق جسده في وسطها وذلك يوم ركبت مصاريعها بامر امير المومنين محمد الناصر بن المنصور سنة ستمائة وباب المطمر المتصلة من ابوابها بالفصبة وباب الوادي التي هي لدخول الكلاء وخروجهم المتصلة ايضا بالفصبة وباب الحديد وباب الزيتون بن عطية وباب الجيزيين المفتوح منها خمسة وسائرها غلق في ايام المجاعة وانتهت مدينة فاس في ايام المرابطين والموحدين من بعدهم من الغبطة والرفاهية والدعة والامن والعافية ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب لسيما في زمن المنصور الموحدي وولده محمد الناصر وكانت المساجد بها سبعمائة وخمسة وثمانين ودور الوضوء اثنتين واربعين والسقايات ثمانين والحمامات ثلاثة وتسعين وارحاء الماء اربعمائة واثنين وسبعين ودور السكنى تسعا وثمانين الفا ومائتين وستة وثلاثين والمصاري سبعة عشر الفا واحدى واربعين والفنادق اربعمائة وسبعة وستين والحوانيت تسعة آلاف واثنين وثمانين وفيسارية واحدة في كل عدوة منها ودار السكة واحدة في كل عدوة منها والاطرزة ثلاثة آلاف واربعة وتسعين ودور عمل الصابون سبعا واربعين ودور الدباغين ستا وثمانين ودور الصباغ مائة وستة عشر ودور تسبيك الحديد والنحاس اثنى عشر ودور عمل الزجاج احدى عشرة وكوش الجير مائة وخمسا وثلاثين وافران الخبز الفا ومائة وسبعين واحجار عمل الكاغيد اربعمائة كل ذلك بداخل المدينة ودور الفخارة مائة وثمانين بخارج المدينة نقل عن المشرف علي بن عمر الاوسي قال نقلته من خط ..... مشرف

المدينة في ايام الناصر بن المنصور.... ....

ولو مر بالمدينة البيضاء والملاح وما هو الى ذلك من الكهوف مفيم الآن بفاس لكانت تنتهي لاكثر من ذلك والله اعلم وكان اذ ذاك بجنبتي الوادي الكبير من حيث يبتدئ دخوله اليها الى ان يخرج منها دار الصباغين وحوانيتهم ودور الدباغ والصابون وحوانيت الكتافين والفصابين والسباجين والمواضع المعدة لطبخ الغزل والبوالين وغيرهم ممن يحتاج الى الماء وفي اعلا ذلك اطرزة للحاكة ولم يكن بالمدينة واد يظهر للناس حاشا الوادي الكبير وبافي انهارها بنى عليها الحوانيت والدور والمصاري ولم يكن بداخلها بستان ولا رياض عدا زيتون بن عطية وخرب اكثر ذلك في ايام المجاعة والفتنة التي كانت في ايام العادل واخيه المامون وذلك عشرون سنة الى ان ظهرت الدولة المرينية اطال الله بقاءها فانجبرت البلاد وتامنت الطرق والعباد

بناء جامعي القرويين والاندلس

واما بناء جامعي القرويين والاندلس وذكر الزيادة فيهما الى هذا الوقت والحين فذكر ابو القاسم جنون وغيره في تاريخ فاس انه لما كثر الواردون عليها في ايام يحيى بن محمد بن إدريس كان ممن قدم عليها من القيروان محمد ابن عبد الله الفهري القروي (sic) ونزل بعدوة القرويين مع اهل بلده الذين وفدوا معه فمات وترك بنتين وهما فاطمة المدعوة بام البنين ومريم وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب ورغبتا ان تصرفاه في وجوه من البر فعلمتا ان الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير في كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين

بالناس فشرعت فاطمة في بناء جامع عدوة القرويين ومريم في بناء جامع الاندلس

جامع القرويين

اما جامع القرويين فكان الشروع في حفر اساسها والاخذ في امور بنائها يوم السبت مهل شهر رمضان المعظم سنة خمس واربعين ومائتين وكان في موضعه الذي بنى فيه ارض لعمل الخضر وفيه اشجار لرجل من هوارة كان قد حاز ذلك ابوه بوجه صحيح حين اسست المدينة فاشترتها منه فاطمة المذكورة ودفعت ثمنها من مالها الحاصل لها من ارثها من ابيها وتطوعت ببناء الجامع المذكور فحفر في ارضه واخذ منها التراب والكدان لبنائه وحفر بها بئر لاخذ الماء لبنائه ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذي اسسه الامام إدريس رضي الله عنه بعد مشورة اهل العلم واجتهادهم في ذلك وبنى من اربع بلاطات من قبلة الوجوه في كل بلاط اثنى عشر فوسا من شرق إلى غرب وجعل محاربه بمقدار البلاط الذي امام الثريا الكبرى الآن وجعل مؤخره صحن صغير وبمؤخره صومعة حيث العنزة الان وتم على نحو ما ارادته وذلك بمطالعة الامير يحيى ثم صلت فيه وشكرت الله تعالى الذي وفقها لذلك ولم يزل على نحو ما بُني في ايام الادارسة الى ان كثرت العمارات واتصل البناء في ارباض المدينة من سائر الجهات وجرى امر زناتة بارض المغرب سنة سبعة وثلاثمائة فازيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره واقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره وصنع له منبر من خشب الصنوبر وكان اول خطيب خطب به الشيخ الصالح ابو عبد الله محمد بن علي الفارسي وقيل

سنة احدى وعشرين وثلاثمائة وان الذي اقام الخطبة اذ ذاك هو لاميـــر حامد بن احمد الهمداني عامل عبيد الله الشيعي على بعض بلاد المغرب بعـد ان كان تغلب عليها مصالة بن حبوس الفائم بدعوة الشيعي عـلى بعض بـلاد المغرب ولم يزل ذلك الى ان تقوى ظهـور زناتة بالمغـرب لاستدعاء الناصـر لدين الله عبد الرحمان بـن محمد ملك بر لاندلس لكبرائهم وروسائهـم وبانتشار وصاياه ووصلة لاخبـار منهم ولهم ومهادأتهم واكرام ساداتهـم وفضى ما باتهم وحيل اهل الطاعة على اهل المعصية منهم ممرًا لمن عجز رجالـه قويا لمن ضعف بماله الى ان هُدّت اليه افئدة كثير منهم بين مصحح في ولايته ومستجيب لدعوته ومغتنم لعطيته مستعين بقوته على مدافعة من فاهر ركنه من لادارسة والشيعة فقام زناتة بدعوة الناصر لديـن الله وتغلبـوا على بعـض بلاد المغرب وبايعه اهل مدينة فـاس في من بايعه حسبما ذكره صاحـب المقتبس فولى عليهم عاملا له من زناتة يعـرف باحمد بـن ابي بكر بن احمـد ابن ابي سعيد الزناتي وكان من اهل الفضل والديـن فكتـب الى الناصـــر ليستاذنه في بناء الجامع واصلاحه والزيادة فيه لحاجة الناس لذلك فاذن له وبعث له بمال كثير من اخماس غنائم الروم وامره ان يصرفه فيه فاصلحه وزاد فيه اربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشـرق وثلاثة من الجـوف في موضع الصحن الذي كان فيه بلاط واحد بعد ان هدم الصومعة التي كانت به لكونها متطاولة لاشراف وبناها وهي الصومعـة التي بالجامع الآن ولمـا شرع في بنائها جعل سعة كل وجه منها احد وعشرين شبرا ويصعد لها عـــلى مائة درجة ودرجـة وجعل بابها من جهـــة القبلة وغشيـت بعـد ذلك بصفائح النحاس لاصفر وتم العمـل في بنائها على يد احمد بن ابي بكر

الزناتي في شهر ربيع الاول من سنة خمس واربعين وثلاثمائة حسبما كتب في التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن وجعل في اعلاها قبة صغيرة ووضع في دورانها تفاريج مموهة بالذهب في زُجّ من حديد وركب في الزّجّ المذكور سيف الامام إدريس بن إدريس رحمه الله الذي اسس المدينة وسبب جعله هنالك أن الامير احمد ابن ابي بكر المذكور لما فرغ من بنائها اختصم اليه بعض حفدة الامام إدريس في السيف المذكور وطلب كل واحد منهم ان يمتاز به ويجوزه لنفسه وطال النزاع في ذلك فقال لهم الامير هل لكم ان تسلموا لي وتتركوا النزاع فيه فالوا له وما تصنع به اذا تركناه لك فقال لهم أجعله في اعلا المنارة تباركا به وليكون لكم ذكر بسببه فقالوا قد وهبناه لك من طيب انفسنا فجعله في دورة الصومعة وجعل تحت القبة المذكورة قبة اكبر منها لجلوس المؤذنين لاشاعة الاذان في اوقاته وكان فيها بيت الراعي منهم لاوقات الليل وانصداع الفجر لاقامة الاذان وبنداته يقتدي المؤذنون بصوامع المدينة يخلدونه على العادة المتقلة من قديم الزمان ولهم بمواضع منها بلاطة رخام موضوعة هنالك بالحكمة وفي وسط كل بلاطة قائم يستدل بصدود ظله على خطوط في البلاطة بطول ازمان النهار ومرور ساعته وقد نصبها اهل العلم بالهيئة عن نظر وموافقة وهي لهم في افضل الهدايات وفي عطفات ادراجها سرج زاهرة الضياء يمر عليها الليل كله يستعان بها أيضا لرعي الفجر واجزاء الليل ولم تزل كذلك إلى ان ولي القضاء بالمدينة الفقيه الخطيب ابو عبد الله محمد بن ابي الصبر ايوب ابن كنون فعمل في ايامه المعدل ابو عبد الله محمد بن الحباك بدنا من الفخار بالقبة العليا فيه الماء وجعل على وجه الماء مجرى من نحاس فيه خطوط وثقاب

يخرج منه الماء بقدر معلوم إلى ان يصل الخطوط فيعلم بذلك أوقات الليل والنهار في ايام الغيم ولياليها وذلك في سنة خمس وثمانين وستمائة ثم غفل عنه واهمل وفي السنة المذكورة شرع في اصلاح الصومعة المذكورة وتبييضها بالجص والجير بعد أن سمر فيها من خارجها ثلاثة فناطير وربع فنطار ونصف ربع فنطار من مسامير الحديد ودلكت بعد تبييضها حتى صارت كالمراة المسفولة بعد ان كان الطير يعشش في بعض برج (1) كانت بها وانقطعت أذايتها (2) وبني ايضا الغرفة المطلة على الصحن وانتقل اليها بيت المرعى للاوقات وجلوس القومة بها واما المنجانة التي صنعت في هذه الغرفة لمعرفة الاوقات فان الشيخ المعدل ابو عبد الله محمد الصنهاجي احدثها هنالك ورسمها له ابو عبد الله محمد ابن الصدّينية الفرسطوني وتطوع بعض المسلمين بالانفاق فيها سنة سبع عشرة وسبعمائة وذلك انه جعل في ركن الغرفة عن يسار المستقبل مجنًّا من خشب الارز وجعل في داخله بدنين كبيرين من فخار احدهما اعلى من الاخر وجعل الماء في الاعلى منهما وباسفله انبوب من نحاس محكم العمل يهبط منه الماء في البدن الاسفل بقدر معلوم وجعل في طرف الجنح مغطسا وجعل في جانبي التغطيسة مرسوما فيهما ايضا الساعات ودقائقها واوقات الليل والنهار وجعل المسطرة معلقة في ..... خارجا من الجنح يجري في حفر التغطيسة طالعا وهابطا وجعل على وجه الماء الذي يجتمع في البدن الاسفل جسما مجوفا من نحاس على هيئة الاطرقة معلقا في الطرف الداخلي على العلو فاذا طلع الجسم بطلوع الماء الذي

(1) Mst = برج.
(2) Mst = اذايتها.

يجتمع في البدن لاسبل طلع طرف ..... الخارج من الطبقيسة وطلعت بطلوعه المسطرة كما كانت ثم غفل عنها واهملت إلى ان تقدم للنظر في لاوقات ابو عبد الله محمد بن العربي سنة سبع واربعين وسبعمائة فجدد المجانة على وجه لائقان افضل من لاول ولم يزل يجتهد في ذلك إلى صدر ايالة مولانا ابي عنان رحمه الله فاكثر لاجتهاد في خدمته وجعل خارج الجنح المذكور قبلة المستقبل دائرة وعليها شبكة لاسطرلاب ورسومه تدور ومتى طلعت المسطرة المذكورة يعرف بها ايضا اوقات الليل والنهار واعد هناك مع ذلك رمليات لاختبار لاوقات وجملة لاسطرلابات فوقف ذلك على من ينظر فيه اجزاء الليل والنهار وصعد مولانا ابو عنان رحمه الله الصومعة ليعتبر في المدينة وترتيبها ووقف على المجانة وما اتصل بها فاستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتبة وسع الله عليه ليستعين به على القيام بشرائع لاسلام وذلك في سنة تسع واربعين وسبعمائة وأمر بأثر ذلك أن تجعل باعلا الصومعة المذكورة صارية ينشر فيها علام في اوقات صلاة النهار وفنار فيه سراج زاهر لاوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد عن المدينة ولم يسمع النداء وفي ذلك اعتناء بأمور لاوقات وما يتعلق بها من وجوب الصلاة وما يترتب عليها من الحقوق ووجوه العادات والعبادات

ما ابيات في ذلك

(البسيط)

نور به علم لايمان مرتفع للمهتدين به للحق من بشر[1]

(1) On lit dans *Djaḍwat* (p. 31) للحق إرشادُ .

ياتون من كل أوب نحوه ولهم مبينا لانسلاخ الليل عن نهار(1)
روح من الماء في جسم من الصفر مولد بالطيب الحسن (2) والنظر
مستعبر لم يفه عن عينه ابدا ولم يبت من ذوي ضغن على حذر
وفي اعاليه حسبان يُفصِّله للناظرين بلا ذهن ولا فكر
اذا بكى دار في احشائه فلك خافي المسير وإن لم يبكِ لم يدُر
مترجم عن موافيت يخبرنا بها فيوجد فيها صادق الخبر
تُقضَى به الخمس فى وقت الوجوب وإن غطّى على الشمس ستر الغيم والمطر
وإن سهرْتَ لاوقات تُوَرِّفُنا عرفْتَ مِقدار وقت السمر والسهر(3)
محدِّد كل ميقات تخيَّره ذوو التمييز للاسبار والحضر
مُخَرِّج لك بالاجزاء أطبقها من النهار وفوت الليل والسحر
نتيجة العلم والافكار صوّره يا حبذا أبدَعَ الافكار في الصوَر(4)

وقد صنع ابو عنان رحمه الله مجانة بطيسان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة التي أحدثها بسوق القصر من فاس وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صَنْجة في طاس وتنبعث طاق وذلك في ايام آخرها الرابع عشر لجمادى الاولى من عام ثمانية وخمسين وسبعمائة على يد موقته أبي الحسن علي بن احمد التلمساني المعدل واما القبة التى باعلى العنزة فانه لما

---

(1) Cet hémistiche, dans *Djadwat*, est différent : لَدَيْه للرَّسْدِ إصْدَارٌ وَإيرادُ et donne un meilleur sens. Comme on le voit pour ces deux premiers vers, dans la *Djadwat*, la rime est en *ār*.

(2) *Djadwat* = الحدق.

(3) Ce vers manque dans *Djadwat*.

(4) Ces deux derniers vers manquent dans *Djadwat*.

تغلب المظفر ابن المنصور(1) بن ابي عامر حاجب هشام المويد على بدينة فاس بعد مناوشته سنة ثمان وثمانين وثلاثماية بنى القبة المذكورة ونصب اعلاها طِلَسْمَات وتماثيل كانت قبل ذلك على راس القبة التي كانت باعلا المحراب الاول بالجامع المذكور مما صنعه الاوائل ومنه ما صنع في ايام الشيعة فجعل الطلسمات على أعمِدة من حديد منها طلسم الفار على صورة الفار فكان الفار لا يدخلها ابدا ولا يعشش فيها وان دخلها افتضح وقُتِل ومنها طلسم العقرب وهو على صورة طائر في منقاره شبه ذنب العقرب فكانت العقارب لا تدخلها ابدا وان دخلت افتضحت وان دخلت في ثوب احد خمدت لا تتحرك ومنها طلسم في طفافيح من نحاس للحية فلا تدخله حية وان دخلت افتضحت وقتلت وما يوجد فيه من الحيات فهي من عمار الجن وهذا لا ينكر لان الله سبحانه اجرى عادته في ارتباط بعض الاشياء ببعضها اذا كانت في وقت مخصوص ولا يعلم قط على قديم الزمان وحديثه من لَدغتْهُ عقرب ولا حية وقد تعطل ذلك كله منذ اعوام.....(2) والبيلة المستطيلة عن يسار الخارج من باب الحفاة الجوفية فان المظفر بناهما وجلب الماء اليهما من وادي حسن الذي باعلا المدينة من ناحية باب الحديد واما الذي صنعه المظفر ابن المنصور بعدُ المنبر الذي صنع في أول ظهور زناتة فكان من عود الابنُس والعنّاب وغيرهما وكان مكتوبا عليه بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم هذا ما أمر به الخليفة المنصور سيف الاسلام عبد

---

(1) Sur ce personnage et son expédition en Maghrib, voir *Qirṭâs* (éd. p. 75).

(2) Cette lacune pourrait être ainsi comblée : وأما السقاية , mots que donne la *Djaḍwat* reproduisant cette partie de ce texte.

الله هشام المؤيد بالله اطال الله بقاءه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن المنصور ابن ابي عامر وفقهم الله تعالى وذلك في ثمان وثمانين وثلاثمائة وكان يخطب عليه إلى ايام علي بن يوسف بن تاشفين فترك .صنع المنبر الذي بها الآن على يد قاضيه أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي ولم يتم في ايامه وتمم بعد صرفه عن قضاء فاس على يد القاضي بعده ابى مروان عبد الملك بن بيضاء القيسي وصنع من عود الصندل والابنوس والدارنج والعناب وعظم العاج والذي صنعه ونجره الشيخ الاديب ابو يحيى العتاد وكان ممن عمر عمرا طويلا حتى زاد على المائة سنة وكان اماما في اللغة والشعر وروى عنه جلة من اهل فاس وغيرها وكان جلة النفقة فيه من مال الاحباس المستخرج من الوكلاء عليه ثلاثة الاف دينار وثمانمائة دينار وسبعة اعشار دينار فضة وكان له غشاءان احدهما من جلد معزي والثاني من خيرة كتان يُزالا عنه في كل يوم جمعة وذلك في شعبان سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة حسبما كتب على ذروته بالعاج

الخطباء والأيمة بجامع القرويين

والخطباء الذين خطبوا فيه عند صنعه في اخر دولة لمتونة وفي الدولة الموحدية وصدر الدولة المرينية اطالها الله تعالى الى زماننا هذا اولهم الخطيب ابو محمد المهدي بن عيسى وكان من احسن الناس خِلقا وخُلقا وافصحهم لسانا واكثرهم بيانا وكانت موعظته تؤثر في القلوب والاخلاق وكان يخطب في كل يوم جمعة خطبة لاتشبه اخرى فاقام يخطب مدة خمسة اشهر ثم دخل الموحدون المدينة فصرفوه عن الخطبة وقدموا مكانه الفقيه الصالح ابا الحسن بن عطية

لاجل حفظه اللسان البربري لانهم كانوا لا يقدمون للخطبة والامامة الا من كان يحفظ التوحيد باللسان البربري فخطب به الى ان توفى في ثامن ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فخطب بعده الفقيه الصالح الورع ابو محمد يشكر بن موسى الجراوي (1) وهو أحد اشياخ المغرب في الدين والفضل والزهد والورع والمجاهدة والتقشف والايثار والصدقات كثير القيام بالليل لسيما في رمضان قيل له ذات ليلة لو روحت نفسك قليلا واعطيتها حظها من النوم لكان ارفق لك فقال انما اطلب راحتها في الاخرة ثم انشد رحمه الله

(الكامل) (2)

لا تجعلَنْ رمضانَ شهرَ فكاهَةٍ تُلْهيك (3) فيه من الحديث فنونُه
واعلمْ بأنك لاتنال ثوابه حتى تكون تصومه وتصونُه (4)

وروى عنه ان احد عمال الموحدين بفاس كتب لمراكش ان ابا محمد يشكر كان يدعو للخلافة فوصل الخبر بذلك إلى الخليفة في حال خروجه فبعث من حينه بان يُشخَص وكان من الواقفين بين يديه احد الصقلب وبيده طَبَرْزِين (5) من حديد فاخذه (6) منه وامسكه بيده وقال لمن حضر بهذا اقتله فُقدِّر أنه ضرب جبهة نفسه بطرف الطبرزين فانبعث من الضربة دم كثير

(1) Mst = الجرادي.
(2) Ces deux vers sont cités dans *Qirṭâṣ* (éd. p. 197) et *Djaḍwat* (éd. p. 33).
(3) *Djaḍwat* (p. 33) = ناهيك.
(4) *Qirṭâṣ* et *Djaḍwat* = تقومه.
(5) Mst = اطرزبين.
(6) Mst = أخذ.

فبادر الاطباء بقطع دمه بجملة من الادوية وانواعها فلم ينقطع وكان ممن حضر عند الخليفة احد الصلحاء فتفرس في ذلك وقال للخليفة إن كنتَ هممتَ بسوء فتُبْ منه فتذكر إشخاص ابي محمد يشكر فتاب من ذلك وبودر برد الذي بعث لاشخاصه فانقطع الدم من حينه وكان له نفعنا الله به غنم وماشية كثيرة ببلاده التي نشاء بها ورثها عن ابيه وكان متصدقا بكثير منها وكان يؤمّ ولا يخطب لانه كان اعجمي اللسان شديد العجمة فقدم ليخوب عنه في الخطبة خطيبا الفقيه الزاهد ابا عبد الله بن زيادة الله المزني (1) وانفرد بالامامة ثم توفي ابو عبد الله بن زيادة الله في ثالث وعشرين من جمادى الاولى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة فخطب بعده الفقيه ابو القاسم بن حميد باستخلاف ابي محمد يشكر له في ذلك وتوفي ابو القاسم بن حميد يوم الاثنين الرابع عشر لشهر رمضان سنة احدى وثمانين وخمسمائة فخطب بعده الفقيه الصالح الورع ابو عمران موسى المعلم لكتاب الله تعالى باستخلاف أبي محمد يشكر له في ذلك وكان ابو عمران هذا يعلم الصبيان بالمكتب الذي بفنطرة ابي رءوس وكان له صوت شجي حسن يبكي كل من سمعه يقرأ القرآن ولما كان في الخطبة داخلته دهشة واطلق صبيانه ثم أخذ في البكاء والدعاء وقال اللهم لا تفضحني بين عبادك يا ارحم الراحمين ولما نادى المؤذن يوم الجمعة لبس احسن ثيابه وسار الى الجامع فقعد في حجرته حتى خلا الاذان فقام وخطب ولم يتوقف ولم يتلجلج ثم دخل المحراب فاتى بالحكمة وفصل الخطاب في قراءته فبكى كل من حضر فلما تمت الصلاة اقبل الناس اليه

(1) Sans doute faudrait-il lire المدني comme dans le nom propre analogue donné ci-dessous à un autre *khaṭîb*.

يقبلون يديه ويتبركون به ولم يزل خطيبا الى ان وصل الفقيه القاضي ابو محمد عبد الله بن ميمون الهواري فكان اول سواله لاهل المدينة عن خطيب جامع القرويين فذكر له فيه خيرواثنى عليه كثيرا فلما جاءت الجمعة رءاه فلم تعجبه صورته واستشنعها وقال فيه قولا فقال له بعض من حضره لو سمعت خطبته لاعجبك فلما سمع خطبته بكى وطلب منه المغفرة والدعاء وكان سريع الدمعة كثير الخشوع الغالب عليه في احواله الخوف وتوفي ابو محمد يشكر في الحادي والعشرين لذي القعدة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة واقام اماما بجامع القرويين اربعين سنة لم يسه في ذلك لشدة حضوره في صلاته ولم يترك عقبا و بنو يشكر الذين بفاس الآن ليسوا من عقبه وانما اشتركوا في الاسم واجتمع لابي عمران الخطبة والامامة إلى ان توفي في عشرين من صفر سنة ثمان(1) وتسعين وخمسمائة فخطب بعده ولده الفقيه ابو محمد عبد الله وسنه يوم ولي ثمان عشرة سنة وكان له حظ وافر من الجمال والعلم والدين والفضل والورع وحسن الصورة لم يكن له صَبْوة في صغره ولم يزل مشتغلا بطلب العلم منقطعا للعبادة ولما مرض والده ابو عمران قيل له استخلف ولدك للصلاة فقال ان علم الله فيه خيرا فهو يستخلفه فلما توفي ابو عمران وحمل إلى قبره ووضع على شفيره للصلاة رضي الناس بالبكاء وطلب من يصلي عليه فقال قاضي البلاد لولده تقدم فصل على أبيك فتقدم وصلى عليه وانصرف الناس وقدم في موضع أبيه واستحسنه الناس ولما اتى الناصر بن المنصور الى مدينة فاس بعث اليه ليراه فوصل اليه وسلم عليه وبقي يحادثه الى وقت

(1) Il vaut mieux lire تسع avec *Qirṭâs* (éd. p. 50).

الظهر فقال له قم فصل بنا ثم قال له الناصر من تركت في موضعك للصلاة بالناس فقال تركت من هو خير مني وهو معلمي الذي قرأت عليه القرآن وذلك لانه لما وصلني رسولك تخيرت في امر من يتقدم لذلك فقلت لا اعلم متى يكون الرجوع هل بالقرب او بالبعد ثم تذكرت قول الرسول عليه السلام مولاك من علمك أية من القرآن(1) فأعلمته بالقضية واستخلفته في مكاني فقال له الناصر جزاك الله خيرا ثم امره بالانصراف وأتبعه مملوكا بجملة ثياب وصرة فيها الف دينار فرجع الى الناصر وشكره ودعا له وقبل منه الثياب واستعجاه في أمر الدنانير فاعجاه ولم يزل خطيبا واماما إلى ان توفي في يوم الحادي عشر لرجب سنة احدى عشر وستمائة فخطب بعده الفقيه ابو محمد عبد الله الفضاعي المشار اليه باستخلافه وقت مرضه فانتقد عليه وطعن الناس فيه انه يبعث صبيان مكتبه للنساء وطالع(2) في ذلك من له النظر العام فقال ان الذي قدمه للصلاة اقربين يدي الناصر امير المومنين أنه خير منه فاتركوه على حاله(3) فترك ابو محمد المكتب وصار معتكفا في الجامع ويسكن في الدار الموقفة على أيمة الجامع إلى ان توفي يوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان سنة خمس عشرة وستمائة فخطب بعده الفقيه العالم ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشبلي وكان من اهل العلم والدين والفضل

---

(1) Mst : مولاى ثم مولاى ; même lecon dans *Djdḏwat* (36) ; voir *Qirṭâṣ* (p. 51 *in princ.*).

(2) Mst = طولع.

(3) Ces paroles sont à peu près textuellement tirées du *Qirṭâṣ* qui les met dans la bouche du khalife En-Nâsir, ce qui rend ce passage beaucoup plus clair.

وكان له صوت حسن ومعرفة بالاوقات توفى سنة تسعة وعشرين وستمائة (1)
فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح الحاج ابو عبد الله محمد بن عبد الله المدعو
بالخطيب توفى سنة خمس وثلاثين وستمائة فخطب بعده الشيخ الفقيه
الصالح الورع ابو محمد عبد الغفار سنة اشهر وتاخر لنفسه وكان سبب تأخره
ان احد الحساد اشاع عنه أنه ينون السلام فيقول السلامُ عليكم وبلغه ذلك
فاستدعى جماعة من وجوه المدينة وقال لهم إنه بلغني أنه يقول أني انون
السلام وبالله ما فعلت ذلك قط ولاكِنَّكُمُ انظروا لانفسكم من يكون عوضا
عني وبالله الذي لا اله الا هو لا تقدمت باحد أبدا فخطب بعده الشيخ
الورع ابو الحسن علي المعروف بابن الحاج يحكى أنه لما تاخر ابو محمد عبد
الغفار رغب الناس في الشيخ الصالح ابي محمد عبد الله البشتالي أن ينظر
لهم خطيبا فوعدهم ان يستخير الله تعالى في من يصلح لذلك فرأى
في منامه النبي صلى الله عليه وسلم يشير عليه بابي الحسن المذكور فلما
كان الصباح جاء إليه الناس الذين وعدهم فقال لهم الشيخ ابو محمد عليكم
بابن الحاج فامتنع ثم رغب المرة بعد المرة وامتنع أن يسكن الدار المحبسة على
أيمة الجامع وقال لا ينبغي ان يكون السكنى عوض الامامة وتورع عن
ذلك فقيل له ان لم تسكنها تعطل حبسا عينه المحبّس لذلك فقال
أمهلوني لانظر لنفسي مخرجا ثم أجاب لسكناها على ان يكون يخيط حصر
الجامع ورأى ان ذلك عوضا عن السكنى والله ينفعه بذلك توفى رحمه
الله سنة ثلاث وخمسين وستمائة فخطب (بعده) الشيخ الفقيه المشاور الورع

---

(1) Le Mst donnait 609; *Qirṭâs* (p. 51) donne 629 et la *Djaḍwat* (p. 35) indique 629 et aussi 626.

ابو عبد الله محمد بن يوسف المزذغي ثم فام ولده عوضا عنه وكان لما دُعى للامامة استرجع ثلاث مرات فقيل له لم ذلك فقال انه اخبرني الشيخ الحافظ المحدث ابو ذرى الحسني(1) وانا اروي عليه كتاب الاحكام في الحديث النبوي يوم توفى الفقيه ابى محمد بن موسى المعلم وولى القضاء عوضه ونظر الي مليا ثم قال لي يا محمد انك تلي الامامة للصلاة بالناس في جامع القرويين وذلك في اخر عمرك فلما دُعيتُ للامامة تذكرت مقالة الشيخ وعلمت ان اجلي قد قرب فاسترجعت وأقام ابو عبد الله محمد المزذغي إماما وولده ابو القاسم خطيبا الى ان توفى ابو عبد الله محمد في تاسع ربيع الاخر سنة خمس وخمسين وستمائة وولى الامامة بعده الشيخ الفقيه (الصالح الزاهد الورع) ابو الحسن علي بن حميد (ثم توفى الخطيب ابو القاسم المزذغي المذكور وولى الخطابة الفقيه ابو عبد الله محمد بن)(2) زيادة الله المدني(3) الى ان توفى وبأثره توفى ايضا ابو الحسن بن حميد رحمهما الله تعالى فخطب بعدهما بتقديم فقهاء المدينة واشياخها الشيخ الفقيه ابو القاسم عبد الرحمان بن مشونة وقدم للامامة الشيخ الفقيه القارىء ابو العباس بن ابى زرع واقاما في ذلك مدة من سبعين يوما فخطب بعد ذلك الشيخ الفقيه ابو عبد الله محمد بن ابي الصبر ايوب بن يكنون الزناتي النفسجي من بني سدر واضيفت له الامامة كل ذلك بامر أمير المؤمنين ابي يعقوب

---

(1) Mst = ابو در الخشنى, ainsi que la *Djadwat* (p. 36); la leçon donnée ici est tirée du *Qirṭâs*, p. 53.

(2) Les mots entre parenthèses manquent dans le mst; ils sont tirés du *Qirṭâs*, *ibid.*

(3) Mst = المزنى; *Qirṭâs* = المدني.

في سنة تسعة وثمانين وستمائة الى ان توفى في تاسع ذي القعدة من سنة ثلاث وتسعين وستمائة فخطب بعده الفقيه ابو الحسن يحيى بن ابي القاسم عبد الرحمان بن محمد بن يوسف بن عمران بن الفتوح المزدغي في يوم الجمعة التاسع عشر لجمادى الاخيرة سنة اربع وتسعين وستمائة وتقدم للامامة الفقيه المحدث الاصولي ابو العباس احمد بن راشد العمراني عن أمر امير المومنين ابي يعقوب رحمه الله في موفي عشرين من جمادى المذكورة واقام اماما ثلاثة اعوام ثم صرف منها واضيفت الامامة الى ابي الحسن المذكور المزدغي الى ان توفى في خامس وعشرين من شوال سنة ست وعشرين وسبعمائة فخطب بعده ولده الفقيه المحدث ابو الفضل محمد (1) وكان حسن

---

(1) L'auteur du *Qirṭâs* qui vivait et écrivait à Fès son livre en 726 donne une recension différente de ce passage. Les deux textes, pouvant se compléter l'un par l'autre, voici ce passage (*Qirṭâs*, p. 52-53) :

..... مدة من سبعين يوما فوصل ظهير كريم من قبل امير المسلمين ابي يوسف بن عبد الحق فتقدم الشيخ الصالح المبرور ابي عبد الله محمد بن ابي الصبر ايوب اماما وخطيبا فلم يزل كذلك اماما وخطيبا إلى ان توفى رحمه الله في سنة تسعين وستمائة فقدم امير المسلمين ابو يعقوب بن ابي يوسف بن عبد الحق رحمه الله للامامة الشيخ الفقيه المحدث الورع ابا العباس ابن الفقيه العالم الرحون ابي عبد الله بن راشد امام عصره في علم الاصول والاعتقادات وقدم ايضا للخطبة الفقيه المحدث الصالح الفاضل المبارك ابي الحسن ابن الشيخ الفقيه الخطيب المرحوم ابي القاسم المزدغي فبقي ابو العباس بن راشد اماما للجامع المذكور نحو ثلاثة اعوام ثم أخر واستبد الفقيه ابو الحسن المزدغي بالامامة والخطابة الى ان كبر سنه وضعف من الخطابة فقدم للخطابة ولده الفقيه الفاضل الصالح المبارك ابو الفضل أبقى الله بركاتهم بمنه وفضله إنه سميع كريم مجيب سبحانه وتعالى

السمت قليل الضحك مولعا بقضاء حوائج الناس ممن عرف ومن لا يعرف تارة بنفسه وتارة بماله وتارة برسالته مؤثرا جوادا حتى انه لا يرد سائلا ولا شاعرا قصده بل يبادر لقضاء حاجته وربما عدله بعض الناس في ذلك فكان ينشهدهم متمثلا

(الكامل)

لا تقبلنّ الشعر ثم تُضيعُه ... فتنام والشعراء غير نيّام
واعلَمْ بانهم اذا لم ينصبوا ... حكموا لأنفسهم على الحكّام
وجناية الجاني عليهم تنقضي ... وعقابُهُمْ يبقى على الايّام

وكان الناس يتوسلون به عند الخلفاء والامراء وغيرهم في حوائجهم لمنزلته عندهم وكان كثير تسبّباته في الحراثة والزراعة والغراسة وكسب اموالا كثيرة وكان كثير الانباق لنفسه وحاشيته لاسيما في المواسم والولائم الى ان ارتكبته ديون كثيرة وغفل عن ضبط ماله والتفقد لاحواله واسترسل بالمسامحة للوكلاء فتعين عليه مال جسيم مبلغه احد والثلاثون الف دينار وثلاثماية دينار كلاها من الذهب العين من جملتها ودائع كانت بيده ولم يبلغ ما البقى بيده وقدره من الاملاك والرباع وغير ذلك عند طلب الناس اموالهم وفيامهم عليه حاشى عشرة الف دينار وخمسمائة دينار من الفضة افتسمها الغرماء حسب ديونهم ولما سمع أمير المسلمين ابو الحسن رحمه الله عند تحققه بذلك صرفه عن الخطبة والامامة ورأى ان ذلك مما يقدح فيه وانفذ أمره بصرفه فرفع له هذه الابيات

(الطويل)

أمولاي يا فخر الملوك ومن له ... مزايا على كل الملوك الأكابر
أما إن تحنّ او ترحّم شأفتي (1) ... وحبك ثاوٍ في الحشا والضمائر
وحبّك في قلبي (2) اليك مجدّد ... لدا كل بادٍ في الأنام وحاضر
فكيف يضيع الحب يا نورَ ناظري ... وأنت إمام ذو (3) العلا والمآثر
وكيف يكون المرء اعني حبيبكم (4) ... مضامًا مهانًا في القرى والحواضر
وقد قال اهل العلم طُرًّا بقاسنا ... بأن الذي قد كان ليس بضائر
وغاية ما قد عدّدوه (5) صغائرُ ... ولا فرح (6) فيمن قد أتى بالصغائر
أأبعَدُ عنكم دون فعل كبيرة ... وأُمنَعُ فهرا من سعود المنابر
ولو كنتُ يا مولاي أعلَم أن مَن ... رقى منبرا مثلي يكون مناظري
لَمَا طمحت نفسي لشيء من العلا ... والزمتها هون (7) الصعوب الاواخر

ولمّا وقف عليها السلطان ندم على صرفه وكتب لامر بذلك لمدينة فاس من منصورة تلمسان في الثالث عشر شعبان سنة ست واربعين وسبعمائة ووقف لامير ابو الحسن رحمه الله على قصيدة من نظمه كان اراد رفعها لمقامه العلي حين غلبه الدين يستنجده ويعينه في دينه فخجل من ذلك

---

(1) *Djadwat* (p 37) = اما ان تحنو وترحم شاختي .
(2) *Djadwat* = وحب ابي قلبي .
(3) *Djadwat* = ذي .
(4) *Djadwat* donne aussi la version, très acceptable : وكيف يكون المزدغي عبيدكم .
(5) Mst = عددوها .
(6) *Djadwat* = فدح .
(7) *Djadwat* = بيمن .

واجرى له جراية (1) مبلغها مائة دينار وخمسون دينارا فضة كل شهر الى ان توفى فى عقب شوال سنة ثمان واربعين وسبعمائة ومن القصيدة

(البسيط)

ما لي سوى المقتدي بالكتب والرسل ... بعد الاله أمير المسلمين علي
ما لي سواه لما ارجوه من مفرّ (2) ... ما لي سواه لنيل السؤل والامل
نجل الخليفة عثمان الذي وضحت ... منه المعالي وضوحًا غير محتمل
اعني ابا حسن قطب الملوك ومن ... أحيى الخلافة في علم وفي عمل
عز (3) الملوك اذا خطب ألمّ بهم ... غيث العفاة أمان الخائف الوَجِل
بحر السماحة فياض لوارده ... عذب ويرويك في نبل (4) وفي نهَل
ينسيك يوم هياج الحرب عَمْرَهم (5) ... عند الطعان وما عمرو بمحتمل
ماضي العزائم فرد في شجاعته ... يوفر (6) على كل ذى وصف وذي مثل

ونُقِل مثل هذا انما هو ليكثر الشاعر من الشكر على القناعة وليذكر المغرور ويعتبر الغافل فخطب بعده الفقيه التالي لكتاب الله تعالى ابو محمد عبد الله الجنياري كان رحمه الله كثير الصوم وقدمه لذلك ابو الحسن أمير المسلمين رحمه الله الى ان توفى يوم الخميس السادس والعشرين لشهر جمادى الاولى

---

(1) Mst = جارية et ajoute après ce mot ainsi que *Djadwat* (p. 38) : من مجنى فاس « provenant des produits de (la ville) de Fès ».

(2) *Djadwat* = منن qui vaut mieux, pour la mesure du vers et le sens, que مفر.

(3) *Djadwat* = غوث.

(4) *Djadwat* = عيل.

(5) *Djadwat* = عنترة (il s'agit ici de 'Amr ben Madi Kariba et non de 'Antara).

(6) *Djadwat* = يُربي qui vaut mieux que يوفر pour la mesure.

من سنة خمسين وسبعمائة فخطب بعده الشيخ الفقيه العالم الصالح الولي ابو الحجاج يوسف بن عمر الانباسي بتقديم مولانا ابي عنان رحمه الله بعد الاستخارة والنظر والاصلاح للمسلمين وقبل التقديم بعد ان ابدا لنفسه أعذارا لم يسمح له فيها للمصلحة التي غلبت على أعذاره وفرح الناس بتقديمه له وشكروه على اعتنائه بالامور الدينية وبعث له في اول خطبة خطبها كسوة سنية تشتمل على برنوص وبدن كلاهما أبيضان من صوف واحزام للتردية وجندبان للتعميم ودُرّاعتين من ثوب الرصان وفبطية شراشية العمل فقال الرسول الذي حملها له ان قيمتها ازيد من مائة دينار من الذهب ولما وصلته خجل من ذلك وقال ان هذه الكسوة لا تصلح لمثلي وفيما عليّ من اللباس كفاية وفهم منه طلب المعاوضة في قبولها فقال له الرسول أنت من اهل العلم وعندك وجوه لاخذها وانما قصد مرسلها ومهديها التنويه بأهل العلم مثلك ليمتاز اهل الخطط من غيرهم وليعلم الناس بتقديمه لك وبما في الهدية من التودد فقبلها وشكر عليها ودعا له بصلاح الاحوال ثم لبسها في حال خطبته الاولى ثم وهبها بعد ذلك لمن يستحقها من كرماء البلد وافتصر على عادته في لباسه ولم يزل عنده محمولا على المَبَرّة والاكرام مقضى الحوائج على الدوام وخطب نائبا عنه لاعذار ابداها الشيخ القاضي الراوية المحدث ابو عبد الله محمد بن الحاج ابي الحسن علي بن عبد الرزاق الجزولي وما زال ابو الحجاج يوسف يعتذر على القيام بها إلى ان استبد بها للقيام بذلك الفقيه ابو عبد الله بن علي المذكور وافام خطيبا الى ان اختلّ حفظه وظهر عجزه من الخطبة فخطب بعده الفقيه الاعدل الصالح ابو محمد عبد الله ابن الخطيب أبي محمد عبد الواحد ابن الخطيب ابي عبد الله محمد بن ابي

الصبر بتعيين ابي عنان رحمه الله تعالى لذلك في يوم عجز من ذكر وذلك يوم الجمعة الرابع عشر جمادى الاولى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وتوفى الفقيه ابو عبد الله بن علي بن عبد الرزاق المذكور في يوم الاحد الرابع لذي القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وبقي الصالح ابو الحجاج اماما الى ان مرض وعجز عن القيام بالامامة فقدم ولده الشاب الصالح الولي الوريع ابا الربيع سليمان نائبا عنه في ذلك بعد أبائه منه ثم أجاب في يوم الاربعاء الثامن عشر لرمضان سنة ستين وسبعمائة واستمرت الاستنابة الى ان توفى والده المذكور في يوم الاحد الثالث عشر لشعبان سنة احدى وستين وسبعمائة واستقل ولده ابو الربيع بالامامة وظهر عنه خير واستقامة ثم تأخر من تلقاء نفسه نفع الله به لأمر ظهر له في ذلك واجتمع لابي محمد عبد الله الصبر[1] المذكور الخطبة والامامة في اواخر عام ستة وستين وسبعمائة

ما زيد من البناء في الجامع

ومن الزيادات في الجامع المذكور الباب الاكبر الغربي الذي بسماط الموثقين بني من مال الاحباس[2] في ايام الفقيه القاضي ابي عبد الله محمد بن عيسى السبتي سنة خمس وخمسمائة كذا قاله صاحب المقباس ثم صنع بخارجة قبة الجص المفربسة[3] التي عليها الآن الغربية الصناعة سنة سبع عشرة وستمائة على

(1) Il faudrait lire ابن أبي الصبر au lieu de الصبر.

(2) Le mst = من مال ذي الاحبال ; l'auteur du *Qirṭâs* indique que les travaux en question furent faits sur les revenus des biens habous, (cf. éd. p. 38) ; le passage est cité ainsi dans *Djadwat*, 40.

(3) Mst = مغوسة ; Cpr. *Djadwat*, p. 40.

الخطيب أبي عبد الله بن موسى المعلم فاله صاحب لانيس والباب لاكبر المعروف الآن بباب الشماعين بني من مال لاحباس في ايام الفاضي ابي عبد الله محمد بن داوود سنة ثمان عشرة وخمسمائة(1) كذا كتب في قبة الجص التي بداخله وصنع مرتفعا واسعا على صفة الباب الفريب منه المذكور انفا وركب عليه مصراعين عظيمان فد حسنت فاعدتاه على ما هو الآن عليه وحين حفر أساس هذا الباب وجد على يسار الداخل منه حيث هي الدكانة الآن بناء مغبّى فُدِر أنه كنز بهدم بعض لافباء فوجد تحته صهريج طوله ثمانية اشبار وعرضه كذلك وفيه ماء معين وبالصهريج سلحفاة فد ملأته واختلفوا في اخراجها ثم رأوا أن يشاوروا في ذلك فقهاء فاس فاشاروا بتركها في موضعها وان يُعاد لافباء عليها كما كان وهذه الفتوى لا تصلح والله أعلم لان السلحفاة ان كانت فيها الحياة فلا يجوز أن يبنى عليها وإن كانت ميتة فلا يجوز ايضا بناء المسجد على الميتة اللهم لا ان يكون ذلك الماء غداء لها وليس في البناء عليها تعذيب لها فلا يمنع البناء عليها وايضا فقد كان من تقدم ربّما جرب غير ما مرة وفوع الضرر لمن يريد اخراجها من موضعها اما لكونه جنّا عامرا أو غير ذلك والله أعلم ولما تم بناء هذا الباب عمل باعلاه قبتان احداهما من الجص بداخله وعملت القبة الثانية من خشب الارز بخارجه ثم اضطرمت نار من جهة باب السلسلة وأحرقت ما مرّت عليه من الاسواق إلى ان وصلت قبّة الخشب المذكورة فاحرقتها وذلك في شهر جمادى الاخيرة سنة احدى وسبعين وخمسماية ثم جدد خارج الباب والقبة التي

(1) Le *Qirṭâs* indique que l'inscription de fondation porte la date de 528 (éd. p. 39) ; tandis que *Djaḍwat* (p. 40) donne la date erronée de 710.

احترفت وصنعت القبة من الجص على نحو ما هي الآن على يد احد عمال الموحدين في سنة ستماية كذا كتب فيها وكان الانفاق في ذلك من بيت المال وفي أيام القاضي أبي عبد الله محمد بن داوود زيد في الصحن بلاطان من الجهة الشرقية ومن الجهة الغربية كذلك وفرش الصحن في أيامه حسبما ذكره صاحب المقباس ومن الانيس ان الصحن كانت فيه فعرات يحتبس فيها الماء فتطوع العريف المشعر أبو عبد الله محمد بن احمد بن صخر بفرشه من ماله وكان له أربع من الدور موروثة عن أبيه فباعها وأنفقها فيما يحتاج إليه من أجور وجير وغيره وتولى فرشه بيده ولم يأخذ في ذلك كله من أحد شيئا وقال انما ابتغيت بذلك وجه الله تعالى وهو الفرش الذي به الآن وفي طوله من شرق الى غرب مائتا صف وثلاثة وأربعون صفا في كل صف مائتا أجورة وثمان عشرة أجورة فيصح في تكسيره ثلاث وخمسون الف أجورة وثمان عشرة أجورة غير ست وعشرين أجورة وفي طوله أيضا من الاشبار مائة واثنين وثمانون شبرا وفي عرضه خمسة وعشرون شبرا ومما زاده القاضي محمد بن داوود بصحن الجامع المذكور فعل له مظلا من شقف كتان تنشر عليه كل يوم جمعة في زمن الصيف يحجب بها الشمس عن المصلين المتأخرين عن الرواح لبعد المنازل الذين لا يجدون محيصا عنه لتضايق الجامع وجعل في اطنابه سلسلتان تجريان في بكر موثقة بالرءوس الدائرة على جوانب الصحن ترتفع بها المظل مدة الحاجة اليه ثم انه يحط ويزول ويحدث إلى وقت الحاجة إليه أيضا وجعل في مواضعه فرجا يتنفس منه الهواء وبقي كذلك اعواما إلى ان تمزقت وأهمل النظر فيه وبكره ظاهرة الى الآن كذا انقله صاحب الانيس وقد أنشد في معنى ذلك

(الطويـــل)

تبسّحتِ الدّنيا بعدلِك في الورَى وبسّحتَ لمّا ضاق للخَلْق جامِعا
شكى صحنُهُ شمسَ الظهيرة ضاحيا(1) فأطللتَه ظلّا على الوهج دافِعا

ولما كثرت العمارة بالمدينة في أيام أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وضاق الجامع بكثرة المصلين الى ان كانوا يصلون بالشوارع والاسواق اجتمع فقهاء المدينة واشياخها ورفع ذلك للقاضي ابي محمد عبد الحق ابن عبد الله ابن معيشة الغرناطي سنة تسع وعشرين وخمسمائة وداوّلوا له كيف تصح الزيادة فيه وبينوا له وجوها في الاعانة على بنائه وعلموه ان كثيرا من أوقاف المساجد عند كثير من اهل فاس قد أدخلوها في منافعهم وحسبوها من اموالهم وانها تقوم بالنفقة بالزيادة المذكورة فشاوروا في ذلك الخليفة علي بن يوسف وأعلموه أن ذلك من عمل رفع الدين والتوسعة للمصلين لاسيما في يوم الجمعة الذي في أعياد المسلمين فاذن للقاضي(2) وتوجه الطلب على النظراء والوكلاء في ذلك ومحاسبتهم بذكر ان الذي أبرزته المحاسبة ثمانون الف دينار فضة ثم امر في شراء الاملاك التي كانت بقبلة الجامع فاشتراها باحسن شراء قيل ان اكثرها كانت لليهود لعنهم الله وكان أعلمهم أن من الفقه اذا ضاق الجامع فان جيرانه يجبرون على بيع ما يحتاج اليه منها فأجابوا لذلك وحين كمل لهم الشراء اراد ان يهدمه ويبيع ما لا يحتاج اليه من نقضه فاجتمع ذلك ازيد المشتريات به ثم

---

(1) Mst = صاميا ; *Djadwat* = ضاحيًا ; on pourrait lire aussi صامحًا

(2) Le texte du mst donne له au lieu de للقاضي ; *Djadwat* = لهم .

أخذ في البناء بتمادي البناء في هذه الزيادة بكملت عشر بلاطات من صحنه الى قبلته وأخذ في عمل القبة التي باعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصل بهما فعل ذلك بالجص المفربس (1) الفاخر الصنعة والنقش فيه على المحراب ودائر القبلة التي عليه ورُفش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد واصناف الاصبغة وركب في الشماشات التي بجوانب القبة اشكال متقنة من انواع الزجاج والوانه على احسن ما أُريد ثم اخذ في تغشية بعض ابواب الجامع بصفائح النحاس الاصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن وامر بعمل المنبر الذي به الآن على نحو ما ذكر قبلُ من أجل ان الذي كان قبله قد درس وقد ذكرناه ثم بدا العمل في بناء مقدم (2) القبة حيث يدخل على مصلى الجنائز بعزل القاضي ولم يتمّ ما اراده وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية وتقدم غيره ولم يشرع في شيء من ذلك وبقي على حاله إلى ان ولي قضاء المدينة الشيخ الفقيه ابو مروان عبد الملك بن بيضاء القيسي سنة سبع وثلاثين وخمسماية ويذكر انّ النقش والتذهيب الذي كان باعلا المحراب ودائر القبة التي عليها غطي ذلك كله بالكاغيد وعمل عليه الجص حين عزم الخليفة عبد المومن بن علي الدخول لقاس والصلاة في الجامع المذكور لان كان ذلك مشغلا للمصلين ويذكر ايضا ان التراب والكدان الذي بني به هذه الزيادة كان يخرج ذلك من كهف عميق تحت هذه البلاطات الثلاث والكهف الآن في باب مطبق بالقطعة

---

(1) Mst = المغوس ; *Djadwat* (p. 42) qui donne incomplètement ce passage, offre la leçon المفربس qui est préférable.

(2) Mst = مقام . *Djadwat* (p. 42) donne مقدم .

التي بين المحراب والباب المدرج المحدث هناك واما الماء الذي صرف في ذلك فكان يسقى من البئر الذى بصحنه كل ذلك تحريا من الشبهات كذا نقل صاحب المقباس وصاحب الانيس

الثريا الكبرى

واما الثريا الكبرى فانها كانت بموضعها قبل عملها به ثريا مثلها في الجرم ودثرت وتكسرت وصنعت هذه في ايام الفقيه الخطيب ابي محمد عبد الله بن موسى المعلم رحمه الله تعالى وكان الانفاق عليها سبعمائة دينار وسبعة عشر دينارا وخُمس دينار من الدنانير الفضية كل ذلك من احباس الجامع وفيها من الصنعة ما يعجز عنه الآن وفي زنة هذه الثريا سبعة عشر قنطارا وربع قنطار وفي دورها اثنان وثلاثون شبرا وعدد مراكيز قناديلها خمسمائة وعشرون والذي يملا قواريرها من الزيت خُمس قلل وكانت تارة تسرج كلها في ليالي رمضان وتارة لا تسرج إلى ان ولى الشيخ الفقيه ابو عبد الله محمد بن ابي الصبر قضاء المدينة فرأى أنه ان أسرجت كل ليلة من رمضان قد يكون ذلك سرفا في مال الجامع وان لم تسرج قد يكون ذلك تضيّعا لِمَا أُريد بها فاقتضى نظره بعد ان استشار أمير المسلمين مولانا ابا يعقوب وانهى اليه امرها فامره ان ياخذ في ذلك بالاوسط من الامور وان تسرج كلها في طول ليلة السابع والعشرين من رمضان ويسرج بعضها في سائر ليالي العام فدام العمل على ذلك الى الآن وأنشد في ذلك

(البسيـــط)

تحكي الثريّا الثريّا في تألّفها وقد لواها نسيـم وهي تَتَّقِـد
كأنها لـذوي الايمان أفْئدة (1) من التخشّع جوف الليـل تَرتعِـد

وكان الاستاذ المزياتي رحمه الله جالسا تحت هذه الثريا في ليلة السابع والعشرين ومعه الاستاذ ابن عبدون الاديب رحمه الله ومالك من المرحل ومحمد بن خلف فانشد الاستاذ ارتجالا

انظر الى ثريّة نورها يصدع باللألاء (2) سَجْف (3) الغسق

فقال ابن عبدون

كأنها في شكلها رُبْوة (4) انتظم النورُ بها فاتّسَق

وقال ابن المرحل

أُعيذُها من شرّ ما يُتَّقَى وفجأة العين برب الفلق

وقال ابن خلف

باهَى بها الاسلامُ (5) ما أشرقَتْ كأساتها عند مغيب الشفق

ومما قيل في السروج

انظر الى سروج في الليل مشرقةً من الزجاج حولها (6) وهي تلتهب
كانها ألسن الحيات بارزة عند الهجير فما تنفك تضطرب

---

(1) Mst = افدة .
(2) Mst = باللاء .
(3) Mst = سحب ; tous ces vers sont cités dans *Djaḏwat*, p. 43.
(4) Mst = وبرة .
(5) Mst = باهى بالاسلام .
(6) *Djaḏwat* = هواها .

المستودع

واما المستودع الذي به الآن فانه عمل في أيام الفقيه الصالح أبي محمد (1) يشكر ليوضع فيه مال الجامع وأوقافه وكان الناظر في ايام بنائه الفقيه ابو القاسم بن احمد و بناه بعد ان حفر قاعدته الى ان وصل للارض الصحيحة ثم بلط ذلك بالرمل والجير والجص وحصن داخله وسقفه بخشب الارز عمل له خمس مناقيس بصفائح من حديد مقلوبة و بابان احدهما محدد كل ذلك على الوجه المحكم والعمل الوثيق وجعل لكل باب منها ثلاثة مفاتيح وجعل داخله صناديق كبار عليها أقفال وثيقة ثم وضع فيه اوقاف الجامع وأمانات الناس وكان الانفاق عليها من مال الاحباس فاحتيل عليه في ايام الفقيه ابي عبد الله محمد بن عمران وسرق منه مال واجتهد في البحث عن ذلك فلم يجد له خبرا

البيلة والخصة ودار الوضوء

واما البيلة والخصة ودار الوضو واحداث البناء الذي في توسيع باب الحُفاة وتجديدها وفتح الباب المقابل لفندق ابن حبون من الجهة الشرقية فان ذلك كله في أيام الفقيه الصالح ابي محمد يشكر يحكى أنه قدم اليه رجل من بني يازغة يعرف بموسى بن عبد الله ابن سدات (2) كان له مال كثير واستوطن مدينة فاس ولزم محبة الشيخ ابي

---

(1) Le mst = ابن عبد الله .

(2) Mst = الناظر .

محمد يشكر وذكر له ان بيده مالا طيبا ورثه من أبيه وان اباه اكتسبه من حراثة بيده في ارضه ومن ماشية تولدت عنده ويريد ان يصرفه فيما يحتاج اليه في جامع القرويين فتوقف الشيخ أبو محمد يشكر الى ان ينظر في ذلك وصار يُلحّ عليه في ان يعمل دار وضوء بغرب الجامع المذكور لتكون عونا للمصلين فلما رأى غرمه وتوسم فيه الخير حمله الى الجامع وأوقفه بين المنبر والمهراب واستحلفه ان ذلك المال طيب فحلف له ثم قال له اشرع الآن فيما اردت والله ينفعك بمقصودك فعمد الى فندق كان في موضع دار الوضوء فاشتراه وشرع في نقضه ثم بحث عن موضع يجلب له الماء لذلك فاعلم بمواضع شتى استشار فيها اهل المعرفة والنظر فلم يروا له اصلح من عين بدويرة بجرنيز وتعرف العين بعين قرمال(1) ومنها الى الجامع خمسمائة ذراع فاشترى ذلك باضعاف القيمة حرصا على مراده ثم غرب من الشيخ أبي محمد ان يُعلم بذلك الأمير الناصر الموحدي ريستاذنه في ان يجلب هذا الماء حيث يباح له من الشوارع فأجابه الى ذلك واعلم به الناصر(2) فاسعفه في مطلبه وشرع في بناء دار الوضوء وجعل لها خمسة عشر بيتا ولكل بيت مصراعان وفوق سقف كل بيت طاق لدخول الضوء وأخرى فوق بابه وعلق في كل طاقة من طيقان ابوابها صبحية من الزجاج تسرج في اول الليل واخره وفي كل بيت انبوبة من نحاس ينصب منه الماء في نفير محجور من حجر طوله شبران وعرضه شبر وفي سمكها فتحة من جص مقربسة العمل مرفشة بانواع الاصبغة وعلق في وسطها ثريا ولها فواريز زجاج تسرج في

(1) On lit aussi خومان dans *Qirṭâs* et حرمال dans *Djadwat*.

(2) Mst = الناظر .

اول الليل واخره ايضا وادار من الجهة القبلية والشرقية والجوفية احد عشر طافا لدخول الضوء بجميعها وجعل بوسطها بيلة من الحجر الاحمر طولها عشرون .... وبجوانبها ثقبا من نحاس مموهة بالذهب ينصب منها الماء للبيلة ملعبا وينحدر منها الماء المستعمل في الوضوء ....(1) دائر كل ذلك من الرخام الابيض وحمل على بعضها(2) للقيم بها وقصد الى العين المذكورة فوجدها تنبجر من قوارتين في حجر صلد يجتمع الماء منها في بيت مقبّوكبيت الحمام وجعل بازائه صهريجا مربعا طول كل جهة منه عشرة اشبار مملسا بالرصاص يطرّفيه الماء الخارج من البيت ثم اخرجه منه على شباك من رصاص شبه الشهدة الى فواديس من رصاص سعتها اكثر من شبر ثم مر بالفواديس منها إلى عقبة الملاحين إلى مسجد الشرفاء الى سماط الفيسارية الى سوق الحرارين الى سوق الفرافين الى المعدة التي(3) بالحانوت المتصلة بالبيلة المذكورة والسقاية المتصلة بها وللبيلة التي بباب الحجاة المغشية بالرصاص وطول هذه البيلة سبعة وعشرون شبرا وهي متصلة بخارج الباب وقد عمل عليها اشباك من خشب وفتح فيه اربع خوخات وارتفاع هذا الباب ستة عشر شبرا وقد فرش في ايام الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن ابي الصبر بالرخام الابيض والاكحل ويندفق الماء من جهة المعدة المذكورة إلى هذه البيلة المغشية بالرصاص ثم ينصب منها الماء على رخام أبيض وأزرق وأحمر يغسل فيه الحجاة

---

(1) Pour combler les lacunes, voir ce même passage cité dans *Djadwat* (p. 44).

(2) Ajouter ici, avec *Djadwat*, مصرية.

(3) *Djadwat* ajoute ici أعدها.

ارجلهم ثم يغور الماء في فناة معدة لذلك ثم فدم لعمل البيلة والخصة التي بالصحن رجل من سجلماسة يعرف بالفقيه ابي الحسن بن عبد الله السجلماسي وكان من اهل الاثار والدين صنعهما له ابو عمران موسى بن حسن بن ابي شامة وكان من أهل المعرفة بالبناء والهندسة بعد ان استشار في ذلك الفقيه الصالح ابي محمد يشكر فاسعف في ذلك(1) وعمل البيلة وما حولها من الرخام الابيض وجعل طولها اثنى عشر شبرا وارتفعها ستة اشبار وسعتها نحو ثلاثة اشبار(2) وعمقها كذلك وجعل مما يقابل الواقف اليها وعن يمينه وشماله ألواحا من الرصاص وادار بذلك تكعيب الرخام(3) وجعل على ذلك مما يقابل الواقف شباكا من الرخام الابيض من مائة واربعة وعشرين خاتما(4) وكتب تحته في حجر منقوش بخط بارع بسم الله الرحمن الرحيم وصلى على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما وإنّ مِن الحجارة لما يتفجر منه الانهار وإن منها لَما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون(5) كمل في شهر جمادى الاخيرة سنة تسع وتسعين وخمسمائة وجعل تحت ذلك في الواح الرخام خمسة أنابيب يصب منها الماء في البيلة المذكورة ثم ينحدر منها الماء بعد امتلائها في عشرين ثقبا معدة لذلك في الجهة المذكورة أي الشرقية وينصرف

---

(1) *Djadwat* (p, 46) = بذلك مراده.

(2) Ces mots وسعتها الخ manquent dans *Djadwat*.

(3) Les mots وجعل مما يقابل الخ manquent dans *Djadwat*.

(4) *Djadwat* ajoute ici مسدسة الاحكام.

(5) *Qoran* II, 69.

للخصة الفريبة (1) منها من جهة غربيها فد عملت من طافتين في دور كل واحدة منهما ثلاثة عشر شبرا فامت على ساق مفسوم على نصفين كل ذلك من النحاس لاصفر ثم يصعد الماء المنحدر من البيلة في النصف من الساق يغور في وسطها من ثمانية اثقاب بجوانب خرشفة من نحاس مموهة بالذهب ثم يغور منها الماء بعد امتلائها في اثقاب معدة لذلك بجوانبها ويجتمع في النصف الثاني من الساق فلا تزال البيلة والخصة مملوتين يفضى منهما الماء للمصلين والعاكفين والواردين وشربهم متى احتاجوا في ليلهم ونهارهم وهذه فضيلة تكرر على الدوام لهذا الجامع ولمن سعى في ذلك واعان عليه من خلفاء الاسلام ثم ينحدر ماء الخصة في قادوس الى الميضات التي بعين فرفب بالجهة القبلية من الجامع المذكور وأما العنزة التي به الآن فانها صنعت حين كان الفقيه أبو عبد الله بن ابي الصبر ناظرا في أحباس المسلمين وعلى جامع القرويين ومن فوائدها انفق فيها وذلك سنة ثمان وثمانين وستمائة وفيها غرابة الصنعة ونفاسة الخشب واتقان الالصاق ودقة الخرط والنقش ما يفضى بالعجب ويصح بالمجاز ومما اصلح فيه الحائط الشرقي مع سقف البلاطتين المتصلتين به وذلك في ايام مولانا أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين أبي يوسف رحمه الله تعالى سنة اثنتين وثمانين وستمائة ونفق فيه من مال الجزية والاعشار واصلح فيه ايضا الحائط الجوفي من حد الساباط الفاصل بينه وبين الدار الموقوفة لسكنى أيمة المسجد الى حد باب السفر الذي هناك وذلك في ايام امير المسلمين مولانا أبي

(1) Ce mot manque dans notre mst, mais figure dans la *Djadwat*.

يعقوب رحمه الله وانفق عليه خلخال ذهب صار له من مال ذخائر الروم وكان اصلاحه على يد قاضيه بالمدينة الفقيه أبي غالب ابن الفاضي أبي عبد الرحمان المغيلي وذلك في سنة ست وتسعين وستمائة ومما احدث فيه الباب المدرج الذي بقبلته وذلك ان الوالي بالمدينة ابا الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الحدودي تأمل الباب المدرج الذي بني في ايام الناصر الموحدي بجوفي جامع الاندلس وأراد ان يعمل أمر جامع القرويين ويصنع له هذا الباب ليكون مماثلا للباب المذكور ببناه على هيئته الآن وصنع اسفله نفيرا من الخشب ممايس بالرصاص وجلب له الماء من عيون ابن الصادي المعروفة الآن بعيون الكرازين ليدخل عليه الحفاة وغيرهم وعمل عليه شباكا من خشب الارز بباب يدخل اليه من اراد الصعود الى ادراجه وصنع باعلا الادراج بابا عظيما وصنع عن يمين الخارج من اسفل الادراج سقاية ونمقها بالجص والزلاج والحجر المنجور وأنواع الصبغة كل ذلك بصناعة محكمة طريفة العمل وجلب اليها الماء من الموضع المذكور ويذكر أنه أنفق في ذلك من مستغلاته سنة اثنتين وتسعين وستمائة واراد ان يعلم بذلك امير المسلمين انه احدث في الجامع ما لا يحتاج إليه بغير إذن فامر أمير المسلمين بغلقه إلى ان ينظر في أمره فغفل عن ذلك فلم يزل الباب مغلقا إلى الآن ومما احدث فيه الامير ابو حفص رحمه الله ابن مولانا أمير المؤمنين أبي سعيد أن يجعل في الجهة الغربية من الجامع تسع من الطيفان لزيادة الضوء في تلك الجهة وأمر أن تجعل على المحراب مقصورة وشرع الصناع في عملها وأنشئت من ثلاثة أجناب من خشب الارز بصناعة النقاشين ارتفاع كل جانب منها تسعة اشبار وطول الاوسط منها ثلاثون شبرا

وهو الذي صنع فيه الباب وطول كل واحد من لاخرين خمسة وعشرون شبرا ثم ان الناس ظهرلهم ان في ذلك مضرة بانقطاع الصبوب وميلولتهم عن لامام وغير ذلك فرفعوا لامر في ذلك لفقهائهم فلفوا لامير المذكور وبينوا له ما ظهر للناس من الضرر وقالوا له مع ذلك امورا مصلحية فرجع عن عمله ثم وضعت في جهة من جهات الجامع وهو الآن بلقب الباب المدرج المغلق وكان عمله في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وكان لانفاق فيه من مال لاحباس على يد الناظر فيها أبي عبد الله محمد بن ميمون وكان لامير ابو الحسن رحمه الله اراد أن يجعل بهذه لاجناب مفصورة بجامع القصبة من فاس لصغر التي به وخدمها ولعله أنسى ذلك والله اعلم

النافوس الكبير

واما النافوس الكبير المعلق بالبلاط لاوسط المقابل لباب الكتبيين فهو الذي ألفِيَ بجبل الفتح من بر لاندلس لما افتتحه المسلمون على يد لامير لاسعاد الشهير بابي (1) مالك عبد الواحد ابن أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله تعالى وزنة هذا النافوس فيما قاله عز الدين بن جلبون عشرة قناطير ولما وصل لفاس أمر أمير المؤمنين أبو الحسن ان يعلق هناك بعد أن يعمل في جوانبه أجناح قائمة متعرفة (2) ليبقى ظاهرا ويعمل عليها مراكز لقوارير الزجاج التي تسرج فيه وبأسفله اوصال مبلغها اثنى عشر

(1) Mst = ابن.

(2) *Djadwat* (p. 46) remplace ce mot par ليغربه و.

تحت كل وصل منها بلّور مكبب وفي وسط ذلك طبق شبة الكاتم..... عن الاوصال وفي أسفل حروف الطبق بناديق مخروطة ونطاق ممدود في جوفه كل ذلك من النحاس الاصفر المنقوش المخدوم بصناعة محكمة وكتب على النطاق ما نصه « الحمد لله وحده امر بتعليق هذا النافوس المبارك أمير المسلمين وناصر الدين أبو الحسن ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين (أبي سعيد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين) أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ايد الله سلطانتهم واسعد عصرهم ، زمانهم وهو النافوس الملقى بجبل الفتح حرسه الله ابتحد بعون الله وتأييده أمير المسلمين ابو الحسن أيده الله ونصره على يد ولده الأمير الاسعد أبي مالك ومولانا أيده الله ونصره محاصرا مدينة سجلماسة » وكان افتتاح الجبل المذكور في يوم الاحد الخامس لشهر شوال المبارك من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وفي اثناء عمل النافوس عمل له قبة من الجص متقنة العمل وعلق بها في منتصب شوال سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وكان الانفاق فيه من مال الاحباس على يد الناظر فيها احمد بن الاشقر الصنهاجي

الخزانة

واما خزانة الكتب التي يدخل اليها من اعلى المستودع الذي بها(1) فانه لما كان من راي ابي عنان رحمه الله تعالى حب العلم وإيثاره والاهتمام(2)

(1) Le mot بها manque dans notre mst ; il figure dans *Djadwat* (p. 56) qui donne ce passage.

(2) *Djadwat* = تهمم .

به والرغبة في انتشاره والاعتناء بأهله ومتحمليه والتودد لقرّائه ومتحليه انتدب لصنع هذه الخزانة واوسع على طلبة العلم بان اخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الابدان والادبان واللسان والاذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها واجناسها ووفقها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الاوفى وعين لها فيما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة وأجرى له على ذلك جراية مابدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الاولى سنة خمسين وسبعمائة واما خزانة المصاحف التي أمر بها مولانا أمير المؤمنين أبي عنان رحمه الله تعالى في قبلة هذا الجامع الناطقة باكثير الجامع أنشى على حسنها ما لم يسبقه اليها احد من أيمّة هذه الاصقاع فانه رحمه الله تعالى صورها في ذهنه الثاقب المبيرثم أبرزها لمن صنع شخصها الجليل الحصين فأبدأ من ذلك ما هو المعهود من حسناته المأثورة وسهل بها على الناس تلاوة القرآن في كل وقت من الازمان واعدّ فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية وأباحها لمن أراد التلاوة فيها بعد ان كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مرّ الاعوام والليالي والايام ونجز لها من قيد لاخراجها من هذه الخزانة وإبرازها وردها لصيانها في موضعها واحرازها وذلك عند الفراغ من حاجة الناس اليها فلا يبدل ذلك ولا يغير إلى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وأجرى لذلك جراية واسعة وكرامة ورعاية وكتب فوق هذه الخزانة ما نصه الحمد لله أمر بانشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المومنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس أيد الله امره وأعزّ نصره بتاريخ شهر شوال سنة خمسين وسبعمائة رزقنا الله خيرها

زاويـــة الـفـــراء

وأما زاوية الفراء البهية التي أمر بها مولانا المستعين رحمه الله في شرفيّ هذا الجامع مسامتها على ساباط هنالك وجعل لقبليها وجوبهـا من صناعة الخـرط والتزيين بالاصبغة ما يهيم به المارّ والسالك ورتب فيها فراءين يتلـون القرآن ويجتهدون بطول السبعة ايام وعلى مر الازمان وأجرى جراية في كل شهر يشفعون فيها ومرتبون لذلك بسببها وثم عملها في أواخر شهر رمضـان سنة اثنتين وستين وسبعمائة

ابـــواب الجـامـــع

ولهـذا الجامع من الابواب بين صغار وكبار ثمانية عشر بابا منهـا في الجانب الغربي باب مجلس القضاة ومصلى الجنائز وباب الصفر الـذي يدخـل منه الخلفاء لانتظار شهود الجمعـة وباب الصفر المعروف بباب القطاعين وباب الاولياء سمي بذلك لكثرة من يدخله من العبـاد وباب الكتبيين وباب الشماعين الذي سعته ستـة عشر شبرا وارتفاعه اربع وعشرون شبرا وباب الموثقين المقابل لتربيعة الزافين وسعته وارتفاعه مثل الذي قبله وفي الجانب الجوفي باب الجباة المقابل لدار الوضوء القديمة وبـاب الصفر المعروف بباب العميان سمي بذلك لكثرة ملازمتهم للقعود فيه يمثلون للناس وباب بيت النساء الاصغر بمؤخر الصحن وباب خصة المقابل لمدرسة الرخام وباب بيت النساء ايضا الذي باسفـل الساباط الفاصل بين الجامع

ودار ..... في الجانب الشرقي الباب المقابل لطائفة من فندق ابن ميمون ويعرف بباب ابن عمر سمي باسم النجار الذي صنعه وهو المحدث في ايام ابي محمد يشكروالباب المقابل لدرب ابن حيون والباب المقابل لدار الخصة التي من احباس الجامع وباب المدرج الغريب المقابل لدرب السبع لويات ويتصل بزاوية الفراء وفي الجانب القبلي الباب المدرج المحدث على يد الحدودي المغلق الآن والباب الاصغر الذي يدخل اليه رائفة ابن الفرديس (1) ..... هناك لمن يدخل مستترا عن أعين الناس للخصومات والايمان وغير ذلك وبين مجلس القضاء والصحن الصغير والزاوية التي هناك بمقدم القبلة بابان قاصلان بذلك وبين مقدم الصحن والدارين المذكورين وقبلة الجامع خمسة ابواب فالاول الذي يدخله الخلفاء لشهود صلاة الجمعة عن يسار المحراب وباب موضع المنبر وثلاث مشارع لها اغلاق تنطوي عند فتحها من عمل جيد وصناعة غريبة والباب الاول من هذه الثلاثة القريب من المنبر منه يخرج الخطيب للجمعة ومنه يتوجه للصلاة على الجنائز ومنه للمقام المعلم للجنائز التي تكون هناك

سواري وسقوف وما أشبه ذلك

وعددسواريها الحاملة لسقوفه ثلاثمائة سارية منها عشر من حجر ملون غريب الخلقة والمشترك من جملتها اثنتان وثلاثون وسائرها يدار عليها ومن الاتقان الغريب في هذه السواري ان الثلاث منها عن يمين الواقف مستقبلا تحت

(1) Le copiste a écrit en marge ici : رائفة ابن الفرديس هي الحرب التي بها الخوازين الآن التي من حساب احباس المرسطان واولا للفرديس .

الثريا الكبرى يبصر من دار بها جميع ابواب الجامع التي بداخله وطوله من شرق إلى غرب الثلاثمائة وثمانون شبرا ومن مقدم القبلة إلى الجوب ثلاثمائة شبر بعد تكسير مسابقة المقدم المذكور وعدد بلاطاته احدى وعشرون من شرق الى غرب وسبعة عشر من مقدم القبلة الى الجوب مع الصحن الاكبر الذي طوله من شرق إلى غرب مائة شبر وثلاثة وتسعون شبرا وعرضه من قبلة الى جوب خمسة وسبعون شبرا وبلاطاته المسقفة احد عشر بلاطا والحاسرتان ومساحة جميعه ثلاثة مراجع وثلاثة ارباع من المرجع السجلماسية ويملاه من المصلين ثلاثة عشر الفا على ان يكون في البلاط الواحد سبعمائة وخمسة وستون شخصا او يكون فيه اربعة صفوف وفي الصف مائة وستون شخصا وفي اساطين البلاطات مائة وخمسون شخصا بعد حط مواضع السواري وعدد ثرياته التي توقد بها المصابيح مائة وثلاثون ثرية جميعها من النحاس مختلفة الالوان والصناعات والاشكال والهيئات منها عشر معلقة في البلاط الاوسط وفي الثريات يندرج العشرة نوافيس المكفتة بالنحاس والباقي الثريات وذلك مائة وعشرون معلقة في سائره وزعموا ان فيها من مراكز السرج الفان اثنان يوقد بعضها في سائر ليالي السنة ويكثر منها في ليالي رمضان ويوقد جميعها في ليلة السابع والعشرين وعدد صبحات الزجاج التي توقد فيه ايضا بطول ليالي السنة سبعون العارفات منها خمسون وسائرها ثائلات وبلديات وعمل في خارجه بدائرة حريمه في مواضع معروفة أربعون سراجا يهتدى بها المارون في دربه وقد اعد لخدمة ذلك كله على الكمال ونادى (الامير) بحكم ذلك وأجرى له جراية من فوائد احباسه وينبغي ان تكثر سرجه وتغلظ بتائلها إذا كثر ماله فان الاستضاءة بها أنسا للمجتهدين ونفيا

لمكان الريب ومبلغ غلات أوقافه على اختلافها في بعض الاعوام عشرة آلاف
فضية ومن جملتها الفندق الكبير الشهير الذي بسوق الشماعين المحبس عليه
من قبل مولانا أمير المسلمين أبي يعقوب رحمه الله تعالى وكان سبب تحبيسه
أنه كان من جملة المستخلص لجانب الخلائف وقد أهمل فاما في أيام ولاية أبي
عبد الله الحدودي بفاس أمره القاضي الفقيه محمد ابن ابي الصبر ببنائه
واصلاحه فتوقف في ذلك وأراد أن يكون باذن من الخليفة فأشهد
القاضي على نفسه شهودا أنه لم يُوقف له في المحاسبة ولا فهو الملتزم لما انفق
فيه فبناه الحدودي على ما هو الآن عليه تحت نظر ابي عبد الله ابن أبي
الصبر ثم أعلم بذلك الخليفة ابا يعقوب فسأل الحدودي عن ذلك فاعتذر
له وبين له ما التزمه ابو عبد الله ابن أبي الصبر فاغاض لذلك الخليفة
وأمر باشخاصه وبعث اليه الحشم فوما بعد فوم وخيف من ذلك عليه فلما
جاء القاضي مرّ في اثناء ذلك على الروضة التي دفن فيها الامام الحافظ
ابو بكر بن العربي رضي الله عنه واذا بفقير خارج منها ومخاطب ابي عبد
الله بن أبي الصبر وقال له قل بحق لطفك بلطيف صنعك بجميل
سترك دخلت في كنفك تشفعت بنبيك فحفظ ذلك ودخل على
الخليفة وهو يذكر هذه الالفاظ فاقعده بازائه واظهر له الاكرام والاعتناء به ثم
سأله عن سبب أمره للحدودي في الفندق فقال له أمرته بذلك لانه
غلب على ظني أنك تُحبسه على جامع القرويين فاستحسن ذلك
وشكره وأشهد في الحين بتحبيسه كذا كان يتكرّر ذلك النقل عن ابي عبد
الله ابن ابي زرع وغيره وصارت هذه الالفاظ التي دعا بها وكان تحبيس هذا
الفندق بسببها عند الناس كنزا جامعا وحرزا نافعا يتوسلون بها إلى الله في

حوائجهم وظهرت عجائبها لكثير من الناس في مطالبهم ويذكر أن الرجل الذي لفنها إليه هو سيدنا الخضر عليه السلام

وعدد المؤذنين والقومة في غالب الاوقات أربعون شخصا ولهم على ذلك فوائد مختلفة على مر الاعوام واما قراءة الحزب فيه بعد صلاة الصبح والمغرب فانه كان امر به يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سائر بلاده كذا نقله ابن صاحب الصلاة وانتدب لذلك ناس واستمر إلى ايالة ولانا أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله فانه أجرى جراية لعشرة أشخاص من القراء وأمر بذلك في سائر جوامع بلاده واما قراءة الكتب فيه لاسماع الناس بعد الفراغ من قراءة حزب الصبح فإنّ بعض ايمّة الجامع في اول إيالة بني مرين أعزهم الله كان كثيرا ما يقرءون بين يديه في أول النهار تفسير القرآن للثعلبي رحمه الله تعالى وحاية الاولياء .....

وذلك في جهة خاصة منه وكان له قارئ محسن مجيد لذلك وكان يحضر له بعض الناس وكانوا يجلسون متفرقين حلقا حلقا وربما ياخذون في أمور الدنيا إلى ان تطلع الشمس فينصرفون باشارة هذا الامام على القارئ المذكور ان يتصدر حزب المحراب في الوقت المذكور ويقرئ هنالك من هذه الكتب فصولا لاسماع الناس فاجتمع إليه سائر من كان يجلس بد وانتفع الناس بذلك كثيرا وربما اجتمع في المجلس لاقل من الناس وذلك سنة احدى وخمسين وستمائة وأعلم بذلك من كان اذ ذاك من خلفائهم فاستحسنه واجرى للقارئ جراية فاستمر ذلك الى الآن ومما جرى في انتصاب قبلته فيما حكى أن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابا يوسف بن عبد الحق رحمه الله تعالى لما أمر ببناء المدرسة

اليعقوبية التي بقبلته سنة سبعين وستمائة وكان الذي انفرد لنصب قبلتها المعدل أبو عبد الله محمد بن الحباك ولم يشاركه في ذلك غيره من أهل علم الهيئة وظهر أنها منحرفة عن قبلة جامع القرويين انهى كلامه في ذلك لمولانا أمير المسلمين أبي يوسف وقال بعض من حضره ممن لا يحس السؤال والجواب في ذلك أن في بعض المساجد بفاس انحرافا بعضها عن بعض فرأى رحمه الله ان جمع الفقهاء المذكورين في اهل زناتة للنظر في ذلك يحكى أنهم قالوا ان جامع القرويين نصبت قبلته على سمت القبلة التي نصبها الرجل الصالح مولانا إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب رضى الله عنه ومر على ذلك مئون من السنين وقد صلى إليه جماعات من العلماء والصلحاء والقضاء وأمراء العدل ممن يقتدى بأقوالهم وافعالهم وممن لا يحل لاحد أن يظن بهم الا خيرا فلم يغيروا ذلك وما حرفوه وما يظهر في بعضها من الانحراف عن بعض قد يقرب من الصواب على راي من يرى ان المطلوب من قبلة سائر الافاق إنما هو الجهة لمكة شرفها الله تعالى والجهة في ذلك حاصلة وهذا القول هو الراجح والا فكيف يقدر على تعبير السمت أعني سمت البيت بل غاية ما عند الناس في الآفاق الغائبة عن مكة شرفها الله تعالى المحافظة على جهة البيت لا سمته وقد قال صلى الله عليه وسلم ما بين المشرق والمغرب قبلة فاقر ذلك كله على حاله رحمه الله تعالى وقد سلم هذا الجامع المبارك من البدع القبيحة ولم يتعرض فيه لما تعرض له في بعض الجوامع ومما ظهرت فيه بدعة فان الله سبحانه يُلهِم من يزيلها فيزيلها

وجرى في أول سنة تسع واربعين وسبعمائة (1) ان بعض المجودين لقراءة القرآن ان كان يقعد بين يديه لاحداث من الصبيان لتجويد القراءة فيجتمع إليه الناس الى ان حدثت فتن بسبب ذلك فرفع ذلك للشيخ الفقيه الصالح المدرس أبي فارس عبد العزيز بن محمد الفروي رحمه الله تعالى فاشار على بعض من له الحكم النافذ أن يشتدّ في تغيير ذلك ويمنعه كل المنع فمنعهم وصرف جمعهم لما راى ان هذا الصبي القاريّ بين يدي هذا الشخص ليس ممن يقصد التعليم وليس جلوسه كجلوس المتعلمين أمر بافامته عملا على ما في المعونة وغيرها من إقامة الذي يجلس في المسجد يوم الخميس أو غيره لقراءة القرآن (2) ونظم ذلك الشيخ الاستاذ المقرئ ابو الحسن بن سبع رحمه الله تعالى قصيدة قُرئت على الشيخ أبي فارس المذكور فكانت سببا في اشتداده على قيام هذا القاريّ وهي هذه

(البسيط)

لا جِفّفوا عنّي مقالا هو الجِدّ ... لمنهاج اهل الحقّ يُسعدُه القصْدُ
أقول احتسابا ليس مني تعصّبًا ... على أحدٍ ممّن ينظمه العقْدُ
ذوو العلم في الاقراء ضاعتْ صِفَاتهم ... ولم يبق منهم غير ما وَسْمُه يبْدُو
رياء وعجب وانتصاب وشهرة ... وتسميع من يُرجَى بتسميعه رِفْدُ
ألم ترَ باسَ الغرب أعظِمْ بقدرها ... وجامعها العظمَى التي بها تَعْتَدُّ

---

(1) A partir de ces mots, tout ce qui suit a été rapporté d'après ce texte par l'auteur de la *Djaḍwat* (p. 47 et suiv.).

(2) Ces mots, à partir de ولما راى manquent dans *Djaḍwat*.

لنفع عبادةٍ وتوسيع موطنٍ جميع رجال اللهِ(1) يأتونها وفْدُ
فلا بدع فيها ولا مُنكَر لها وأبوابها إن فُتِحَتْ فلها السدُّ
تبرز للافراء فيها جماعة ولا خبرة تبدو لديهم ولا تغْدُو(2)
سِوى نغَمٍ يبدونها بتحيُّر وتغريب(3) الحان لمن راح أو يغْدُو
فبعضهم في جمعة وخميسها يُجمِّع جملا ليس يحصرها العدُّ
وعن مثل هذا حذَّر الحبرُ مالك وقال لمن يُبديه في المسجد الطَّرْدُ
وبعض بتلميذ له حسن صورة شباب له صوت لنيل الهوى رصْدُ
كأفراس(4) نحلٍ قد مُلِئنَ بسمِّها فباطنها حتف وظاهرها شهْدُ
فيقعد امّا لاصقًا جنبه وامّا أمامًا بارزًا للورَى يشْدُو
يعظِّمه بالقرب منه مكانُه وذلك عند الله جل اسمه بُعْدُ
ويعقبه جزءٌ من الوعظ رافعا به صوته كيما القلوب له تغْدُو
يردده والجهل غصّ بأهله بربعٍ وحطّ هاكذا الصدر والوِرْدُ
وجلّ كتاب الله عن حالة الغنا وتطريب أصوات بها يفع الوجْدُ
وهذا لعمر الله اكبرُ بدعةٍ يقابلها المنع المبرّح والردُّ
لفاعلها لعن وتغليظ زاجرٍ(5) وأيضا وعيد في القيامة لا وعْدُ
وما هذا آثار قوم تقدموا من أهل كتاب الله أبناهم الجهدُ
فقد عُربوا عند النهار بصومهم وفي ليلهم أيضا ألبهم السهْدُ

---

(1) *Djaḍwat* = لجعل عبادات تسوع وموطن لجمع رجال اليه .
(2) *Djaḍwat* = ولا نقد .
(3) *Djaḍwat* = تطريب .
(1) Mst = كافواس .
(2) *Djaḍwat* = تغليظ ءاجر .

مَضَت بهم لاعصار يُبكَى لِفقدهم ... فيا أسفا إذ حل بي عنهم الفقدُ
مضى سلف لاخيار أكرم بقدرهم ... واعقَبَهُم قوم قد ابتدعوا نكدُ
وليس لهم فهمٌ به بتدبّر ... معاني كتاب الله إذ منه يهتدُوا(1)
جميع علوم الخلق منه تفرعت ... وكل حدود الله فهو له حدّ
أو امرنا والنهي قد وضحت به ... ولاكنّ عينَ الجهل عن ذاك تنسدّ(2)
وقد حُرّمتْ فيه الفواحش كلها ... سوا ظهرت أو ابطنت حالها فرْدُ(3)
وقد جاء في الاخلاص فيه اوامرٌ ... وذمّ رياء الناس جاء به السردُ
وفي صحبة الاحداث ما ليس يُحتبَى ... من الذمّ إذ في فعْله عُدِمَ الحمدُ
مخالطهم في دينه سوف يرتدّ ... ولوْ بعد حين إذ شياطنهم جنْدُ
ولا تصلح الصبيان إلا لمكتب ... وليس لهم في موطن غيره رشْدُ
فعَمْر بنُ يوحَنّا ومُدْرِكُ عِبْرةٌ ... فبعدًا لِذَا منها عُرَى المنع تشتدّ
بها تُضرَب الامثال فاحذرْ سلوكها ... طريقته حتى بُغَيْبك اللحْدُ
فكم من جليل القدر قد حُطّ قدرُه ... ورفعتُه لمّا تلافتْه(4) المردُ
فان تقبلوا نصحي فاني نصحتُكم ... ونفسيَ قد أوصيتُها ذاك لا تعدُو
فمن كان ذا نصْح لعلْم يُقِرّه ... باخلاص تقوى الله يعقبه الرشْدُ(5)

وقال الامام الشاطبي وهذا بأبياته التي مطلعها

---

(1) *Djaḍwat* = يمتد .
(2) *Diaḍwat* = تشتد .
(3) حالها رد dans *Djaḍwat* qui ne donne pas le vers suivant.
(4) *Djaḍwat* = تالفه .
(5) *Djaḍwat* = بتبعها المد .

(الطويل)

خذوا النظم عنّي وانظروا منه سِرَّهُ ... فلا يُخْتَشَى في اللحن(1) عمرٌ ولا زَيْدُ
وإني لاهل العلم والدين خادم ... نعمْ واشهدوا اني لجملتهم عبْدُ
فهم عمْدتي فالله ينفعُني بهم ... وتشملني البُشْرَى من الله والسعْدُ
واما رعاعُ الناس من كل مُدَّعٍ ... فليْس له قبْلُ لديَّ ولا بعْدُ
وليْس على الاعمال منهم طلاوةٌ ... مُقبَّحةٌ منها الصحائف تسوَدُّ
فهم مثل ما قالوا كذا هو عندنا ... ومن أنتم حتى يكون لكم عبْدُ

ومدرك المشار اليه في هذه الابيات هو الذي انشد الرجز المشهور في شان عمر بن يوحنّا النصراني ولو لا ما التزمناه من ستر الحجابات ودفن السِئَات لشرحنا أمرهما والله يعصمنا من الفتن والزلات فمن الرجز قوله

(الرجز)

من عاشقٍ ناهٍ هَواهُ دانٍ ... ناطق دمع صامِتُ اللسان
موثَقُ قلبٍ مُطلَق الجثمان ... معذَّب بالصدِّ والهجران
من غير ذنب كسبت يداه ... غير هوًى نمَّت به عيناه
شوقا الى رُؤيَة من أشقاه ... كأنه عفاه من أضناه
يا ليتني كنتُ له زنَّارا ... يُديرني في الخصر حيث دارا

وهذا الجامع المبارك قد يشكو بلسان حاله في بعض الازمان عند اهماله وذلك ان الذين أسسوه وزادوا فيه الزيادات ورتبوه وحبسوا له الاوقاف

(1) *Djaḏwat* = في الحق .

وعظموه ومنعوا السرف وحدذوه وإنما بعلوا ذلك بنية صالحة وعزمات ناجحة وإنما لكل أمرء ما نوى فينبغي أن يسلك فيه طريق الاولين ويتبع فيه سبيل المؤمنين والقيام بالمساجد ركن من أركان الدين وطهارتها ونظافتها شرط في صلاة المصلين وهي بيوت الله ان ترفع وتظهر للقائمين والعاكفين والركّع واحوال الدنيا فيها ممنوع وأعمال لاتيتة لاخراوية فيها مشروع والصلاة هي اول ما ينظر فيها من أعمال العبيد فاما القرب من الله بقبولها أو الطرد والرد بردّها فرحم امرءا وافى امرها وأدّى الامانة التي طوقها وضبط احوالها ونمى أموالها وأخذه من حله بعد الاجتهاد وصرفه في مواضعه بالنظر الديني ووجه السداد وازال ما يكون من ضرر فيها واستقصى امورها حتى يستوفيها فذلك يكون ممن رفع قدرها واستوجب أجرها ومهما استصحبها الاهمال والاعراض شكت إذ ذاك بلسان الحال لربها روى ان مسجدا من المساجد ارتفع الى السماء شاكيا الى الله بأهله لعملهم أعمال الدنيا فاستقبلته الملائكة وقالوا بُعْدًا بهلاكهم حكى معناه الامام الطرطوشي رحمه الله في كتابه المسمى بالنهى عن الحوادث والبدع الذي في تواليفه وحملني (ذلك) على سرد هذه الفصول لتكون تنبيها لمن ولى امرها من الغافلين وايقاظهم من السنات عسى الله ان ينفعنى واياهم في الحية وبعد الممات(1)

بناء جامع الأندلس

فلنرجع الى بناء جامع الاندلس وانما بناء جامع الاندلس فان الذين اعتنوا بتاريخ فاس ذكروا أنه ابتدى البناء فيه سنة خمس وأربعين

(1) Tout ce qui précède, à partir de ومدرك المشار إليه, manque dans la *Djadwat*, mais ce qui suit y figure (p. 49).

ومائتين على يد مريم بنت محمد بن عبد الله الفهري بعد أن اشترت أرضه بوجه صحيح وأنفقت في ذلك كله من مالها الموروث عن أبيها وسمى بذلك لان الامام إدريس بن إدريس لما وفد عليه وفد قروا من جزيرة الاندلس أنزلهم بالعدوة الشرقية من فاس فميت لذلك بعدوة الاندلس فلما أسس جامعها وكان ممن أعان في بنائه جملة من الاندلسيين الساكنين هناك سمى الجامع بهم وقال البكري في مسالكه أنه من ست بلاطات وله صحن صغير به أصول جوز وغيره من الاشجار وسقاية غزيرة الماء تعرف بسقاية مصمودة ويذكر أن احد اعمال الناصر لدين الله المرواني حين تغلب على بعض بلاد المغرب زاد فيه زيادات من جملتها الصومعة التي فيه وذلك في جمادى الاولى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب في عتبة بابها ونقلت الخطبة اليه من جامع الاشياخ على يد حامد بن حمدان الهمداني عامل عبيد الله الشيعي حين تغلب على فاس سنة احدى وعشرين وثلاثمائة وكان أول خطيب خطب به الفقيه الصالح أبو الحسن بن محمد الصدفي فلم يزل الامر على ذلك إلى أن زيدت فيه الزيادة المشار إليها على يد عامل الناصر لدين الله ولم يزل ايضا كذلك إلى ان انهى للناصر الموحدي سنة ستمائة أنه يحتاج الى الاصلاح والبناء فأمر ببناء الباب الكبير الجوفي الذي به الدرج وسعته عشرون شبرا وارتفعه سبعة وعشرون شبرا وأدراجه اربعة عشر درجة وباسفل ادراجه شباك من خشب الارز فيه ثلاثة ابواب في الاوسط بيلتين من الحجر الاصفر ينفجر بها الماء من وادي مصمودة الذي يمر بأسفل هذا الباب الاكبر ليغسل الحفاة بها أقدامهم وصنع باعلا هذا الباب فبتان أحدهما من جص مفربسة من داخله والثانية من

خشب الارز من خارجه وكان بها طلسم للخطّابي لا يدخلها ولا يمر بها ولا يعشش فيها وتعطّل في سنة عشرين وسبعمائة وأمر امير المسلمين الناصر ايضا ببناء سفاية ومدخل لبيت صلاة النساء وعليها مصرية لإيمّة الجامع وذلك عن يمين الخارج من الباب المدرج المذكور وبالغرب من ذلك دار الوضوء تحاكي التي بجامع القرويين وخصتها أمر بعملها السيد أبو زكرياء يحيى نجل خلفاء الموحدين وأنفق فيها من ماله ولم يزل الجامع كذلك الى أن اعتلت سقفه وجلة سواريه فأنهى خطيبه الشيخ الصالح ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم بن حسونة أمر هذا الجامع لامير المسلمين مولانا أبي يعقوب رحمه الله فأمر باصلاحه وذلك على ما هو عليه الآن في سنة خمس وتسعين وستمائة

وكان الناصر الموحدي قد جلب الماء له بعين خارج باب الحديد فاعتدل في مواضع وجلب له الماء من وادي مصمودة الى ايالة أمير المسلمين أبي ثابت فأمر بجلب الماء له من العين التي بخارج باب الحديد وببناء السفاية الغربية من جوفه وذلك سنة سبع وسبعمائة

وعدد بلاطاته من شرق الى غرب خمسة عشر بلاطا ومن قبلته إلى جوفه ثلاثة عشر بلاطا وفي قدم منكبه المرتفع مقدار بلاطا بعد تعديل انحرافه بالمساحة وفي طوله على هذا من قبلة إلى جوف مائتا شبر وعرضه كذلك فيكون في البلاط الواحد وأساطينه من اشخاص المصلّين ثلاثمائة شخص بعدد ما يملاه من المصلين على هذا أربعة آلاف شخص ومائتا شخص بعد حط مواضع السواري وعدد سواريه مائة سارية واربع وثلاثون سارية وأما صومعته في كل وجه منها ستة عشر شبرا وفيها من الادراج أربع وسبعون درجة وارتفاعها سبعون شبرا فيما ذكر وفي اعلى

هذه الصومعة فيها مجلوس المؤذنين لتداول الاذان وعدد المؤذنين والقومة في هذا الجامع المبارك عشرون شخصا ولهم على ذلك عوائد وفوائد معلومة عندهم وقد عمل في اعلى هذه الصومعة صارى من خشب ينشر فيه علم أبيض في اوقات صلاة النهار وفنار مسرج في أوقات صلاة الليل فى أول إيالة مولانا المتوكل ابي عنان رحمه الله والمؤذنون في هذه الصومعة يقتضون في اذانهم بأذان اهل جامع القرويين على العادة القديمة المتداولة الآن وعدد ثرياته الكبرى والصغرى احدى وستون ثريا الكبار منها خمس قد علقت بالبلاط الاوسط منه وبقيتها في سائر الجامع في مواضع معلومة منه وفيه من الصبحيات العراقيات خمس بقرب محاربه وثلاثون بساتره وفي فرش صحنه من الاجر من شرق إلى غرب مائة صف واثنان وثلاثون صفا في كل صف مائتا أجورة وله من الابواب تسعة فمن الجانب الغربي ثلاثة ومن الجوفي الباب المدرج المذكور ومن الجانب الشرقي خمسة منها اثنان يدخل منهما الماء لمقدم الجامع الذي يصلى فيه على الجنائز وبين مقدم الجامع وبيته الاعظم بابان مدرجان احدهما عن يسار المحراب لدخول الخلفاء مهما أرادوا شهود صلاة الجمعة والثاني عن يمين المحراب والمنبر ومنه يخرج الخطيب ومنه يتوجه للصلاة على الجنائز

وكان جملة من الفقهاء يدرسون العلم في مواضع من هذا الجامع وكانوا اهل الشورى ممن يقتدى بهم يقصدهم الناس من أقطار البلاد فمن متجرد لتلاوة القرآن ومن مدرس ومن طالب لما شاء من فنون العلم في مجالس شتى وكان فيه ايضا جملة من الصلحاء والعباد يلتزمونه قد تعرفوا للعبادة بعد تحصيل العلم ويقصدهم الناس للفتوى وطلب العلم

والتماس الدعاء كالفقيه الولي الصالح الورع جبر الله بن القاسم الاندلسي نزل عدوة الاندلس من فاس وهو ممن ادخل علم مالك اليها وهو من مشاهير فقهائها ومتقدميهم لقي اصبغ بن الفرج وسمع منه كذا قال صاحب المدارك حدث عنه أن رجلا رأى في النوم كأن قائلا يقول له إن شئت ان ترى نظير معاذ بن جبل فصل في الجانب الغربي من جامع الاندلس فالذي يدخل وعليه برنس وصفته كذا وكذا هو ذلك ففعل الرجل فاذا بجبر الله ابن القاسم رضي الله عنه على الصفة الذي ذكر له القائل في النوم وهو ممن لحق دراس بن اسمعيل ويذكر أن دراسا رحمه الله لما قدم بكتاب محمد ابن المواز قال له جبر الله ما الذي جئت به فأخبره بالكتاب المذكور فقال له اذكر منه فجعل دراس يذكر المسائل وجعل جبر الله يجيبه بما حفظ وما لم يحفظه قاسه على أصول مذهب مالك رحمه الله فما خالف كتاب محمد بن المواز لا في مسئلة الثور إذا اشتراه في اول الدراس ولم يشرط أنه دراس فوجده لا يدرس فهل هو عيب يرد به ام لا كذا المفيد بخط الفقيه ابي عبد الله محمد ابن القاضي ابي العباس احمد بن ميمون البشتالي رحمه الله تعالى وكان يلتزم هذا الجامع المبارك وولي القضاء بعدوة الاندلس الفقيه الصالح الولي ابو محمد عبد الله بن محسود الهواري قدم من مدينة باوربة(1) ونزل في جهة باب بني مسافر عن عدوة فاس الاندلس وكان رحمه الله عدلا في احكامه ورعا في جميع احواله رحل الى القيروان ولقي محمد بن ابي زيد رضي الله عنه وشاهد تاليفه النوادر وكان يعد من رجال المدونة ثم ولي القضاء بمدينة

(1) C'est peut-être تاوريرت qu'il faudrait lire ?

فاس كما ذكر وكان رجلا مقلّا من الدنيا مجتهدا في الاحكام اقام الحدود كلها قتل وصلب وقطع الايدى واقام اللعان وغير ذلك ولما توفى رحمه الله طُلِبَ في فاس مَن يعامله في شيء فلم يوجد له معامل فبحث عن سمنه وزيته من اين كان يشتريه فوجد له صاحب بمكناسة الزيتون يشتري له بها الزيت والسمن ويبعثه إليه وياتيه قوته من القمح من هوارة وزوجته تغزل له كسوته من الثياب القطنية رضي الله عنه وقبره بخارج باب الجيسة في اسفل الموضع المعروف بالقبة له كرامات يطول ذكرها والدعاء عند قبره مستجاب

وقصدنا بهذه الحكايات وامثالها البركة في سرد اقوالها وجاء نزول الرحمة عند ذكرهم وذكر امثالهم فانه قال صفيان ابن عيينة رضي الله عنه عند ذكر الصالحين تنتزل الرحمات وقال بعض المشائخ حكايات الصالحين جند من جنود الله تعالى يثبت بها قلوب اوليائه وشاهد قوله تعالى وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكُمْ وما احسن قول القائل

(الوافر)

أحِبُّ الصالحين ولسْتُ منهم ... وأرجُو أنْ أنالَ بِهِمْ شفاعَةْ
وأبغُض منْ بضاعتهِ المَعاصِي ... وإن كُنَّا شريكا في البضاعة

وهنا انتهى القول فيما قيدته والله سبحانه يُنفِّع بما قصدتُّه ونويته مع اني لسْت من اهل التاليف ولا من اهل المعرفة بالتصنيف لكن اذا صرم النبت رُعي الهشيم لعمر ابيك ما نسب العلا اليَّ كرمٌ وفي الدنيا كريم ولاكن البلاد إذا اقشعرت وطوّح نبتُها رُعي الهشيم فمن نقل ما قاله الناس فما عليه من بأس فمن وجد في هذا التقييد خطأ فليصلحْ أو زلالا فليسمحْ فالعصمة من

اخطأ متعددة وأوفات البحث غير مستحصرة ولا مركله لله ولا حول ولا قوة الا بالله الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لو لا ان هدانا الله وحسبنا الله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وصلى على سيدنا ومولانا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا يُرَدّ عليه بُكْرة واصيلا انتهى

TABLE DES MATIÈRES

Préface 5

Table des abréviations des ouvrages cités..... 15

Traduction française 17

CHAPITRE Ier. — Les avantages du pays du Maghrib..... 18

Statut juridique des terres..... 21

Les Berbères et les premiers conquérants arabes..... 23

Idris I 27

Idris II 35

Fondation de Fès..... 38

Eloge et mérites de Fès et de sa région..... 61

Le fleuve Sbou 68

CHAPITRE II. — Construction des remparts ; Mosqués et édifices divers 73

La Mosquée des Qarouiyîn..... 84

Khatîbs et Imâms de cette Mosquée..... 100

Agrandissements de la Mosquée d'El-Qarouiyîn..... 120

Salles d'ablutions et adduction d'eau..... 134

Autres parties de la Mosquée..... 141

Cloche chrétienne transformée en lustre..... 146

Les Bibliothèques de la Mosquée..... 148

Les portes 151

Indications diverses sur cette Mosquée, ses revenus, son rôle, etc..... 154

La Mosquée des Andalous..... 169

L'enseignement et quelques-uns des savants de cette Mosquée 175

Index I. — Noms de personnages et de tribus..... 181

Index II. — Termes géographiques et noms de monuments.... 189

Erratum 197

ERRATUM (traduction française)

Pages	lignes	au lieu de	lisez :
5	15	*Toḥfa*	*Toḥfat*
17	9	ḥosaïniens	ḥasaniens
33	22	avec	avait
45	21	Djiriyin	Djiziyin
51	15	la porte *Bâb El-Faṣîl,*	la porte *Bâb Ech-Chiboûba* qui faisait face à la porte *Bâb El-Faṣil,*
53	5-6 (des notes)	, dont l'existence,	, qui se trouvaient là,
55	14	menaçât	menaça
56	5 (des notes)	*id*	*id*
58	4 (des notes)	dans	avec
60	7	El-Qirouâni	El-Warrâq
63	10	ton nom	ton sol
65	6	pous	poux
65	27	gyps	gypse
67	15	se passe	se fait
85	17	décision cette	décision en cette
88	1	contre ceux	contre ceux-ci
127	16	On entreprit	On construisit
127	2 de note 2	car ainsi qu'	ainsi qu'
130	3	d'un puits creusé dans l'atrium,	d'une caverne creusée sous trois travées. Cette caverne se trouve sous la porte située entre le miḥrâb et la Porte aux degrés, percée en ces lieux. L'eau employée à ces travaux fut tirée du puits foré dans l'atrium,
135	7 de note 3	mais cette	mais une
140	6	au-dessus	au-dessous
143	2 de note 7	confirmé	confirmée
161	16	certaines	certains
163	15	favorisent	favorise
172	2 de note 1	ou	au

T

Pages
Tâdla 31
Tâhart 20
Takroûr 88
Tâmesnâ 31
Tanger 21, 26, 30
Tâoûrit 177-178
tarbi'at Ez-Zâqin 152
Tâza 88
thermes de Abou Ya'qoûb 67
— de Fès 81
— de Ouachtâna 67
— de Sidi Harâzem 67
Tlemcen 31, 32, 60, 88, 89, 91, 115, 143

Z

Zerhoun 7, 30
Zitoûn ben 'Atiya 51

Pages

pont de Kahf El-Waqqâdîn 76, 77
— El-Khorchef 76
— Er-Remîla 75, 77
— Er-Reṣîf 76
— Eṣ-Ṣabbâghîn 76, 77
— Eṭ-Ṭarrâfîn 76

Q

Qal'a (la) de Fès 55
Qal'at En-Nser 22
Qaṣba de Bou Jeloud 79, 80, 81
Qîsâriya 81, 138
Qobba (El-) 178
Qoûrâdja (rempart d'El-) 78
Qṣar 'Abd El-Karîm 69
Qṣar (El-) El-Kebîr 69

R

Rabâṭ 31
Ramâda (Er-) 46
Râs Madjarr El-Farh 52
Remîla (Er-) 75, 77
Reṣîf (Er-) 76

S

Sahara 20, 73
Sâïs (plaine de) 39, 57
Ṣâtibi (Eṣ-) 65
Sbitriyîn (Es-) 152
Séville 20
Sicile 24
Smât El-'Œdoûl 152
ṣaoûm'a (Es-) El-Mgerreja 64
souk 81
— Ech-Chemmâ'în 157
— El-Ḥarrârîn 138
— El-Qarrâqiya 138
soûr 81
soûr Zitoûn b. 'Aṭiya 79, 80
Soûs 20

Pages

Mosquée de la Qaṣba de Fès 146
Mosquées de Fès (leur nombre) 81
— de Tlemcen 89, 91
mestaoûda' (de Qaroûiyîn) 133, 134, 148
moulins de Fès 81
Msoûn 88
Murcie 20
musée (de Tlemcen) 91

N

Nef'ts 59
Nekhkhâlîn (En-) à Fès 77

O

Océan Atlantique 20, 23
Oued Bou Khrâreb 51, 64, 83
— Bou Regreg 31
— El-Djawâhir 51, 63, 65
— Fès 39, 41, 51, 53, 63-65, 67, 68, 69, 70, 83
— Ḥasan 99
— Lokkoûs 69
— Maṣmoûda 173
— Mekes 65
— Oomm Er-Rabî' 31, 172
— Sbou 39, 58, 68, 69, 71, 72
— Soûs 20
Oulîli ..... 30 à 34, 36, 37, 38
'Oyoûn El-Karrâzîn 55, 143
— Ibn Eṣ-Ṣâdi 55

P

Palestine 23
Péninsule arabique 20
pont d'Abou Barqôqa 76
— d'Abou Ṭôba 76
— d'Azîla 49
— de Bâb Es-Salsala 76, 77
— Baîn El-Mdoûn 75
— Derb Ben Zekkoum 76

L

Pages
Larache 69
lustre (le grand) de Qarouiyîn ..... 130 à 133
lustres (d'Andalous) 175

M

mâgâna (voir Horloges).
Mahdiya (d'Ifrîqiya) 69, 70, 88
Mansoûra (Tlemcen) 115, 143
Maqarmeda 41, 53
Maqṣoûra (Qarouiyîn) 145
Marrâkech 73, 84, 101, 172
maṣriya 81, 137, 172
Mâssa 20, 25, 31
méchouar (de Tlemcen) 80
médersa Bou 'Anâniya 9, 94, 96, 138, 148
— Meṣbâḥiya 70, 113, 115, 152
— Ṣahrîj 70
— des Ṣaffârîn 9, 91
Médine 27, 28
Mekke (La) 18, 28
Meknès 39
mellâḥ (de Fès) 83
Mer Méditerranée 24
miḥrâb 85, 86, 91
miḥrâb (de Qarouiyîn) 85, 86, 127, 128, 129
minaret (d'Andalous) 174
— (de Qarouiyîn 89
minbar (de Qarouiyîn) 87, 99, 129
El-Mokhfiya 51, 76
moṣalla-l-Djanâîz (de Qarouiyîn) 129
Mosquée d'El-Achyakh 53
— d'Agâdîr (Tlemcen) 32, 60
— d'El-Andalous ..... 9, 91, 94 et suiv., 138, 169 et suiv.
— de Bou Jeloud 80
— des Chorfa 41, 53, 55, 56, 61, 85, 87, 137
— de Darrâs 45
— d'El-Ḥaloui (Tlemcen) 91
— d'El-Qaroûiyîn ..... 9, 13, 22, 51, 62, 70, 84 et suiv.

Pages

Djebel Zalagh 39, 67
Djorf (le) de Fès 55
Djarwâwa 51, 52
Ḍou Ṭawâ 28

E

Egypte 19 21
Emèsse 62
Espagne 26. 33 43, 44. 45

F

Fakhkh 28, 29. 30
fandaqs de Fès (leur nombre) 81
fandaq Ibn Ḥayyoûn 134
— El-Ouqîd 77
— El-Ihoûdi 57
Fès-Ej-Jadîd 57, 83. 94
fontaines de Fès (leur nombre) 81
forêt (de cèdres) 66
— de Ma'moûra 69, 71

G

Gerniz (quartier de) 135
Grenade 20
Gzem Barqoûqa 76

H

Ḥaffârin (El-) 54
Ḥawouḍ es Safardjel 75
Hobbâlât (El-) 68
horloge de la Medersa Bou-'Ananiya 9, 96
horloges de la M. Qarouiyin ..... 91 à 93

I

Ifriqiya 20, 24, 25, 32, 37, 38

K

Kahf El-Waqqâdin 74
Keddân (El-) 74
Koûfa 18, 42. 43
Khaoûlân 67, 69, 70, 71

Pages

bâb Ez Zitoûn (ou Bâb Zitoûn b. 'Atiya)..... 51, 81
Babylone..... 19, 20
Bagdâd..... 20, 32
balât (nef ou travée)..... 154
Barqa (pays de)..... 19, 20
Barzakh..... 51
bassin et Vasque d'ablutions (à la M. de Qarouiyîn)..... 134-140
bibliothèques de la M. de Qarouiyîn..... 148-150
Bordj El-Kaoûkab..... 52, 53
Bordj El-Mektoub..... 79
Bordj Sud..... 79

C

cadrans solaires..... 91
Caire (Le)..... 62
Cairouan..... 19, 21, 24, 41, 45, 57, 84, 85, 86, 178
Chella..... 31
Chîboûba (Ech-)..... 51
Ceuta..... 20, 26, 172
col de Bou Chtâta..... 67
Cordoue..... 20, 78

D

Dâr Dabîbagh..... 39
— El-Ouḍoû (M. Qarouiyîn)..... 139-140
— — (M. Andalous)..... 172
— El-Qîtoûn..... 41, 53
Derb Ibn Ḥayyoûn..... 153
— Es-Seba' Louwiyyât..... 153
— Sîdi Moûsa..... 135
Djâma'-l-Djanâîz (M. Qarouiyîn)..... 129
Djebel Aoutan..... 19, 20
— Bahloul..... 66
— Deren..... 20
— El-Fatḥ..... 146, 147
— Fazâz..... 71
— Kandar..... 66
— Masmoûda..... 73
— Nefousa..... 20
— Ouazzân..... 80

Pages

bâb Bani Mosafir (ou Bâb Sidi Bou Djida)..... ... 23, 79, 80, 177
— Ech-Charî'a 52, 79, 80
— Ech-Chammâ'în (M. d'El-Qarouiyîn)..... 121, 152
— Ech-Chems..... 81
— Ed-Daradj (M. de Qarouiyîn).. ..... 143, 144, 153
— — (M. des Andalous)..... 143, 171
— Derb Ibn Hayyoûn (M. de Qarouiyîn)..... 153
— Djerwâwâ.. 51
— El-Djiziyîn..... 45, 81
— El-Faradj..... 51, 55
— El-Faras..... 55
— El-Faṣîl..... 51, 54, 55
— El-Fowâra..... 51, 81
— El-Fotoûh..... 74, 79, 80, 81
— Gisa..... ..... 23, 53, 74, 75, 78, 79, 80, 178
— El-Ḥadîd..... ..... 55, 81, 99, 173
— El-Ḥamra..... 45, 81
— Ḥisn Djadîd 54
— — Sa'doûn 54, 55, 57, 74
— El Ḥoufât (M. Qarouiyîn)..... 134, 138, 142, 152
— Ibn 'Omar (M. Qarouiyîn)..... 152
— Ifrîqiya..... 54, 55
— El-Kanîsa 52
— El-Khaṣṣa (M. Qarouiyîn)..... 152
— El-Khoukha 52, 53, 79
— El-Koutoubiyîn (M. Qarouiyîn) 146, 152
— El-Maḥroûq..... 80
— El-Matmar..... 79, 80
— El-Mouwattiqîn (M. Qarouiyîn)..... ... 120, 152
— En-Nisa (M. Qarouiyîn)..... 152
— En-Noqba..... 51, 54
— El-'Omyân (M. Qarouiyîn)..... 152
— El-Ouâdi 81
— El-Qal'a 55
— El-Qaṭṭâ'în (M. Qarouiyîn).. 152
— El-Qibla 51, 53, 74
— Raîqat Ibn El-Qardîs (M. de Qarouiyîn)..... 153
— Es-Selsala..... ..... 55, 123
— Sidi Bou Djida (c'est le Bâb Beni-Mosâfir)..... .. 23, 80

INDEX II

Termes géographiques et noms de monuments

A

Pages

'Adouat El-Andalous..... 41, 50, 51, 53, 57, 70, 73, 74, 79, 80, 81 169
— El-Qarouiyin..... 41, 50, 51, 53, 54, 55, 57, 62, 70, 73, 74, 80, 81, 84 et suiv.
Aghlân 55 57
Aghmât..... 59
'Aïn 'Allou..... 53, 54
— Asliten..... 78
— Derdoûr..... 54
— Farmâl..... 135
— Ḥarmâl (ou 'Aïn Farmâl, ou Khaoûmân, ou Khaoumâl)..... 135
— Ibn Eṣ-Ṣâdi (ou 'Oyoûn El-Karrâzin 143
— 'Omaïr..... 39
— Qarqaf..... 141
— Talloût..... 54
Alexandrie..... 41, 45
Alméria..... 20, 69, 70
'anza (des Mosquées)..... 86
— (de Qarouiyin)..... 141, 142
'Aqbat Ed-Dokhân..... 137
— El-Djorf..... 55
— El-Mallaḥîn 137
— Eṣ-Ṣa'ter..... 54, 55, 74
Azemmour..... 62

B

bâb Abi Sofyân..... 52
— 'Adjîsa (voir Bâb Gîsa).
— El-Aoûliya (M. de Qarouiyin)..... 152
— Aṣliten 54, 78, 79

S

Pages

Sa'id b. Abi Waqqâs 18
— b. El-Mosayyeb 42
Sâlih b. Manṣoûr 30
Ṣanhâdja (tribu des) 37
Ṣa'ṣa b. Sollâm 44
Socrate 19
Sofyân b. 'Oyaïna 18, 179
Soḥnoûn 43, 176
Solaïmân b. Abi Dja'far El-Mansoûr 28
— b. Djarîr 32, 33

T

Ṭabari (Et-), voir Moḥammed b. Djarîr.
Ṭâriq b. Zayyâd 26
Turcs 20

W

Wâdih (affranchi de Sâliḥ b. Mansoûr) 30
Walîd (El-) b. 'Abd El-Malik (omayyade) 26
Warrâq (El-), voir Abou Marouan 'Abd El-Malik.

Y

Yaḥya b. 'Abdallâh b. Ḥasan b. Ḥasan (frère d'Idrîs I) 27
— b. Idrîs II 61
b. Moḥammed b. Idrîs 84
Yaḥsoubites 38
Yazîd b. Mo'aouiya (l'omayyade) 25
Yoûsof b. Tâchfîn 73, 75, 78, 79
— b. Yaḥya b. 'Isa Et-Tâdili 22

Z

Zenâta 37, 40, 73, 75, 86, 87, 88
Zirites 41
Ziyâd b. 'Abd Er-Raḥmân 44
Zouâgha (tribu des) 40

Pages

Moḥammed (El-Hâdjj Abou 'Abdallâh) b. 'Abdallâh 109
— b. 'Abdallâh El-Fihri El-Qarouiyi 84
— — b. 'Abd Er-Raḥmân Ech-Chabli 108
— b. Chihâb Ez-Zohri 42
— b. Djarîr Eṭ-Ṭabari 27
— b Ibrâhîm El-Mowâz 42, 45, 177
— b. Idrîs II 61
— b. Khalaf 132, 133
— b. Khazar b. Soûlat El-Maghrâoui 32
— b. Solaïman b. 'Ali b. Moḥammed 28, 29
Mosta'în (El-) billâh) le Mérinide) 6, 54
Moûsa b. 'Abdallâh b. Sâdât 134
— b. Abi-l-'Afiya 86, 88
— b. 'Isa b. Moûsa 28
— b. Noṣaïr 26

N

Nâsir (En-) lidinillâh 'Abd Er-Raḥmân b. Moḥammed (l'ommayade d'Espagne) 87, 88
Nâsir (En-) Moḥammed (l'Almohade) 107, 108, 136, 143, 172, 173

O

'Obaïd Allâh (le Mahdi) 70, 87, 88
'Obaïdi (El-) 80
'Omaïr b. Moṣ'ab El-Azdi 39
'Omar b. 'Abd El-Aziz b. 'Abdallâh 27
— b. Idrîs II 61
'Oqba b. Nafi' El-Fihri 25
Oulad Mokharreba 69
— Ta'lou 30

Q

Qaïsites 38
Qar'oûs b. El-'Abbâs 44
Qâsim (El-) b. Idrîs II 61

R

Rachîd (Er-) (l'Almohade) 172
— (affranchi d'Idrîs) 30, 33, 35, 36, 37

Pages

Ibrâhîm b. El-Aghlab 37
Idrîs I ..... 7, 17, 26 à 35
Idrîs II ..... 35 à 61
Idrîs III 61
'Isa b. Idrîs II 61
Isḥâq b. 'Isa (Emîr de Médine) 27
— b. Moḥammed b. 'Abdallâh El-Aoûrbi 31
Ismâ'îl b. 'Ali 28
'Iyâḍ b. Moûsa (le qâdi) 43
'Izz Ed-Dîn b. Djalboûn 146

K

Kenza (mère d'Idrîs II) 35
Khalaf b Abi Dja'far 45
Khâlid El-Berberi 27
Khazradjites 38
El-Khiḍr (ou El-Khaḍir) 158

L

Lemtouna (tribu des) 73, 74, 75, 78, 101

M

Madladjites 38
Maghrâoua (tribu des) 75
Mahdi [El-] (khalife 'Abbasside) 32
Mâlik b. Anas ..... 7, 21, 42 à 45, 176
— b. Merhâl 132
Mâmoûn (El-) 84, 172
Manṣour b. Abi 'Amir 22
Maryem bent Mohammed ben 'Abdallâh 84, 85
Masâla b. Ḥobboûs 86, 87
Masmoûda tribu des) 59
Mérinides 6, 12-14, 84, 101
Miknâsa 86
Mo'ad b. Djabal 176
Mo'anṣir (El-) b. El-Mo'izz b. Ziri b. Aṭiya 75
Mo'aouiya (le khalife omayyade) 25
Mobârek (le Turc) 28
Moḍaffar (El-) 'Abd El-Malik b. El Manṣoûr b. Abi 'Amir .. 96, 97, 99

Pages

Djaznâya (tribu des)..... 6
Doûnâs b. Ḥamâma..... 73, 75

F

Fâṭima bent Mohammed..... 84, 85
Fatimites..... 86
Forât b. Moḥammed El-'Abdi..... 43
Fotoûḥ (El-'),..... 74, 75

G

Ghomâra (tribu des)..... 37
Goliath..... 23
Grecs..... 20
Gzannâya (pour Djaznâya)..... 6

H

El-Hâdi (Khalife)..... 27, 28
Ḥâmid b. Aḥmed El-Hamadâni..... 87
Ḥamza b. Idrîs II..... 61
Hâroûn Er-Rachîd..... 32, 33
Ḥasan (El-) b. Idrîs II..... 61
Hichâm (le khalife de Cordoue)..... 22, 44, 97, 99
Ḥomaïd b. Chîbel..... 88
Ḥomaïd b. Ḥamdân El-Ḥamdâni..... 88
Ḥosaïn b. 'Ali b. Ḥasan b. Ḥasan..... 27, 28, 29, 30
Ḥosaïn (El-) b. Idrîs II..... 61
Ḥowâra (tribu des)..... 85, 178

I

Ibn 'Abdoûn..... 132
— Abi Zaïd El-Qiraouâni..... 45, 178
— Achras..... 43
— El-Aḥmar..... 10
— El-Djaouzi..... 20
— Ghâleb..... 45, 59, 60
— Ḥazm..... 45, 61
— El-Qâsim..... 21
— Er-Raqîq..... 18, 41
— Et-Tabbân..... 46

Pages

Ahmed b. Moḥammed b. El-Achqar 148
'Ali b. Abi Maṭar 41, 42, 45
— b. Abi Ṭâleb 109
— b. 'Omar El-Aoûsi 82
— b. Yousof b. Tâcheffin 99, 125, 126
— b. Zayyâd 43
Almohades 73, 81, 101, 102, 103
Almoravides 20, 74, 75, 81, 101
'Amr b. Ma'di Karib 116
Aourba (tribu des) 30, 37
Aṣbagh b. El-Faradj 176
El-Aouzâï (l'Imâm) 43, 44
Azdites 38

B

El-Barnousi 48
Bani 'Abboûda 68
— Ifren 75
— El-Khaïr 40
— Wâritin 71
— Ya'ras 40
Yazgha 40, 66, 134
Berbères ..... 23 et suiv., *pass.*
Berghouâta 31

C

Châfi'i [Ech-] (l'Imâm) 44
Chaṭibi [Ech-] 61
Chinois (Les) 20

D

Darrâs b. Ismâ'il (Ibn Maïmoûna) 23, 41, 43, 45, 177
David 23
Dâwoûdi (Ed-) 22
Dâwoûd b. Idris II 61
Dâwoûd b. Khalaf 44, 45
Djabr Allâh b. El-Qâsim El-Andalousi 176, 177
Djerwâwa 41
Dja'far b. Idris II 61

Pages

Abou Moḥammed 'Abdallâh b. 'Ali El-Fârisi 87
— — b. 'Abd-El-Wâhid 119
— — b. Abi-ṣ-Ṣabr Iyoûb 112, 113
— — El-Djanyâri 117
— — El-Fichtâli 110
— — b. Mimoûn El-Howâri 105
— — b. Moḥammed b. Maḥsoûd El-Howâri. 177 178
— — b. Moûsa 130
— — El-Qoḍaï 108
— — b. Zyadet-Allâh El-Madani 111
— 'Abd El-Ghaffâr 109
— 'Abd El-Ḥaqq b. 'Abdallâh El-Gharnâṭi 100. 125
— El-Mahdi b 'Isa 101
— Yachkor El-Djarâoui .. 102 à 105, 133 à 136, 139, 153
Abou Moûsa El-Ach'ari 42
Abou 'Oṭmân Sa'îd b. Khazer 69
Abou-l-Qâsim 'Abder Rahmân b. Machoûna 111
— b. Aḥmed 133
— Gennoun 84
— b. Ḥomaïd 104, 134
— El-Mazyâti 132
Abou-r-Rabî' Solaïman b. Yoûsof 119, 120
Abou Sa'îd 'Otman (le Mérinide) 10, 35, 76, 77, 148
— Sâlim (le mérinide) 6, 151
— Tâbit 'Âmir 173
— Yahya El-'Attâd 100
— Ya'qoûb Yousof (le Mérinide). 9, 91, 113, 123, 131, 142, 157, 172
— Yoûsof Ya'qoûb (l'Almohade) 79, 81, 149
— — (le Mérinide) 53, 80, 142
— Zakarya Yahya b. En-Nâsir (l'Almohade) 172
Abyssins 20
'Adel [El-] (l'Almohade) 84, 172
'Adjîsa 74, 75
Aḥmed b. Abi Bakr b. 'Abd Er Raḥmân b. Sahl 88, 89, 90
— b. Abi-l-Qâsim Et-Tâdîli 22
— b. Bahloûl 43
— b. Ḥanbal (l'Imâm) 44
— b. El-Manṣoûr (le Saadien) 68

Pages

Abou 'Abdallâh Mohammed b. Es-Saddîna El-Qarsṭoûni..... 93
— — Eṣ-Ṣanhâdji..... 92
— — b. Yoûsof El Mazdaghi..... 110, 111
Abou 'Ali b. Abi Sa'îd (le Mérinide)..... 144
Abou Bakr b. El-'Arabi..... 158
— b. El-Labbâd..... 45
Abou-l-Djaldjâl..... 19
Abou Djida b. Aḥmed..... 23
Abou Dorr El-Ḥasani..... 111
Abou-l-Faḍl Moḥammed b. Abi-l-Ḥasan El-Mazdaghi..... 112, 117
Abou Ghâleb b. Abi 'Abd Er-Raḥmân El-Maghili..... 143
Abou-l-Hadjâdj b. 'Omar El-Anfasi..... 117, 118, 119
Abou Ḥafṣ b. Abi Sa'îd (Mérinide)..... 144, 145
— (le sid) b. Yoûsof b. 'Abd El-Moûmen (l'Almohade)..... 123
Abou Hanîfa..... 43, 44
Abou-l-Ḥasan b. 'Abdallâh Es-Sidjilmâsi..... 139
— 'Ali (le Mérinide). 8, 67, 69, 70, 113, 114, 115, 116, 144, 145, 146, 147, 150
— 'Ali b. Aḥmed Et-Tilimsâni..... 96
— — b. 'Aṭiya..... 101
— — El-Djaznâi..... 5-7
— — Ibn El-Ḥâdjj..... 110
— — b. Ḥomaïd..... 111
— — El-Qâbisi..... 21, 45
— — b. Mohammed b. 'Abd El-Karîm El-Ḥoudoûdi. 143, 153, 157
— Yaḥya b. 'Abd Er-Rahmân El-Mazdaghi..... 112, 113
Abou-l-Ḥosain 'Abd Allâh b. Malik El-Anṣâri El-Makhzoûmi..... 40
— b. Aḥmed b. Moḥammed b. El-Achqar..... 148
Abou Horaïra..... 42
— 'Imrân Moûsa..... 104, 105
— — b. Ḥasan b. Abi Châmma..... 139
— 'Inân Fâres Mérinide..... 8 41, 46, 69 94, 117, 119, 148, 149, 150, 151, 174
— Kâmil..... 28
— Mâlik 'Abd El-Wâhid b. Abi-l-Ḥasan (le Mérinide..... 146, 147
— — b. Aḥmed El-Wancharîsi..... 76
— Marouân 'Abd El-Malik b. Baîḍa El-Qaïsi..... 100, 129
— — b. Moûsa El-Warrâq..... 12, 35, 60
Abou Moḥammed 'Abdallâh b. Abi 'Imrân Moûsa..... 106

INDEX I

Noms de personnages et de tribus

A

Pages

Abbassides 28
'Abdallâh b. Abi Ya'qoûb (le Mérinide) 173
— b. Idrîs II 61
— b. Wahb b. Moslim 176
'Abd El-Ḥaqq b. Mo'icha (le qâdi) 78
'Abd El-Malek El-Qairouani (voir s. Abou Marouan 'Abd El-Malek).
'Abd El-Moumen b. 'Ali (l'Almohade) 68, 78, 101, 129, 130, 151
'Abd Er-Rahmân b. El-Qâsim 42
— Er-Rachîdi 21
Abou l-Abbâs Aḥmed El-Djâni 173
— b. Rachid 112, 113
— El-Waṭṭâsi 76
— b. Abi Zar' 112
Abou 'Abdallâh Moḥammed b. 'Abd el-Karîm El-Fandalâoui 23
— — b. Abi-l-Qâsim b. Ḥassoûna 172
— — b. Abi-ṣ-Ṣabr Yioûb b. Gennoun. 91, 131, 132, 138, 141, 157, 158
— — b. Aḥmed b. Mimoûn El-Fichtâli. 69, 177
— — b. Aḥmed b. Ṣakhr 123, 124
— — b. 'Ali (El-Ḥadjj Abou-l-Ḥasan) .. 119, 120
— — b. Dâwoûd 121, 123, 124
— — b. El-Ḥabbâk 91, 160
— — b. 'Imrân 134
— — b. 'Isa es-Sebti 120
— — b. Zyadet Allâh El-Mozni 104
— — El-Maghîli 62
— — b. Mimoûn 145
— — b. Moḥammed b. El-'Arabi 93
— — b. Moûsa El-Mo'allim 121
— — En-Nâṣir (l'Almohade) 79, 80, 81, 82

Puisse la (bienveillante) garde contre l'erreur être immense ! Puisse le temps de l'examen (attentif) n'être point mesuré !

Tout appartient à Allâh ! Il n'y a de puissance ni de force qu'en Lui ! Louanges à Allâh qui nous a guidé dans cette voie, alors que sans Lui, nul ne nous aurait guidé.

Il est notre compte et cela suffit.

Le Salut soit sur Son Serviteur, celui qu'Il a choisi ! Qu'Allâh répande Ses Grâces sur Notre-Seigneur et Maître Moḥammed, l'Élu ! Sur sa Famille et ses Compagnons ! Qu'Il leur accorde le Salut parfait et incessant !

Par ces récits et leurs analogues nous avons cherché à obtenir la « baraka »[1] ; cette mention et celle de semblables récits ne peut qu'amener (sur nous) la Miséricorde (d'Allâh). Sofyân ben 'Oyaïna — qu'Allâh soit satisfait de lui — a dit : « La mention des hommes pieux fait descendre les Miséricordes (d'Allâh) ».

Certain maître a dit : « Les récits relatifs aux hommes pieux sont (comme) une troupe d'entre les troupes d'Allâh le Très Haut, grâce auxquelles il raffermit le cœur des Saints ».

Cette parole du Qoran[2] en est le témoignage : « Nous te faisons des récits de l'histoire des Envoyés et par là nous raffermissons ton cœur ».

Combien belle est la parole (du poète) : *El-Wâfir.*

J'aime les Saints — mais ne suis point des leurs — et j'espère d'eux obtenir une intercession (auprès d'Allâh).

Je déteste les méchants dans leur commerce, même si je me trouve associé à ce commerce.

Ici se termine le récit de ce que j'ai noté. Allâh — gloire à Lui — veuille seconder mon désir et le but que je me suis proposé (en écrivant ce livre) bien que je ne sois pas un écrivain et que je ne compte pas au nombre de ceux qui savent écrire des livres. Mais, quand le foin est coupé, les troupeaux le mangent ! Je jure par ton père (ô lecteur !) que ce n'est point l'orgueil qui me poussera à rechercher la gloire tant que, par le monde, il y aura des hommes de valeur. Cependant lorsqu'un pays souffre de la disette et que ses pâturages sont desséchés (les troupeaux sont bien forcés) de paître l'herbe sèche !

Celui qui (comme moi) a rapporté ce que l'on a dit n'a point mal agi.

Le lecteur qui trouvera des erreurs, dans ce livre, qu'il les corrige, des fautes, qu'il les pardonne !

---

(1) Sur ce mot, voir mon *Coup d'œil sur l'Islâm*, p. 45 et s.

(2) *Qoran*, xi, 121.

jugements et plein de la crainte de Dieu en toutes circonstances. Il se rendit à Qairouan où il rencontra Moḥammed Ibn Abi Zaïd — qu'Allâh soit satisfait de lui — et vit l'ouvrage de ce dernier intitulé *En-Nawâdir* (1).

On le compte parmi les hommes de la *Moudawwana* (2). Ensuite il fut investi de la charge de qâdi à Fès, comme on l'a dit plus haut.

Il menait une existence humble et était énergique dans ses sentences qu'il appliquait avec toute la rigueur (du droit) : il a condamné (des inculpés) à la mort, à la crucification ; il a fait couper des mains et a fait exécuter le serment d'anathème (3), etc.

Lorsqu'il mourut — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — on rechercha dans Fès quels étaient ses fournisseurs (parmi les commerçants) et l'on n'en trouva pas. Des recherches furent faites afin de savoir où il achetait le beurre et l'huile pour sa consommation et l'on trouva que c'était un de ses amis de Meknès qui lui achetait dans cette ville l'huile et le beurre, et les lui envoyait (à Fès) ; ses contribules des Hoouwâra lui fournissaient le blé ; sa femme lui tissait les vêtements de coton qu'il portait. Qu'Allâh l'accueille dans Sa Miséricorde !

Son tombeau est en dehors de Bâb Gîsa au bas de la colline connue sous le nom d'El-Qobba. (Ce saint homme) a fait des miracles qu'il serait trop long d'énumérer. Les vœux faits auprès de son tombeau sont exaucés.

Tâoûrirt étant le mot le plus rapproché de l'orthographe donnée, convenait d'autant mieux que Taourirt sur la route Oudjda-Taza est encore au centre de la tribu des Hoowâra.

(1) Il s'agit de 'Obaïdallâh b. 'Abderraḥmân b. Abi Zaïd El-Qairouâni, le fameux faqîh malékite auteur de la *Risâla* et de plusieurs autres ouvrages. (Cf. Brockelmann, I, 177-8). Mais l'ouvrage de cet auteur, cité ici sous le titre *En-Nawâdir* n'est pas connu.

(2) Sur cet ouvrage de droit malékite et ses rédacteurs principaux, voir Brockelmann, I, 177.

(3) Sur le *li'ân* traduit ici par « Serment d'anathème » voir les détails fournis par Dozy, *Supp.* II, p. 536-537 et les ouvrages de droit canonique.

Djabr Allâh ben El-Qâsim — qu'Allâh en soit satisfait[1] — qui répondait au signalement donné en songe. Ce personnage est de ceux que Darrâs ben Ismâ'îl[2] a rencontrés.

On raconte que Darrâs — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — lorsqu'il arriva, avec le livre de Moḥammed Ibn El-Mouwâz[3], Djabr Allâh lui dit : « Qu'apportez-vous? » Darrâs l'en ayant informé, Djabr Allâh reprit : « Parlez-nous-en » et Darrâs se mit à en exposer les questions, tandis que Djabr Allâh lui répondait avec ce qu'il savait par cœur ; pour ce qu'il ne savait pas, il le renvoyait aux sources de la doctrine de Mâlek — qu'Allâh lui soit Miséricordieux !

Il ne trouva à réfuter les dires du livre de Moḥammed Ibn El-Mouwâz qu'au sujet de la question suivante : Si un taureau est acheté (par quelqu'un) au début des dépiquages (et pour dépiquer) et qu'il n'ait pas été stipulé (par le vendeur) que ce taureau savait dépiquer, puis que l'acheteur ait trouvé qu'il ne savait pas dépiquer, ceci est-il un défaut permettant ou non de rendre l'animal au vendeur ?

Ce (que nous venons de dire) a été consigné de la main du faqîh Abou 'Abdallâh Moḥammed fils du qâḍi Abou-l-'Abbâs Aḥmed ben Mimoûn El-Fichtâli — qu'Allâh, le Très Haut, lui soit Miséricordieux !

Ce personnage (Djabr Allâh) fréquentait assidûment cette Mosquée bénie.

La charge de qâḍi du quartier des Andalous fut confiée au faqîh, le pieux et saint Abou Moḥammed 'Abdallâh ben Moḥammed ben Maḥsoûd El-Hoouwâri. Il venait de la ville de Taourirt[4] et se logea dans (le voisinage de) la porte dite Bâb Banî Mosâfer du quartier des Andalous. Il était droit dans ses

(1) On remarquera la formule « qu'Allâh en soit satisfait » qui n'est pas employée habituellement pour des personnages comme celui-ci.

(2) Voir ci-dessus, p. 41 note 4.

(3) Voir ci-dessus, p. 42 note 1.

(4) Le nom propre donné ici dans le texte est illisible ; j'ai pensé que

gnement, d'autres enfin s'occupaient de différentes branches de la science, au milieu de nombreuses réunions (d'auditeurs).

Il y avait également un groupe d'hommes pieux et dévots qui fréquentaient cette Mosquée. Ils se dispersaient dans (la grande salle de prière) pour se livrer au culte après avoir enseigné la science (religieuse) et les fidèles venaient les trouver pour leur demander des « fatwa »[1] ou pour puiser à leur science et obtenir d'eux des invocations favorables.

(Parmi ces savants, citons) le faqîh, le saint pieux et dévot Djabr Allâh ben El-Qâsim El-Andalousi[2]. Il habitait le quartier des Andalous à Fès et c'est l'un des hommes qui ont introduit dans cette ville la doctrine de Mâlek (ben Anas); il compte parmi les savants réputés et les plus anciens. Il a rencontré Aṣbagh ben El-Faradj[3] et a assisté aux leçons de ce maître. C'est ce qu'a dit l'auteur des *Madârik*[4]. Il a rapporté à propos de ce savant qu'un homme vit en songe quelqu'un qui lui disait : Si tu veux voir l'égal de Mo'âd ben Djabal[5], va prier dans la partie ouest de la Mosquée des Andalous, celui qui entrera, portant un burnous et répondant à tel signalement, ce sera celui-là.

L'homme fit ce qui (lui avait été révélé en songe). Or ce fut

---

(1) Il en est encore ainsi aujourd'hui à la Mosquée d'El Qarouiyin et les uléma les plus réputés ont toujours des clients qui viennent les consulter sur tel ou tel point de droit sur quoi ils rendent aussitôt un « fatwa » ou décision juridique.

(2) La biographie de Djabr Allâh dans la *Djadwat* est exactement copiée sur celle-ci.

(3) L'un des plus éminents jurisconsultes malékites (IIe-IIIe s. de l'H.); il fut le condisciple du grand Soḥnoûn notamment aux leçons de 'Abdallâh b. Wahb b. Moslim († 197 ; cf. *Tabaqât*, 81, 138 et *pass.*

(4) Ouvrage du qâḍi 'Iyâḍ, non encore publié. Cet ouvrage a été omis dans la liste des travaux du qâḍi, 'Iyâḍ, donnée par Brockelmann, dans son *Histoire de la Litt. arabe* (t. I. p. 369-370).

(5) Compagnon du Prophète (voir sa biog. et la bibliog. in *Tabaqât*, p. 289, n. 4). « Il fut l'un des quatre Compagnons chargés de recueillir les fragments épars du Qoran. »

Les Muezzins de ce minaret se basent, pour l'appel à la prière, sur l'appel qui est fait (d'abord) de la Mosquée d'El-Qarouiyîn, selon une habitude ancienne conservée jusqu'à nos jours [1].

Le nombre des lustres de cette Mosquée des Andalous, tant grands que petits est de soixante-et-un, dont cinq grands suspendus dans la nef centrale. Le reste est réparti dans toute la Mosquée, en des endroits connus.

Le nombre des lampes d'Irâq qui se trouvent dans cette Mosquée est de cinq auprès du miḥrâb et de trente dans le reste de la Mosquée.

Le pavage de son atrium comprend d'est en ouest, cent trente-deux rangées de briques, chaque rangée comptant deux cents briques.

Il y a neuf portes dont trois à l'ouest, une au nord qui est la Porte aux degrés, cinq à l'est dont deux pour le passage de l'eau allant vers l'annexe où se fait la prière des funérailles. Entre cette annexe et la grande salle (de prière) il y a deux portes avec des escaliers, l'une à gauche du miḥrâb pour l'entrée des Khalifes quand ils désirent assister à la prière du vendredi ; l'autre est à droite du miḥrâb et du minbar ; c'est par celle-ci qu'entre le Khaṭîb le vendredi pour le prône et c'est par là aussi qu'il sort pour faire la prière des funérailles.

Il y avait (jadis) un groupe de docteurs enseignant la science en divers endroits de la Mosquée [2]. Ils étaient gens de bon conseil et hommes dont on suit l'opinion ; les Musulmans venaient auprès d'eux des diverses régions du pays. (De ces hommes), les uns se livraient à la récitation du Qoran, d'autres à l'ensei-

(1) Voir ci-devant, p. 94 et note 4.

(2) Les Mosquées principales des grandes villes de l'Islâm ont toujours été des lieux d'enseignement. Actuellement l'enseignement se donne encore dans plusieurs Mosquées de Fès ; mais le siège de l'Université est en fait la Mosquée d'El-Qarouiyîn, dans laquelle plusieurs dizaines de professeurs enseignent chaque jour à de nombreux étudiants. On n'enseigne plus à la Mosquée des Andalous actuellement.

faite de l'emplacement des piliers au nombre de cent trente-quatre [1].

Le minaret de cette Mosquée a, sur chacune de ses faces (une largeur) de seize empans [2] ; son escalier compte soixante-quatorze degrés et sa hauteur est de soixante-dix empans, dit-on [3].

Au sommet de ce minaret est une chambre pour les Muezzins assurant les appels successifs à la prière. Le nombre des Muezzins et des employés de cette Mosquée bénie est de vingt personnes. Pour leur service ces gens reçoivent des dons et des avantages fixes.

Au haut du minaret est fixé un mât en bois auquel est fixé un drapeau blanc au moment des prières de la journée et un fanal allumé pour les prières nocturnes. Cet usage fut établi sous le règne de notre maître El-Moutawwakil 'Alallâh, Abou 'Inân — qu'Allâh lui soit Miséricordieux [4].

---

(1) Tout ce paragraphe manque dans la *Djadwat* et les renseignements donnés dans ce même paragraphe ainsi que dans les suivants ne figurent pas dans le *Qirṭâs*.

(2) Le plagiaire Ibn el-Qâdi qui a donné dans la *Djadwat* (p. 50) ces mêmes indications a négligé de copier ce qui est relatif à la largeur des faces du minaret.

(3) Le rapport de la hauteur à la largeur 70/16 de ce minaret, indique à lui seul la lourdeur de cet édifice dont la largeur n'est même pas contenue quatre fois dans la hauteur. De tous les minarets de Fès, ceux des deux Mosquées (Andalous et Qarouiyin) qui sont les deux plus anciens, sont de beaucoup les plus lourds et les moins élégants.

(4) Cet usage de hisser un drapeau blanc à un mât fixé au minaret, aux heures des prières du jour, s'est conservé dans les principales Mosquées de Fès. Mais le vendredi, le drapeau au lieu d'être blanc est bleu sombre et reste placé toute la journée à son mât. Tous les renseignements donnés ici manquent dans la *Djâdwat*, qui après avoir indiqué la chambre des Muezzins dit que les portes de cette Mosquée sont fermées en dehors des heures de prière. Il explique cette fermeture en s'appuyant sur l'avis de commentateurs du Qoran. Il parle ensuite de la fermeture des portes de la ville pendant les heures de prière en rappelant la prise de Bougie au moment de la prière du vendredi par les Benou Ghânya venant des Baléares, en 580.

notre maître Abou Ya'qoûb — qu'Allâh lui soit Miséricordieux. Celui-ci ordonna de faire les réparations nécessaires en l'an 695/1295-1296 (1) et la Mosquée est restée jusqu'à présent dans le même état.

L'Almohade En-Nâsir y avait amené l'eau d'une source située hors de Bâb El-Ḥadîd (mais le conduit) étant endommagé par endroits, il avait fait une prise d'eau sur l'Oued Maṣmoûda (2). Cela dura jusqu'au gouvernement de l'Émir des Musulmans Abou Tâbit (Amir) (3). Celui-ci ordonna d'amener (de nouveau) l'eau de la source qui est en dehors de Bâb El-Ḥadîd et de construire la fontaine de l'ouest, au nord de la Mosquée. Ceci eut lieu en l'an 707 (1307-1308) (4).

Le nombre des travées de cette Mosquée d'est en ouest est de quinze et du sud au nord de treize. L'avancée de son péristyle élevé a la valeur d'une nef, en tenant compte pour les dimensions du redressement de son inclinaison ; la longueur de la Mosquée du sud au nord est de deux cents empans, ainsi que sa largeur. Dans une nef de cette Mosquée, avec la surface occupée par les piliers, il entre trois cents personnes en prière. C'est donc 4,200 fidèles que peut contenir cette Mosquée, déduction

(1) La date de 595 est donnée par le *Qirṭâs* (éd. p. 53 et tr. p. 102) et par *Djadwat* p. 50 ; notre mst donnait par erreur 575.

(2) Le *Qirṭâs* (éd. p. 53) est plus complet à ce sujet ; il dit : « (Il amena) de l'eau de la source située hors de Bâb El-Ḥadîd, jusqu'au jour où le canal fut détruit, dans les années de famine, et que les traces (mêmes du conduit) furent effacées. En échange on amena l'eau du Nahr Maṣmoûda. »

(3) Ce Mérinide était fils de 'Abdallâh ben Abi Ya'qoûb ben Abi Yoûsof ben 'Abd El-Ḥaqq ; il fut proclamé en dou-l-qa'da 706 (mai 1307) et mourut à Tanger en ṣafar 708 (juillet 1308) : voir *Rawḍat* (Alger, p. 69), et *Berb.* tr. IV, 169 à 179.

(4) Il ordonna de ramener de nouveau l'eau de cette source qu'avait captée En-Nâsir, dit le *Qirṭâs* (éd. p. 53) et dont le canal avait été détruit. Ce canal fut refait en en suivant la trace et l'eau vint à la Mosquée et coula dans la vasque, la fontaine et le bassin, comme jadis. Celui qui fut chargé de ces travaux et de leur surveillance fut l'habile Abou-l-'Abbâs Aḥmed El-Djâni et les frais en furent payés sur le Beit el-Mâl. Cela eut lieu en l'an 707.

trouvait un talisman contre les hirondelles ; grâce à lui, ces oiseaux ne pouvaient ni entrer par cette porte, ni y passer, ni y nicher. Ce talisman disparut en l'an 720/1320.

L'Émir des Musulmans (sic) En-Nâṣir fit également construire (dans cette Mosquée) une fontaine et une entrée pour la salle de prière des femmes, ainsi que, au-dessus de celle-ci, une « Maṣriya » [1] pour les Imâms de la Mosquée. Ces constructions furent faites à droite en sortant par la porte des degrés dont on vient de parler [2]. Tout près de là fut construit le Dâr El-Ouḍou (Pavillon des ablutions) ressemblant à celui de la Mosquée d'El-Qarouiyîn. Quant à la vasque (de ce Dâr El-Ouḍou) elle fut faite sur l'ordre du Sîd [3] Abou Zakarya Yaḥya [4] fils des Khalifes Almohades qui en fit les frais de ses propres deniers.

La Mosquée demeura dans cet état jusqu'à ce que des dégradations se produisirent dans les plafonds et à un certain nombre de ses piliers. Alors le Khaṭîb de la Mosquée, le pieux Cheîkh Abou 'Abdallâh Mohammed ben Abi-l-Qâsim ben Ḥassoûna [5] fit connaître l'état de cette Mosquée à l'Émir des Musulmans,

---

(1) Sur ce mot qui signifie « appartement indépendant mais annexé ou corps principal d'une maison ». Voir sup., p. 81 note 8.

(2) Une fontaine existe encore accolée au mur extérieur de la Mosquée des Andalous et immédiatement à droite des escaliers, en sortant de la porte principale.

(3) Sur la valeur des termes *sîd* et *cheikh* dans la titulature des Almohades, voir mes *Benou Ghânya*, p. 50 note 2.

(4) Il s'agit sans doute du fils du khalife En-Nâṣir, dont il était question pour le trône royal lorsque El-'Âdil fut assassiné en 624, et qui disputa le pouvoir à El-Mâmoûn fils d'El-Manṣoûr, mais il dut y renoncer ; dès 627 il se réfugiait dans le sud marocain, puis revenait bientôt attaquer Marrâkech dont il s'emparait, tandis que Mamoûn levant le siège de Ceuta, mourait sur les bords de l'Oumm Errabî' venant attaquer Marrakech (630/1232). Il ébranla par ses attaques constantes le pouvoir d'Er-Rachîd successeur d'El-Mamoûn et régna même temporairement à Marrâkech. C'est de sa révolte qu'il faut dater la rapide décadence de l'empire almohade.

(5) *Qirṭâs* (éd. p. 53 et tr. p. 102) le nommé Abou 'Abdallah Mohammed ben Machoûna.

vendredi fut le pieux faqîh Abou-l-Ḥasan ben Moḥammed Eṣ-Ṣadafi[1].

Ces constructions restèrent ainsi jusqu'à ce que les constructions nouvelles mentionnées ci-dessus y furent faites sur l'ordre du gouverneur (de Fès au nom) d'En-Nâṣir Lidînillâh.

Et la Mosquée resta dans cet état jusqu'à ce qu'il parvint à l'Almohade En-Nâṣir en l'an 600/1203-1204[2] que cette Mosquée avait besoin de réparations et de restaurations. Il ordonna de construire la grande porte du nord (précédée) de degrés et d'une largeur de vingt empans, d'une hauteur de vingt-sept. Le nombre des degrés était de quatorze.

A la base de cette porte[3] était une cloison grillagée en bois de cèdre percée de trois portes. Celle du milieu donnait sur un bassin de pierre jaune[4], dans lequel arrivait l'eau, amenée de l'Oued Maṣmoûda et passant au pied de cette porte principale, afin que les fidèles entrant nu-pieds s'y lavent (en passant).

Au-dessus de la porte il fit faire deux coupoles, l'une de plâtre sculpté du côté de l'intérieur de la Mosquée, l'autre de bois de cèdre, vers l'extérieur. Dans cette dernière coupole se

---

Ḥasan ben Moḥammed ben El-Qâsim ben Idrîs ; ils avaient pris comme chef Ḥâmid ben Ḥamdân connu sous le nom d'El-Loûzi qui avait appelé Moûsa ben Abi-l-'Afiya pour prendre possession de Fès. Ce dernier songeait à faire exécuter Ḥamid, qui s'enfuit en Ifriqiya. Moûsa confia la garde de Fès à son fils Medyan ; il y resta jusqu'à l'arrivée de Ḥomayd ben Yasal qui nomma à Fès Ḥâmid ben Ḥamdân. Ensuite survint à Fès une révolte dans laquelle périt Ḥâmid dont la tête fut envoyée à Mousa ben Abi l-'Afiya qui l'expédia au khalife Omayyade de Cordoue. (Cf. *Bayân*, I, tr. p. 308-310 ; Bekri, éd. p. 127 ; tr. J. A. avril-mai 1859, p. 358). Pour ce passage voir *Qirṭâs*, éd. 36 et tr. 68 ; *Djadwat*, p. 50.

(1) Beaumier le nomme par erreur El-Kazdy (*Qirṭâs*, tr. p. 68).

(2) Ce passage se trouve, mais très abrégé, dans le *Qirṭâs* (éd. p. 53).

(3) Notre texte dit : « à la base des escaliers » ce qui est une erreur, c'est à la base de la porte et au sommet des escaliers, qu'il faut entendre. Le texte du *Qirṭâs* (p. 53) n'est pas bien clair à ce sujet : « au bas de cette Mosquée était un bassin de marbre.... »

(4) De « marbre rouge » dit le Qirṭâs ; de « pierre rouge » dit le pla giaire Ibn El-Qâḍi (*Djadwat*, p. 50).

El-Bekri a dit dans ses *Masâlik* : elle a sept[1] travées et un petit atrium, planté de noyers et d'autres arbres et reçoit une eau abondante d'un canal nommé canal des Maṣmoûda.

On raconte que l'un des gouverneurs d'En-Nâṣir Lidînillâh l'Omayyade (d'Espagne)[2], après avoir fait la conquête de plusieurs villes du Maghrib, ajouta à cette Mosquée diverses constructions, notamment le minaret. Ces constructions furent faites en djoumâda 1er de 345 (août-sept. 956) ainsi que cela est écrit au seuil de ce minaret.

La Khoṭba se fit dans cette Mosquée au lieu de se faire dans la Mosquée des Cheikhs[3] par ordre de Ḥâmid ben Ḥamdân El-Hamadani, gouverneur de la ville au nom du (chi'îte) 'Obayd Allâh[4], lorsque (Ḥâmid) s'empara de Fès (pour la seconde fois) en l'an 321/933[5]. Le premier Khaṭîb qui y fit le prône du

---

(1) Le *Kitâb El-Masâlik wa-l-Mamâlik* d'Abou 'Obaïd El-Bekri est le grand ouvrage géographique écrit en 460 (1067-8) et dont la partie relative à l'Afrique du Nord a été publiée par de Slane en 1857 (1 vol. Alger) et rééditée en 1911 par le Gouvernement Général de l'Algérie. De Slane a donné la traduction française de cette partie dans le *Journal asiatique* de 1858-9. Nous lisons dans El-Bekri (éd. de Slane, p. 116 et trad. J. A. avril-mai 1859, p. 335) : « Dans ce quartier est une belle Mosquée (dont la salle de prière a) *six* travées de colonnes d'est en ouest ; ces colonnes sont de calcaire dur ; son atrium est spacieux et planté de noyers et d'autres arbres. Elle reçoit de l'eau en abondance d'un canal nommé Saqiyat El-Maṣmoûda.

Le plagiaire Ibn El-Qâdi qui donne intégralement le texte traduit ici dit *six* travées (سـت بـلاطـات), sans doute d'après un manuscrit différent du nôtre. Il y a à corriger le texte arabe de Bekri (éd. p. 116) pour le nombre *six* (ستّة au lieu de سـت).

(2) 'Abd Errahmân ben Mohammed, khalife de Cordoue, proclamé le 1er rabi' I, 300 (16 oct. 912), mort le mercredi 2 ramaḍan 350 (15 oct 961), fut le premier des Omayyades d'Espagne à prendre le titre khalifien d'Amîr El-Moûminin (cf. *Bayân*, tr. II, 259 et suiv.).

(3) Ainsi qu'on l'a vu la Mosquée des cheikhs « Djâmi' El-Achyâkh » fut fondée par Idrîs lui-même dans le quartier des Andalous et garda le privilège de la Khoṭba jusqu'en 321 (cf. ci-devant, p. 53).

(4) Le Mst donnait عبد الله et le plagiaire Ibn El-Qâḍi écrit Abou 'Abdallâh (*Djâdwat*, p. 50).

(5) En 312 les habitants de Fès s'étaient soulevés contre l'Idrisside

bas-monde. Les anges se présentèrent à elle et lui dirent : « Nous sommes envoyés pour détruire tes clients ». Ceci est le sens de ce qu'a raconté l'Imâm Eṭ-Ṭorṭouchi — qu'Allâh lui accorde Sa Miséricorde — dans son livre *En-Naïy 'an El-Ḥawâdiṯ wal-Bida'*, l'un de ces ouvrages (1).

J'ai été poussé à citer ces passages afin qu'ils soient un avertissement pour ceux qui sont chargés de l'entretien des Mosquées et qui les négligent, et pour les réveiller de leur sommeil. Peut-être Allâh m'en saura-t-il gré ainsi qu'à eux, dans ce monde et dans l'autre.

Passons maintenant à la fondation de **la Mosquée des Andalous**.

Ceux qui ont étudié l'histoire de Fès (2) ont rapporté qu'elle fut fondée en l'an 245 (859-860) (3) par Maryam bent Mohammed ben 'Abdallâh El-Fihri, qui acheta d'abord légalement le terrain nécessaire, entièrement de ses propres deniers provenant de l'héritage de son père. Cette Mosquée fut nommée ainsi (Mosquée des Andalous), car lorsque arrivèrent auprès de l'Imâm Idrîs ben Idrîs une troupe de gens fuyant l'Andalousie, il les installa dans la partie orientale de Fès et, pour cette raison, cette rive (du fleuve) reçut le nom de 'Adouat-El-Andalous (4).

Lorsque la Mosquée eut ses fondations et qu'un groupe d'Andalous, habitant ces lieux eut contribué à en élever les murs, elle fut nommée de leur nom.

---

(1) Brockelmann (I, 439) qui donne la biographie de Ṭorṭoûchi ne cite pas cet ouvrage parmi les livres de cet auteur. Il s'agit sans doute du كتاب الحوادث « *Libro de novedades* » cité par Boïgues (p. 182) comme existant en mst à la Zitoûna de Tunis.

(2) Cf. *Qirṭâs* (éd. p. 34 et suiv.) où l'histoire sommaire de la fondation de la Mosquée des Andalous est dans le chap. de celle de la Mosquée d'El-Qarouiyîn. La *Djadwat* donne une simple copie du texte traduit ici.

(3) C'est la date donnée par le *Qirṭâs* pour la fondation de la Mosquée d'El-Qarouiyîn.

(4) Cf. *Qirṭâs*, éd. p. 28.

cela d'une pieuse bonne foi et dans des intentions de réussite ! Mais à chacun revient (le profit) de ses intentions ! [1].

Il convient que tout fidèle suive dans cette Mosquée la voie tracée par les Anciens, qu'il y prenne le chemin des Croyants. Les soins donnés aux Mosquées constituent l'une des bases de la religion, de même que leur propreté est une des conditions de la prière. Les Mosquées sont les maisons d'Allâh lorsqu'elles sont exaltées, lorsqu'elles sont purifiées pour les fidèles, pour ceux qui s'adonnent aux exercices religieux et s'inclinent dans la prière [2], (lorsque) les préoccupations de ce bas monde mauvais en sont exclues, que les actes en vue de l'Autre Monde y sont, au contraire, suivis. Or la prière apparaît comme la première des actions des adorateurs d'Allâh. Ou bien elle procure le rapprochement d'Allâh s'Il l'accueille ou bien l'éloignement et l'exclusion (de Ses Bienfaits) s'Il la refuse. Il sera miséricordieux pour l'homme qui se consacrera aux affaires des Mosquées, qui gardera le dépôt dont il a été gratifié, qui le maintiendra en bon état, qui en étendra la valeur, qui (en outre) prendra de son propre bien, pur et acquis par son travail, pour le dépenser convenablement et dans un but pieux, pour des fins louables en réparant les dégâts survenus à ces Mosquées, en veillant de toute sa sollicitude sur ce qui les concerne, afin d'acquitter entièrement sa dette à leur égard. Un tel homme sera de ceux qui ont relevé la puissance de ces édifices et ont mérité la récompense que ces actes comportent. Mais tant que ces Mosquées seront délaissées et abandonnées, leur plainte s'élèvera vers (Allâh) leur Maître.

On a rapporté qu'une certaine Mosquée avait élevé au Ciel sa voix auprès d'Allâh, pour se plaindre de ses clients dont les actes étaient uniquement dictés par les préoccupations de ce

---

(1) Cette phrase est une partie du ḥadīṯ : إنّما الاعمال بالنيّة وإنّما لكلّ امرئ ما نوى « Les actions ne valent que par les intentions ; à chacun appartient (le profit) de ses intentions. »

(2) Cette phrase est une imitation de *Qorân* (II, 119).

dans mon estime. Et qui donc êtes-vous (leur dirais-je) pour avoir un serviteur à vous ? (1).

En ce qui concerne Moudrik dont il est question dans les vers précédents, c'est lui qui a composé une « qaṣida » bien connue, sur le mètre radjaz, à propos de 'Amr ben Yoûḥanna, le Chrétien. Et si je ne m'étais imposé de voiler les choses secrètes et de taire les mauvaises actions, j'aurais pu expliquer l'aventure de ces deux personnages. Qu'Allâh nous préserve des troubles et des erreurs.

Voici du moins (un extrait) des paroles de Moudrik sur le mètre radjaz :

De la part d'un amoureux séparé (de l'objet de son amour) mais dont la flamme est présente, d'un (amant) dont les larmes parlent et dont la voix se tait.

Lié par le cœur, mais libre quant à son corps, puni par l'éloignement (de l'objet de son amour) et par son exil,

Sans que ses mains aient commis une faute, autre que dans l'amour que répètent ses yeux,

Par le désir brûlant de voir celui qui le rend malheureux. Il est comme s'il avait reçu le pardon de celui qui l'a affaibli.

Ah ! plût à Dieu que je sois pour lui (pour 'Amr ben Yoûḥanna) une ceinture dont il se ceindrait la taille partout où il serait !

Cette Mosquée bénie (d'El-Qarouiyîn) s'est plaint à certains moments de son abandon ; et pourtant ceux qui l'ont fondée, qui l'ont agrandie, qui l'ont ordonnée et lui ont assigné des revenus de biens habous, qui l'ont faite considérable, qui en ont écarté le mal, qui lui ont assigné ses limites ont fait tout

(1) Ces 6 vers et toute la pièce précédente figurent dans la *Djadwat*, p. 47-49 ; il remplace la suite par ces seuls mots : « Quand à l'histoire de 'Amr ben Yoûḥanna avec Moudrik, Ibn Abou Ḥadjla l'a racontée dans son « Diwân » de l'amour, où l'on peut se reporter.

que ceci soit loin de vous — et par cet exemple nous tenons les voies de l'interdiction.

Cet exemple doit passer en maxime ; mais gardez-vous de le suivre et d'imiter la conduite de celui-là jusqu'à ce que vous prenne le tombeau.

Que d'hommes de grande valeur ont perdu leur prestige et leur haut rang dans la fréquentation des éphèbes.

Si vous acceptez mon conseil, je vous le donnerai ; je me le suis déjà donné à moi-même et n'ai point passé outre.

(C'est l'avis de) Celui qui a voulu donner un conseil dans une connaissance qu'il a acquise par la pureté de son humilité devant Allâh, humilité qui crée la bonne direction.

L'Imâm Ech-Châtîbi a dit lui aussi une pièce de vers dont voici le commencement : *Eṭ-Ṭawîl*

Recevez la poésie que je (vous offre) et examinez-en le sens caché ; elle ne redoute pour ses fautes, ni (la critique de) Omar, ni (celle de) Zaïd.

Je suis un serviteur des hommes de science et de religion certes, et vous (pouvez) témoigner que je suis bien le serviteur de tous ces hommes-là.

Ils sont mon soutien, car Allâh m'a fait profiter d'eux ; la bonne nouvelle envoyée par Allâh (dans le Qoran) et le succès m'enveloppent.

Quant au bas peuple de tous ceux qui ont de (fausses) prétentions (à la science et à la religion), il n'y a (nulle place) pour eux auprès de moi, il n'y en a pas eu et il n'y en aura jamais.

Il n'y a pas non plus pour leurs actes de honteux espoir que leur registre (divin des bonnes œuvres) (1) soit noirci par (l'énumération de) ces actes.

Ces gens-là sont comme ils (vous) l'on dit, comme ils sont

(1) Selon la croyance musulmane deux anges écrivains (*kâtib*) accompagnent chaque humain et notent tous ses faits et gestes, l'un prenant les bons, l'autre les mauvais. Chacun de ces deux registres devant servir à l'établissement du bilan du bien et du mal faits par l'homme.

de ceux des gens du Livre d'Allâh, de ceux que le (noble) effort a consumés ;

Ils sont réputés pour avoir jeûné les jours et pour avoir eu la veille (pieuse) pour compagne nocturne.

Mais avec eux leur temps est révolu, et l'on pleure leur disparition. O malheur ! voici que la (douleur) de leur perte est en moi !

Les belles œuvres des Bons sont passées — respectez leur puissance ! ils ont été remplacés par des gens sans valeur qui ont causé de (dangereuses) innovations.

Ceux-ci n'ont point l'intelligence (voulue) pour réfléchir sur le sens métaphorique du Livre d'Allâh et pourtant ils le doivent prendre pour guide

Toutes les sciences de l'humanité n'émanent-elles pas de Lui et tous les devoirs envers Allâh n'ont-ils pas en lui leur source ?

N'est-ce pas par Lui que se manifestent les ordres et les défenses que nous devons suivre ? Mais là-dessus l'œil de l'ignorance s'est fermé.

Dans ce Livre sont interdites toutes les actions viles ; qu'elles se manifestent ou se dissimulent, leur sanction est pareille.

Nous avons reçu des commandements (notamment dans la Sourate) « El-Ikhlâs » et le blâme des hypocrites grâce au (Qoran) est exposé.

En ce qui concerne la fréquentation des éphèbes (le Qoran) y fait des reproches non déguisés ; la louange ne saurait aller à qui s'y adonne ;

Celui qui les fréquente — ne fut-ce qu'un instant — renie sa religion, car les démons des éphèbes sont légion.

Les enfants ne (doivent) fréquenter (en fait d'école) que l'école (qoranique) et pour eux nul autre lieu ne saurait convenir.

'Amr ben Yoûhanna et Moudrik (1) *en sont un exemple —*

(1) L'auteur lui-même nous explique plus loin ce que sont ces deux personnages : Moudrik et 'Amr.

Une foule s'y précipite pour y étudier ; mais nulle science ne s'y manifeste ou ne s'y rencontre pour les auditeurs,

Autre que des chants qui étonnent et d'étranges mélodies pour ceux qui viennent en ces lieux ;

Certain individu, les jeudis et les vendredis, réunit (autour de lui) une foule qui ne se peut dénombrer.

Or le sage (Imâm) Mâlek a souligné l'interdiction de semblables pratiques ; il a déclaré que l'on devait chasser de la Mosquée ceux qui s'y livraient.

Cependant l'un de ceux-là s'y rencontre avec un de ses élèves, jeune homme de beau visage et dont la voix est un piège d'amour.

C'est comme les piqûres des abeilles qui remplissent de poison : ce qui est caché donne la mort et ce qui apparaît est un rayon de miel.

Ce (jeune disciple) s'assied, tantôt accolé au maître, tantôt en face de lui, et chante en se montrant à la foule.

La place (de faveur) qu'occupe l'élève, à proximité du maître, le grandit alors que c'est (au contraire) un éloignement d'Allâh — que son nom soit glorifié !

Un groupe (des assistants) vient ensuite, récitant des oraisons pieuses d'une telle voix que les cœurs se tendent

Et (l'éphèbe) répond — et la foule des auditeurs est immense — tantôt d'une voix aiguë et tantôt avec douceur. Il en est ainsi du commencement à la fin (de la séance).

Et le Livre d'Allâh est magnifié sous la forme d'un chant, de la musique charmeuse des voix qui provoquent l'amour...

Or ceci, par Allâh ! est la plus grande des impiétés et répond à une interdiction formelle, à une prohibition.

La malédiction va à l'auteur (d'un tel scandale) ainsi que la (plus) sévère réprobation et la menace du châtiment au Jour de la Résurrection, non point la promesse de récompense (éternelle).

Telles ne furent point les qualités des hommes d'autrefois,

l'enfant qui étudiait sous la direction de cet individu, n'était pas de ceux qui recherchent l'étude et que sa fréquentation des leçons n'était point comme celle des étudiants, elles ordonnèrent le maintien en fait de ce lecteur (1) moyennant le secours matériel et les autres avantages attribués à ceux qui fréquentent la Mosquée le jeudi ou les autres jours, pour y réciter le Qorân. Le cheikh, le maître, le professeur Abou-l-Ḥasan ben Seba' — qu'Allâh le Très Haut lui soit Miséricordieux — a composé sur ces faits une qaṣîda qui fut lue devant le cheikh Abou Fâris précité et qui fut la cause de l'activité que mit ce qâḍi à maintenir (en fonction) ce lecteur de Qorân ; voici cette poésie :

Basît

N'ajouterez-vous donc point foi à des paroles qui s'efforcent (de ramener ceux à qui elles s'adressent) dans la voie des hommes de justice, (à des paroles que) favorisent la (bonne) intention ?

Je parlerai en homme renseigné, non en aveugle, de l'un de ceux que des témoignages ont qualifié....

Les hommes de science ont perdu dans leur enseignement leurs (anciennes) qualités, et de ces hommes il n'en reste plus guère que la trace.

(Il n'y a plus aujourd'hui que) hypocrisie, fatuité, orgueil et (fausse) gloire, ainsi que la réputation de celui qui attend de la faveur sa renommée !

N'as-tu point vu Fès de l'Occident ? — glorifie sa puissance ! — La Grande Mosquée qui s'y trouve (mérite) d'être comptée,

Pour le profit du culte, pour le bien-être du pays. Les serviteurs d'Allâh en foule fréquentent cette mosquée...

En ce temple, point d'innovation (mauvaise), point d'action blâmable ; quand s'ouvrent ses portes elles sont envahies (par les fidèles).

---

(1) Le sens de ce passage est peu clair. Il semble que notre texte soit incomplet ou mal rendu. Il manque dans la *Djadwat* (p. 47).

(Le Prophète — qu'Allâh lui accorde Ses Grâces et le Salut — a dit : « La « qibla » est ce qui se trouve entre le point où le soleil se lève et celui où il se couche ».

(Le souverain) — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — approuva entièrement cette manière de voir et cette Mosquée bénie fut ainsi affranchie d'innovation mauvaise et il ne fut pas pris de position oblique (par rapport à la direction du miḥrâb pour prier) dans cette Mosquée, comme cela se fit [1] dans certaines autres Mosquées et (nous) apparaît comme une (dangereuse) innovation. Puisse Allâh inspirer celui qui fera abandonner cette orientation (oblique) pour la qibla, lorsque cela se fera [2] !

Il advint qu'au début de l'an 749 (avril 1348) [3], un certain lecteur (*moudjawwid*) de Qorân groupait (à la Mosquée) autour de lui de tout jeunes enfants pour la récitation qoranique. Alors des gens se joignirent à lui et cela produisit du désordre. L'affaire fut soumise au cheikh, le pieux faqîh, le professeur Abou Fâris 'Abd El-'Azîz ben Moḥammed El-Qâri — qu'Allâh, le Très Haut, lui fasse Miséricorde — qui en référa à l'autorité administrative pour qu'elle s'efforce de modifier cette situation et de l'empêcher complètement. Ces réunions furent interdites et les gens se dispersèrent. Les autorités ayant constaté que

---

l'Islâm ; il peut d'ailleurs, s'il est assez instruit pour cela, discuter avec les docteurs et au même titre que l'un quelconque d'entre eux, sur l'interprétation à donner à la loi. Quant à l'opinion donnée ici par les docteurs elle est très naturelle à des gens qui ont horreur de la moindre modification et de la plus petite responsabilité. En ce qui concerne l'imprécision de la qibla d'après cette décision elle est bien dans le tempérament, dans la mentalité des Berbero-Arabes de ce pays.

(1) Comme cela se fait encore dans d'autres Mosquées de Fès et à Tlemcen, où la plupart des Mosquées sont mal orientées.

(2) Tous ces détails sur la Médersa Ya'qoûbiya et sur la qibla manquent dans *Djadwat* et dans le *Qirṭâs*.

(3) Cette date correspond à celle de l'expédition du sultan mérinide Abou-L-Ḥasan en Ifriqiya ; il avait quitté Fès le dernier mois de 747 (fin mars 1347) et avait confié l'administration du royaume à son fils Abou 'Inân, gouverneur de Tlemcen, qui, dès les revers de son père en Ifriqiya (749), se fit proclamer sultan et entra en lutte contre son père.

quelqu'un de ces gens dont on n'a pas à tenir compte de l'opinion en pareille matière, déclara que dans certaines Mosquées de Fès l'orientation (de la qibla) n'était pas la même que celle d'autres oratoires[1]. (Le souverain) — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — eut l'idée de réunir les docteurs réputés de l'époque pour qu'ils examinent la question ; ceux-ci déclarèrent, dit-on : « La *qibla* » de la Mosquée d'El-Qarouiyîn a été orientée dans l'azimut de celle qu'avait orientée l'homme pieux que fut Notre-Seigneur Idrîs fils d'Idrîs ben 'Abdallâh ben Ḥasan ben Ḥasan ben 'Ali ben Abi Tâleb — qu'Allâh en soit satisfait.

Depuis des siècles, des générations de docteurs, d'hommes pieux, de qâdis, de princes vertueux, tous gens dont on suit les conseils et dont on imite les actes, Musulmans dont il n'est permis à personne de penser autre chose que du bien. Or ces Musulmans n'ont rien changé à (l'orientation de la « qibla' »), ne l'ont point modifiée. De plus ce que l'on observe dans certaines oratoires quant à la déviation de l'orientation, par rapport à certains autres, est insignifiant et (toutes ces orientations) sont très proches de l'orientation vraie, selon l'opinion de ceux qui considèrent la « qibla » des divers pays comme la direction de La Mekke — qu'Allâh l'ennoblisse ! Or cette direction est obtenue (par l'orientation de nos oratoires). Telle est l'opinion qui doit prévaloir, ou sinon comment pourrait-on déterminer l'azimut, c'est-à-dire l'azimut du Temple (de La Mekke) ? Ce qui (est admis) le plus généralement par les Musulmans, dans les pays éloignés de La Mekke — qu'Allâh l'ennoblisse — c'est la recherche de la direction du Temple (de La Mekke), non son azimut[2].

---

(1) J'ai relevé à la boussole l'orientation des miḥrâb des Médersas mérinides de Fès et ai donné cette orientation dans l'étude que j'ai faite de ces monuments (voir mes *Inscriptions*), en indiquant que cette orientation est partout erronée. Il en est de même des mosquées de Tlemcen.

(2) On voit par ce récit que le souverain en matière de religion, ne prend pas une décision lui-même, mais s'abrite toujours derrière l'opinion des docteurs, ce qui est conforme au rôle du chef de la communauté dans

soleil ; puis ils s'en allaient. Cet Imâm engagea le lecteur, dont on vient de parler, à se mettre en avant du groupe (de fidèles, voisin) du miḥrâb à ce moment-là et d'y faire en détail la lecture de ces livres en vue de l'enseignement des auditeurs. Alors se réunirent autour de lui tous ceux qui se trouvaient assis là et le public profita beaucoup de cet enseignement. Il arrivait parfois que la réunion comptait un millier de personnes.

Ces faits se passait en 651 (1253-1254). L'Imâm en avisa le Khalife de l'époque[1] qui en fut satisfait et alloua au lecteur un salaire. Cet usage fut conservé jusqu'à nos jours.

Quant à la détermination de la « qibla », d'après ce que l'on raconte, l'Émir des Musulmans, le Soldat de la Guerre dans la voie du Maître des Mondes, Abou Yoûsof ben 'Abd El-Ḥaqq — qu'Allâh le Très Haut lui soit Miséricordieux — lorsqu'il ordonna de construire la Médersa Ya'qoûbiya qui se trouve au sud de la Mosquée d'El-Qarouiyîn, en l'an 670/1271-1272[2] (voici ce qui se passa) : celui qui fut chargé seul de fixer la qibla (de la salle de prière dans cette Médersa) fut le « Mou'addil » Abou 'Abdallâh Moḥammed ben El-Ḥabbâk[3] et nul ne lui fut adjoint parmi les personnes versées dans la science astronomique ; or il apparut que l'orientation de la « qibla » dans cette Médersa différait de celle de la Mosquée d'El-Qarouiyîn. L'affaire parvint aux oreilles de notre Maître l'Émir des Musulmans Abou Yoûsof (Ya'qoûb). D'autre part, en présence du roi,

---

(1) Le Khalife régnant à Marrâkech était en 650 l'almohade El Mourtaḍa. La ville de Marrâkech ne fut prise qu'en 668. Mais le Mérinide Abou Yahya ben 'Abd el-Ḥaqq était maître de Fès dès le commencement de 646/1248. Cet Emir mérinide mourut à Fès en radjab 656 (juillet 1258). Ce fut donc lui et non le khalife (?) qui encouragea l'enseignement dont il est ici question. Le passage est cité par *Djadwat* (p. 47) mais la date donnée ici y manque.

(2) C'est le seul texte d'une connaissance donnant la date précise de la fondation de cette Médersa (voir mes *Inscriptions*, p. 94). L'auteur anonyme de la *Aḍ-Ḍaḫîrat as-Saniyya* (éd. Ben Cheneb, Alger, 1921, p. 188) relate la fondation de cette Médersa, mais sans en donner le nom, ni la date précise.

(3) Voir ci-devant, p. 91.

Le nombre des Muezzins et des employés (de la Mosquée) est ordinairement de quarante (ils sont payés sur) des revenus qui varient selon les années.

La récitation du « *ḥizb* » (qoranique) dans cette Mosquée se fait après la prière du Ṣobḥ et celle du Maghrib [1]. Cet usage a été introduit par Yousof ben 'Abd El-Moûmen ben 'Ali (l'Almohade) dans toute l'étendue de son royaume, au dire de Ibn Saḥib Eṣ-Ṣalat [2]. Des fidèles auraient été conviés à faire cette récitation et l'usage dura de la sorte jusqu'au règne de notre Maître l'Emir des Musulmans Abou-l-Ḥasan (le Mérinide) —. qu'Allâh lui soit Miséricordieux. Ce souverain établit une indemnité pour dix lecteurs de Qorân ; et cela pour toutes les Mosquées de son royaume.

En ce qui concerne la lecture de livres dans cette Mosquée, pour l'édification des fidèles, après l'achèvement de la récitation du « *ḥizb* » dû matin (voici ce que l'on raconte) :

Au début du Gouvernement Mérinide — qu'Allâh le fortifie — un certain Imâm avait un auditoire nombreux qui, le matin, étudiait sous sa direction l'exégèse qoranique (dans le *Tefsîr El-Qourân*) d'Et-Ta'âlibi — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — et les vertus des Saints..... Cet enseignement se donnait dans une partie particulière de la Mosquée.

Le professeur avait avec lui un lecteur distingué, excellent pour ces leçons. Un certain nombre de fidèles assistaient à ces conférences, mais ils s'asseyaient à l'écart par groupes qui, bien souvent, s'occupaient d'affaires profanes jusqu'au lever du

---

et que certains confondent avec Elie, se retrouve dans mainte légende maghribine. Voir K. Vollers, sur la légende de Khidr, *Archiv. für Religionswissenschaft 1909*.

(1) C'est encore après les deux prières, et de préférence après celle du Maghreb, c'est à dire à la fin et au début de la nuit que l'on récite dans les Mosquées un « ḥizb » de Qorân.

Ce dernier passage figure dans la *Djadwat*, p. 47.

(2) Né à Palma, mort à Valence en 578 (cf. Boigues, p. 407). Il vivait à l'époque de l'Almohade Yoûsof ben 'Abd El-Moûmen qui régna de 558/1163 à 580/1184.

Lorsque ce dernier se rendit (auprès du souverain), comme il passait auprès du cimetière où est enterré l'Imâm, le ḥâfiḍ Abou Bakr ben El-'Arabi [1] — qu'Allâh en soit satisfait — un pauvre en sortait qui interpella Ibn Abi Ṣabr lui disant : « Dis : (je jure) par la vérité de Ta Bonté (ô mon Dieu !), par la mansuétude de Tes Actes et par la beauté de Ta Protection que je me place sous Ton égide et que je recherche l'intercession de Ton Prophète ! »

(Le qâḍi) mit ces paroles dans sa mémoire, entra auprès du Khalife et les lui répéta. Le Khalife le fit asseoir auprès de lui et lui témoigna de la considération et de l'intérêt, puis il le questionna sur la raison des ordres qu'il avait donnés à El-Ḥoudoûdi au sujet de ce fondaq.

— « Je lui ai donné cet ordre, s'écria le qâḍi, parce que ma pensée était dominée par cette idée que tu constituerais en ḥabous cet immeuble, au profit de la Mosquée d'El-Qarouiyîn ».

Le roi trouva cette réponse heureuse, félicita le qâḍi et lui fit donner sur-le-champ l'acte de ḥabous.

Ceci est rapporté d'après Abou 'Abdallâh Ibn Abi Zar' [2] et d'autres (auteurs).

Quant aux paroles du qâḍi par lesquelles il avait invoqué (Dieu) et à cause desquelles le fondaq fut constitué en ḥabous, elles sont devenues pour les Musulmans un vrai trésor et une utile protection ; c'est par elles qu'ils implorent Dieu lorsqu'ils en éprouvent le besoin et l'étonnant effet de ces paroles s'est manifesté pour la plupart des gens dans leurs demandes. On raconte que l'homme qui avait enseigné (au qâḍi) ces paroles, n'est autre que Notre-Seigneur El-Khiḍr [3] sur lui soit le salut.

---

(1) Ce célèbre mystique est enterré à Fès dans le cimetière qui porte son nom encore aujourd'hui, entre Fès-l'Ancienne et Fès-la-Nouvelle. Son mausolée est indiqué de très loin par un haut palmier planté là.

(2) C'est en vain que j'ai cherché ces renseignements dans le *Qirṭâs* d'Ibn Abi Zar', soit dans les éditions de Fès, soit dans les quelques manuscrits que j'ai pu consulter.

(3) Ce personnage mythique dont les Musulmans ont fait un Prophète

Le produit des ḥabous (de cette Mosquée) dans leur variété, en certaines années est de dix mille (dinârs) d'argent.

Du nombre des (immeubles) ḥabous sont : le grand fondaq bien connu qui se trouve au souk des Chemmâ'în, établi en ḥabous par notre maître, l'Émir des Musulmans Abou Ya'qoûb — qu'Allâh le Très Haut lui soit Miséricordieux ! La raison pour laquelle il fut affecté en ḥabous est qu'il faisait partie de ce qui revenait aux Khalifes et avait été laissé à l'abandon [1].

Or, au temps du Gouvernement de Abou 'Abdallâh El-Ḥoudoûdi [2] à Fès, le qâdi Moḥammed ben Abi Ṣabr lui ordonna de le restaurer et de le réparer. (Le Gouverneur El-Ḥoudoûdi) traîna en longueur, désirant recevoir (pour ce travail) l'autorisation du Khalife. Le qâdi prit donc des témoins et (leur fit) constater que le Gouverneur (de Fès) ne l'avait point secondé dans ses intentions, alors que lui (qâdi) était seul responsable de cette décision. (C'est alors que) El-Ḥoudoûdi fit faire les travaux de restauration et mit ce fondaq dans l'état où il est aujourd'hui, sous la direction de Abou 'Abdallâh ben Abi Ṣabr, puis il en informa le Khalife Abou Ya'qoûb.

Le souverain interrogea El-Ḥoudoûdi à propos de ces travaux; celui-ci dégagea sa responsabilité et fit connaître au roi l'obligation dans laquelle l'avait mis Abou 'Abdallâh ben Abi Ṣabr. Le Khalife se mit en colère et donna l'ordre que (le qâdi) lui fût amené ; il lui envoya des émissaires de son entourage, un groupe après un autre, et éveilla par là les craintes (du qâdi).

---

(1) Ce fondaq existe encore et sert de marché pour la vente des fruits et raisins secs. Malgré qu'il soit très détérioré par le temps et le manque d'entretien, il offre encore de très belles sculptures (épigraphie et motifs floraux) sur des poutres et des linteaux de cèdre. Ceux qui relèveront un jour les belles inscriptions mérinides sur cèdre de ce fondaq apprendront bien peu l'histoire de cet immeuble par ce que dit ici l'auteur que nous traduisons. Ces renseignements sont cependant d'autant plus précieux que l'on ne trouve rien d'autre sur ce fondaq, ni dans le *Qirṭâs* ni dans la *Djadwat*, ni chez les chroniqueurs anciens qui ont parlé de cette époque.

(2) Il s'agit évidemment ici du même personnage qui est appelé ci-devant (p. 143) Abou-l-Ḥasan 'Ali ben Moḥammed El-Ḥoudoûdi.

On prétend que ces lustres ont deux mille supports de lampe. Quelques-unes de ces lampes brûlent toutes les nuits. On en allume un plus grand nombre pendant les nuits de ramaḍân ; elles sont toutes allumées la vingt-septième nuit du ramaḍân [1].

Le nombre des lampes de verre qui brûlent toutes les nuits dans cette Mosquée est de soixante-dix. Parmi celles-ci cinquante sont « *'Ariqât* », et le reste « *ṭâṭilât* » et « *baldiyât* » [2].

On mit, en dehors de la Mosquée, autour de son « ḥorm » [3], en des endroits connus, quarante lampes pour diriger les passants dans les ruelles.

Tous ces travaux (d'éclairage) furent parfaitement préparés et exécutés avec habileté ; (le souverain) y affecta des revenus sur des ḥabous de la Mosquée.

Il convient que le nombre des lampes soit augmenté et que leurs mèches soient plus fortes lorsque les revenus qui y sont affectés s'accroîtront. L'éclat de ces lampes est en effet une heureuse compagnie pour les fidèles ; il éloigne (leurs craintes) dans les passages peu sûrs.

---

(1) Voir à ce propos, ci-devant, p. 131 et note 6.

Cette 27e nuit de ramaḍân passe pour être la *laïlat el-qadr* du *Qorân* ; aussi est-elle fêtée dans toutes les Mosquées du Maghrib, qui sont bien éclairées cette nuit là. A Fès les Mosquées sont livrées cette nuit-là à la foule des enfants qui y mangent des noix et des fruits secs. A Tlemcen la nuit du 27 ramaḍân est employée à la récitation du Qorân tout entier, qui doit être achevée avant la prière du matin. La légende populaire tlemcénienne dit que cette nuit-là les *djinn* ou « démons » qui étaient enchaînés tous par les anges depuis la 27e nuit du mois de cha'bân, sont remis en liberté, et chaque individu, chaque maison se protège de leurs atteintes durant cette nuit en brûlant des parfums en leur honneur (les sept parfums : *seb'a bkhoûr*).

(2) Ni les dictionnaires, ni les indications que j'ai cherchées auprès des Musulmans de ce pays et de Fès, n'ont pu me renseigner sur la nature des lampes désignées par ces qualifications.

(3) Le « ḥorm » est le territoire « sacré » qui entoure un lieu de prière ou de pèlerinage. Son étendue est très variable selon les monuments. Avant l'occupation française du Maroc, certains « ḥorm » comme celui du mausolée de Moulay Idrîs à Fès ou au Zerhoun étaient interdits aux profanes comme l'entrée des édifices eux-mêmes.

deux « *ḥâsira* »[1]. La surface totale de la Mosquée est de treize « *mardja'* » trois quart comptée en *mardja'* de Sidjilmâsa[2].

Pour remplir la Mosquée il faut treize mille personnes, à condition qu'il y ait dans chaque nef 765 personnes ou bien encore que dans chaque nef il y ait quatre rangs de fidèles, à raison de 160 par rang et, sous les arcs des travées, cent cinquante personnes, après avoir retranché l'emplacement des colonnes elle-mêmes[3].

Le nombre des lustres dans lesquels on allume des lampes est de cent trente, tous en bronze, variables de couleur et de façon, de type et de forme. Il y en a dix suspe dus dans la nef centrale.

Dans le nombre de ces lustres, il faut compter les dix cloches coulées en bronze ; le reste est composé de lustres, au nombre de cent vingt par conséquent, suspendus dans la Mosquée[4].

---

(1) La « ḥâsira » est la partie de la Mosquée réservée aux femmes pour la prière du vendredi. Il y en a deux à Qarouiyîn. Mais on les nomme aujourd'hui « *mestouda'* ».

(2) Le *mardja'* indique encore le « sillon » du laboureur C'est une mesure agraire (cf. Dozy) ; mais elle devait varier d'un pays à un autre, d'une ville à une autre. J'ignore la valeur du *mardja'* de Sidjilmâsa.

(3) Ces indications manquent dans la *Djadwat ;* quant aux renseignements donnés à ce sujet par le *Qirṭâs* (p. 43) ils sont un peu différents de ceux-ci : « Chaque nef peut contenir quatre rangées de fidèles, à raison de 210 par rangée ; dans chaque travée il y a onze arcades, sous chacune desquelles se placent 10 personnes ; c'est donc 840 hommes par nef au total. Comme il y a seize nefs, l'ensemble contient 13 440 personnes, sans aucun doute possible. Si l'on suppute (l'emplacement) de deux cents colonnes, on trouve que la contenance de l'emplacement est de 2.700 hommes (?). Quant à l'atrium il peut y prier des rangées de fidèles dont l'ensemble peut faire 1.500. Autour de la Mosquée sont des places et des souks dans lesquels prient, le vendredi, les fidèles au nombre de 4,500, ce qui fait au total pour le vendredi, 22.140 fidèles environ plus l'Imâm qui prie seul (en avant). Et cela est pour les années d'abondance et de fort peuplement de Fès »

(4) Ces détails sur les lustres de la Mosquée d'El-Qarouiyîne ne figurent dans aucun autre texte à ma connaissance. Cependant l'auteur du *Qirṭâs* (p. 44) après avoir décrit le grand lustre donne quelques indications sur les lampes de la Mosquée.

Le nombre des colonnes supportant les nefs est de trois cents [1] ; de ce nombre, il en est dix en pierre d'extraordinaire couleur. Ce groupe de dix colonnes est entouré de trente-deux autres colonnes. Par une étonnante disposition de ces dix colonnes, les trois qui sont à la droite de celui qui se tient sous le grand lustre et regarde le sud (sont placées de telle façon) qu'en tournant autour d'elles on voit toutes les portes intérieures de la Mosquée [2].

La longueur de la Mosquée de l'est à l'ouest est de trois cent quatre-vingts empans. Du Miqdam El-Qibla à (la face) nord il y a trois cents empans en retranchant la largeur du Miqdam précité [3].

Le nombre des « balâṭ » [4] est de vingt et une d'est en ouest, de dix-sept du sud au nord, y compris la grande cour centrale (atrium) dont la longueur d'est en ouest est de cent quatre-vingt-treize empans et la largeur du sud au nord de soixante-quinze empans.

Le nombre des nefs (latérales) couvertes est de onze, plus

---

dans *Djadwat*. On pourra se rendre compte de la disposition de ces diverses portes, dans le « Plan approximatif de la grande Mosquée cathédrale El-Qarouiyine » donné par P. Ricard dans *France-Maroc*, n° du 15 mars 1918, p. 81.

(1) *Djadwat* (p. 46) donne ce passage relatif aux colonnes, mais les renseignements qui suivent ici sont tronqués dans la *Djadwat*. L'auteur du *Qirṭâs* donne des renseignements un peu différents au sujet de ces colonnes (272) et de leur disposition (cf. éd., p. 43).

(2) Ce renseignement n'est fourni que par l'auteur de la *Djadwat*. En attendant que l'on ait un plan exact de cette Mosquée, nous ne pouvons renvoyer qu'au plan approximatif de M. Ricard, cité déjà ci-devant. Il ne concorde pas avec les indications données ici, ni avec celles du *Qirṭâs* à propos des colonnes, piliers et nefs.

(3) On a dit ci-devant que la largeur de ce Miqdam était d'environ 2m50.

(4) Le mot « balâṭ » est employé par les auteurs maghribins, tantôt avec le sens de « nef » [par ex. *Qirṭâs* (éd., p. 43) dit : وعدد السقوف منها ستة عشر بلاطا], tantôt dans le sens de « travée ». (Cpr. Dozy, *Supp. aux Dict.*, s. v.). Le plan Ricard, cité ci-devant, donne également vingt et une nefs pour la salle principale de prière. Le *Qirṭâs* n'en donne que seize et fait de cette salle un carré.

du nom du charpentier qui l'a faite, dit-on, à l'époque d'Abou Mohammed Yachkor[1]; 14° La porte donnant sur la rue dite Derb Ibn Ḥayyoûn ; 15° La porte faisant face à la Maison de la Vasque qui fait partie des biens ḥabous de la Mosquée ; 16° La porte aux degrés, voisine du Derb es-Seba' Lowiyât[2], et qui touche à la chapelle des lecteurs de Qoran.

Au sud on a : 17° La porte aux degrés indiquée (ci-devant) comme ayant été construite par El-Ḥoudoûdi et qui est actuellement fermée ; 18° La petite porte réservée à l'entrée de la Raïqa d'Ibn El-Qardîs....[3] pour ceux d'entre les notables qui veulent entrer discrètement, venant là pour des procès, des prestations de serment ou d'autres motifs.

Entre le local du Conseil des Qâdis, la petite cour et la chapelle voisine du Miqdam El-Qibla[4], il y a deux portes. Entre la partie antérieure (sud) de l'atrium, les deux maisons précitées et le sud de la Mosquée, il y a cinq portes : celle par laquelle entrent les Khalifes venant assister à la prière du vendredi, à la gauche du Miḥrâb ; la porte du Minbar (à droite) ; les trois (autres) sont des passages dont les battants se replient quand on les ouvre ; elles sont d'un travail solide et d'un art étonnant : la première de ces trois portes, voisine du Minbar, sert de passage au Khaṭîb le vendredi et c'est par là qu'il entre pour prier avec le Khalife. C'est aussi par cette porte que l'on accède au local réservé aux funérailles[5].

---

(1) Personnage qui a été mentionné souvent ci-devant.

(2) Cette rue existe encore sous ce nom à Fès.

(3) Il manque ici un certain nombre de mots dans le texte arabe. Le copiste du manuscrit a ajouté en marge une note dont voici la traduction : « Par Raïqat Ibn El-Qardîs il faut entendre les maisons en ruines, aujourd'hui occupées par les (boutiques des) brodeurs. (Ces boutiques) font partie des ḥabous du Moristân (des souks voisins de Qarouiyin) qui appartenaient primitivement à El-Qardîs ».

(4) On nomme ainsi à Qarouiyine l'espèce de trottoir qui se trouve entre la cour de la Mosquée et la salle de prière ; il a environ 2m50 de largeur.

(5) Tous ces renseignements sur les portes de la Mosquée, manquent

assister à la prière du vendredi ; cette porte est connue sous le nom de *Bâb El-Qaṭṭa'în* ; 4° *Bâb El-Aoûliya* « la porte des amis » dont le nom lui vient de l'abondance des fidèles qui entrent par là ; 5° *Bâb El-Koutoubiyîn* « porte des libraires » [1] ; 6° *Bâb Ech-Chemmâ'în* « la porte des vendeurs de cire » dont la largeur est de seize empans et la hauteur de vingt-quatre [2] ; 7° *Bâb El-Mouaṭṭaqîn* « la porte des notaires », donnant sur la Tarbi'at (place) Ez-Zâqîn, et dont la largeur et la hauteur sont identiques à celles de la porte précédente.

Au nord on trouve : 8° *Bâb El-Ḥoufât* « la porte de ceux qui entrent nu-pieds », en face de l'ancien bâtiment des ablutions ; 9° La porte (plaquée) de bronze, dite *Bâb El-'Omyân* (la porte des Aveugles) à cause des longues stations qu'y faisaient (les aveugles) s'y tenant debout pour (solliciter) les passants ; 10° *Bâb bît En-Nisâ El-Aṣfar*, « la porte jaune de la salle des femmes » ouvrant sur la partie nord de l'atrium ; 11° *Bâb El-Khaṣṣa* « la porte de la vasque » ouverte en face de la Medersat-Er-Rokkam [3] ; 12° *Bâb En-Nisâ* « la porte des femmes » qui se trouve au-dessous de la rue couverte séparant la Mosquée du Dâr.... [4].

A l'est il y a : 13° La porte située en face d'une partie du fandaq Ben Mimoûn et connue sous le nom de *Bâb Ibn 'Omar*,

---

(1) C'est encore vers cette porte que se tiennent les marchands de livres arabes et de manuscrits ; c'est aussi dans ces parages que les crieurs publics promènent les manuscrits qu'on leur donne à vendre. Cette porte se trouve à l'angle des rues des Sbitriyîn et du Smâṭ des Notaires.

(2) Sur la construction de cette porte en 518 ou 528 voir ci-devant (p. 121) des détails et les références indiquées en note.

(3) C'est la Médersa Me-bâḥiya, dont j'ai donné la description dans mes *Inscriptions* (p. 229 à 255).

(4) Le nom de cette maison manque dans le manuscrit. L'auteur du *Qirṭâs* (éd., p. 44) distingue les grandes portes, au nombre de quinze, pour l'entrée des hommes, et les petites portes, au nombre de deux, pour l'entrée des femmes. Il indique que la plus récente de ces dix-sept portes était à son époque (725 de l'H.) la porte aux degrés qui est restée fermée et dont on a parlé ci-devant. Le texte de notre manuscrit offre ici une courte lacune.

La belle chapelle servant à la récitation du Qoran fut construite sur l'ordre de notre maître (Abou Sâlim) El-Mosta'în billâh — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — à l'est de cette Mosquée (d'El-Qarouiyîn)[1]; sa longueur est égale à celle de la rue voûtée (سـابـاط) qui se trouve là. (Le fondateur) y fit mettre sur les faces sud et nord des lambris à moulures et à peinture polychrome, tels qu'ils séduisent le passant. Pour cette chapelle il entretint des lecteurs psalmodiant le Qoran et s'appliquant à sa récitation tous les jours et en tout temps[2]. Il désigna des revenus mensuels que recevaient les lecteurs et au moyen desquels ils étaient entretenus.

Ce travail fut achevé dans les derniers jours du mois de ramaḍân 762 (commencement d'août 1361)[3].

Le nombre des portes, petites et grandes, de cette Mosquée est de dix-huit : du côté de l'ouest, il y a : 1° *Bâb Mejles El-Qoḍât* « du conseil des qâdi » (et servant à la chambre réservée) aux procès ; 2° La porte du *Meṣalla-l-Djanâyz* ou porte de l'oratoire pour la prière des funérailles[4]; 3° « La porte (plaquée) de bronze »[5] par laquelle entrent les Khalifes pour

(1) L'auteur moderne de la *Djadwat* (p. 46) qui donne ce passage, le fait précéder de ceci : « L'emplacement de la bibliothèque actuelle est à l'est de la Mosquée, c'est la chapelle.... ».

(2) Aux principales mosquées du Maghrib sont attachés des revenus de biens ḥabous servant à payer des lettrés chargés de la récitation d'un certain nombre de chapitres du Qoran à certaines heures de la journée. En Algérie ces lettrés sont nommés Ḥazzâb (qui récite le *ḥizb* ou la soixantième partie du Qoran).

(3) Abou Sâlim frère et 3e successeur d'Abou 'Inân, proclamé en cha'bân 760 (juillet 1359) fut tué en dou l-qa'da 762 (fin septembre 1361), c'est-à dire peu après l'achèvement de la chapelle.

(4) Sur le rôle de cette pièce dans laquelle on dépose les cadavres avant l'enterrement, durant certaines prières de la journée, on trouvera des indications à propos du *Jâma' Ighâyz* de la grande Mosquée de Fès-la-Nouvelle, dans mes *Inscriptions*, p. 30 et n. 1.

(5) Plusieurs portes de cette Mosquée avaient reçu un placage de bronze comme on l'a dit ci-devant ; l'une d'elles porte même sur le bronze une inscription et une date (531) qui nous reporte au règne d'*Abd el-Moûmen. Il est bien difficile de dire si c'est celle dont il est question ici qui portait cette date.

fonctionnaire chargé de tenir un registre pour le prêt des livres de cette bibliothèque, à la sortie et à la rentrée, afin de les conserver à leur place et d'en assurer la garde, lorsque les clients auraient fini de s'en servir. Ces dispositions (qui sont encore observées) ne seront point changées, ni modifiées jusqu'au jour où Allâh héritera de la Terre et de ce qu'elle renferme. Il est le meilleur des héritiers [1].

Le roi établit pour l'entretien de cette bibliothèque une large subvention et traita (cette fondation) avec égards et honneur [2].

Il fit sculpter le texte suivant sur (le linteau de l'entrée) de la salle : « Louange à Allâh ! La fondation de cette bibliothèque bénie a été ordonnée par notre Maître le Commandeur des Croyants [3], celui qui met sa confiance dans le Maître des Mondes, le serviteur d'Allâh, Fâris — qu'Allâh seconde son pouvoir et fortifie sa victoire ! A la date de chawwâl 750 (13 décembre 1349 à 10 janvier 1350) [4]. Qu'Allâh nous gratifie des bienfaits de cette année-là ».

---

(1) Toutes ces précautions pour éviter la perte de ces livres et leur disparition, ont été vaines et les ouvrages de la Mosquée d'El-Qarouiyîn ont été mis au pillage comme le dit l'un des principaux Uléma de Fès (voir ma préface au *Catalogue des livres d'El Qarouiyîne*, p. 5). Lorsque j'ai fait dresser, en 1915-1916 l'inventaire des livres de cette bibliothèque, il ne restait déjà plus que 1.542 manuscrits arabes en y comprenant les exemplaires du Qoran.

(2) Tout ce qui précède au sujet de cette bibliothèque manque dans *Djadwat* qui donne cependant l'inscription qui suit et la date de fondation.

(3) L'auteur de la *Djadwat* (p. 46), dit « Emir des Musulmans » et non « Commandeur des Croyants ». Ce dernier titre fut porté par Abou 'Inân comme l'on sait (cf. mes *Inscriptions*, p. 9, note 2 et *pass.*).

(4) Cette date nous reporte au début même du règne d'Abou 'Inân qui arracha violemment le pouvoir souverain à son père Abou-l-Ḥasan, contre qui il engagea la lutte ouverte de 749 à 750, après l'échec de l'expédition d'Abou-l-Ḥasan en Tunisie. Cette inscription est le premier monument écrit, que nous connaissons, indiquant une fondation d'Abou 'Inân. Il est intéressant de noter qu'il y porte déjà le titre d'Amîr El-Moûminîn.

L'inscription citée ici figure encore aujourd'hui sur la Bibliothèque d'El Qarouiyîn, et le texte que j'en ai fait relever par un musulman de mes amis est absolument identique, sans la moindre variante, à celui de ce livre. J'ai tenu à faire ce contrôle surtout à cause du titre de Commandeur des Croyants donné à Abou 'Inân.

thèque et des étudiants) en vue de la gloire (qu'il en retirerait) et dans l'espoir d'une récompense d'Allâh, le Parfait[1].

Il désigna ensuite un surveillant pour la ranger, présenter (au public) ce qui s'y trouvait et faciliter les recherches à qui le désirait. Il assigna à ce bibliothécaire pour ce service un traitement régulier pour l'honorer et récompenser son zèle. Cela eut lieu en djoumâda (premier) de l'an 750 (18 juillet-16 août 1349).

La Bibliothèque des Exemplaires (du Qoran) que fit construire notre Maître l'Émir des Musulmans Abou 'Inân — qu'Allâh, le Très Haut, lui accorde Sa Miséricorde — au sud de cette Mosquée, est une bibliothèque dotée de la parure du bien parfait. (Ce roi) réalisa, pour la beauté de cette bibliothèque, ce que aucun des Imâms de ces contrées n'avait fait avant lui (dans cet ordre de fondation).

(Ce fut Abou 'Inân) — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — qui en imagina le plan dans sa pensée pénétrante et claire ; puis il le soumit aux artisans qui devaient construire cette bibliothèque précieuse et grande. C'est ainsi que ce roi commença la série de ses fameuses et bonnes actions.

Grâce à cette bibliothèque, il a facilité aux fidèles la récitation du Qoran en tout moment ; il y a installé un nombre important d'exemplaires du Qoran d'une belle écriture, embellis d'enluminures, précieux et riches ; il en a facilité l'usage à ceux qui désiraient les lire après avoir tracé de sa main (la dédicace de habous) en guise de firman (devant subsister) durant la succession des années, des nuits et des jours. Puis il nomma un

---

1286 qui avaient été déposés dans la Médersa fondée par Ya'qoûb ben 'Abd El-Ḥaqq, arrière grand-père d'Abou 'Inân ; mais elle a été indignement pillée depuis cette époque par les Musulmans eux-mêmes. On trouvera des indications sur l'état actuel de cette Bibliothèque dans le *Catalogue des livres arabes de la Bibliothèque de la Mosquée d'El-Qarouiyîne*, que j'ai fait dresser et imprimer à Fès (Imp. municip., 1 vol., 1918).

(1) Les buts égoïstes de cette fondation sont identiques à ceux donnés par les Sultans pour d'autres fondations pieuses, comme celle des Médersas, ainsi que l'indiquent les inscriptions que j'ai relevées à Fès (cf. mes *Inscriptions*, *pass.*) et notamment pour Aboû 'Inân (p. 285).

dans laquelle la cloche fut suspendue au milieu de chawwâl 737 (vers le 18 mai 1337). Les dépenses ainsi occasionnées furent prélevées sur le produit des ḥabous, sous la surveillance du contrôleur Aḥmed ben Moḥammed ben El-Achqar Eṣ-Ṣanhâdji [1].

(Parlons maintenant) de la Bibliothèque dans laquelle on pénètre par la partie supérieure du Mostaoûda' (cave) qui y est jointe.

Il était dans les goûts d'Abou 'Inân — qu'Allâh lui fasse miséricorde — d'aimer la science et ses manifestations ; il avait le souci de s'en occuper et le désir de la répandre ; il accordait sa sollicitude aux gens d'étude et aux savants. Il se montra donc favorable à la construction de cette bibliothèque et voulut faciliter (le travail) aux étudiants en la dotant de livres [2] réunissant différentes branches du savoir, sur la religion, la médecine, le langage, la pensée, et d'autres sciences selon leurs diverses branches, groupes et catégories. Puis ce souverain déclara ces livres de fondation pieuse (au profit de cette biblio-

(1) Ce dernier paragraphe manque tout entier dans la *Djadwat*. Quant au personnage mentionné ici comme contrôleur des ḥabous, nous retrouvons son fils Abou-l-Ḥosaïn contrôleur des ḥabous sous le sultan Abou 'Inân, chargé à ce titre de la surveillance des travaux de construction de la Médersa Bou 'Anâniya (751-756), comme l'indique l'inscription de fondation (cf. *Inscriptions*, 287).

(2) Ce passage relatif à la Bibliothèque de la Mosquée d'El-Qarouiyîn est fort important, car on ne trouve dans aucun texte des indications aussi détaillées à ce sujet, même pas dans la copie tronquée qu'en donne la *Djadwat* (p. 46). Il semble assez qu'avant le règne d'Abou 'Inân cette Mosquée était bien pauvre en livres ; elle n'avait peut-être même pas de bibliothèque, car l'auteur du *Qirṭâs* qui donne de si abondants détails sur les diverses parties d'El-Qarouiyîn ne fait aucune mention d'une bibliothèque, ce qui ne s'expliquerait guère si elle avait existé à son époque, c'est à-dire sous le règne d'Abou Sa'îd, grand père d'Abou 'Inân. Il semblerait donc que les Mérinides qui ont fondé les Médersas et l'Université de Fès à l'imitation de l'Orient musulman (cf. mes *Inscriptions*, p. 88 et suiv.), ne dotèrent les étudiants et les maîtres d'une bibliothèque publique qu'à l'époque de la fondation de la dernière Médersa Mérinide, celle d'Abou 'Inân (751/1350-757/1356).

La bibliothèque de cette Mosquée semble s'être considérablement enrichie sous les successeurs d'Abou 'Inân. Elle dû même recevoir les treize charges de livres (cf. *Qirṭâs*, éd., p. 260) envoyées d'Espagne en 684/1285-

pour qu'elle y soit bien en vue; puis on mit sur les lames (horizontales et parallèles) des supports pour les veilleuses en verre servant à l'éclairage. A la base on fixa des semelles, au nombre de douze, sous chacune desquelles était enchâssé un morceau de cristal. Au milieu et partant des semelles était inscrit un polygone étoilé en forme de sceau.... Sous les baguettes de ce polygone se trouvaient des boules et dans l'intérieur de la cloche était tendue une sorte de ceinture (en faisant le tour). Tout cela était en cuivre jaune sculpté, d'un art remarquable [1]. Sur la ceinture (intérieure), on grava l'inscription suivante : « Louange à Dieu seul. L'ordre de suspendre cette cloche bénie a été donné par l'Émir des Musulmans, le soutien de la religion, Abou-l-Ḥasan, fils de l'Émir des Musulmans, le guerrier dans la voie du Maître des Mondes (Abou Sa'id, fils de l'Émir des Musulmans) [2] Abou Yoûsof Ya'qoûb ben Abd El-Ḥaqq, qu'Allâh protège leur règne qu'Il favorise leur époque et leur temps. C'est la cloche trouvée au Djebel El-Fatḥ — qu'Allâh la garde. Cette ville fut conquise grâce au Secours d'Allâh et à Son Aide, pour l'Émir des Musulmans Abou-l-Ḥasan — qu'Allâh l'assiste et lui donne la victoire — par son fils, le très heureux prince Abou Mâlek, alors que notre maître (Abou-l-Ḥasan) — qu'Allâh l'assiste, assiégeait la ville de Sidjilmâsa [3] ».

La conquête du Djebel El-Fatḥ eut lieu le dimanche 5 de chawwâl béni de l'an 733 (20 juin 1333) [4].

Tandis que l'on travaillait à la cloche, on construisit également pour la recevoir une coupole de plâtre d'un art accompli,

(1) Ce dernier passage, assez peu clair d'ailleurs, à partir de : « A la base on fixa des semelles.... » manque dans la *Djadwat*.

(2) Les mots entre parenthèses représentent une lacune du texte arabe, lacune qui a été fidèlement reproduite par le plagiaire Ibn el-Qâḍi dans sa reproduction de ce passage (*Djadwat*, p. 46).

(3) « Ayant investi Sidjilmâsa, Abou-l-Ḥasan employa une foule d'ouvriers à construire des machines de guerre et à bâtir une ville sous les murs de la place. Pendant une année entière, il assiégea la ville sans donner aux révoltés le moindre répit. » (Cf. *Berb.*, tr. IV, 215).

(4) On lira des détails sur cette prise des Djebel-El-Fatḥ (Gibraltar) par l'Émir Abou Mâlek dans *Berb.*, tr. IV, 216-218.

la Qaṣba de Fès [1] une maqṣoûra, à cause de l'étroitesse de celle qui s'y trouvait, mais il perdit sans doute de vue ce projet (car il ne fut pas réalisé). Allâh est le mieux renseigné sur ces faits.

En ce qui concerne la grande cloche suspendue à la travée centrale et en face de la porte nommée Bâb El-Koutoubiyîn [2], c'est celle qui fut trouvée au Djebel el-Fatḥ en Andalousie, lorsque les Musulmans en firent la conquête sous les ordres de l'Émir très fortuné, connu sous le nom d'Abou Mâlik 'Abd el-Wâhid [3] — qu'Allâh le Très Haut, lui soit Miséricordieux — fils de l'Émir des Musulmans Abou-l-Ḥasan.

Le poids de cette cloche, d'après les dires de 'Izz ed-dîn ben Djalboûn [4], était de dix quintaux. Lorsqu'elle arriva à Fès, le Commandeur des Croyants (sic) Abou-l-Ḥasan ordonna qu'elle fût suspendue là où elle se trouve — après qu'on eut fixé sur le pourtour extérieur des plaques (horizontales et parallèles) —

---

(1) On ne s'explique guère que par une lacune probable du texte arabe la raison de ce passage relatif à la Mosquée de la Qaṣba, dans la description des travaux effectués à la Mosquée d'El Qarouiyîn. En ce qui concerne la Mosquée de la Qaṣba (représentée aujourd'hui par la Mosquée de Bou Jloûd) nous ne sommes pas renseigné sur sa fondation et les embellissements dont elle a pu être l'objet depuis que les Almoravides, fondateurs de la Qaṣba, l'édifièrent, voir ci-dessus, p. 79 à 81. La *maqṣoûra* de la Mosquée ou *el-beît el-maqṣoûra* « la chambre étroite » désigna d'abord un lieu entouré d'une barrière grillagée devant le *miḥrâb* réservé au sultan pendant la prière, pour le séparer des autres fidèles et le protéger contre toute tentative d'assassinat. Voy. *Prolégom.*, t. II, tr. p. 71-72.

(2) Cette porte de la Mosquée d'El-Qarouiyîn existe encore sous ce nom qu'elle doit au quartier des « libraires » sur lequel elle donne. Quant à la cloche chrétienne en question, transformée en un lustre de Mosquée, elle portait des figures allégoriques et a été décrite par Budgett Meakin qui a pu la voir un jour qu'elle avait été descendue pour être nettoyée. Il en a donné la description dans son étude sur le Maroc.

(3) Ce prince Mérinide n'est guère cité par les chroniqueurs du temps parmi les fils du sultan Abou-l-Ḥasan ; il figure cependant dans le *Rawḍa* (tr. p. 76), mais pas dans le tableau généalogique de la p. 136 de la traduction, voir *Berb.*, tr. IV, p. 216-218.

(4) Ce personnage, sans doute un andalou, nous est inconnu. Le plagiaire Ibn El-Qâḍi qui a copié ce passage n'a pas lu ce nom propre et a remplacé la phrase arabe qui le donne par : فيما ذكر عن الذين حملوه au lieu de : فيما قاله عز الدين بن جلبون.

dieux — fils de notre Maître le Commandeur des Croyants Abou Sa'îd, il faut citer, sur la face ouest, neuf fenêtres qu'il fit ouvrir pour donner de la lumière dans cette partie de l'édifice. Il ordonna également d'édifier une maqṣoura devant le miḥrâb. Les ouvriers commencèrent le travail ; la maqṣoura fut construite de trois côtés[1] en bois de cèdre, préparé par les sculpteurs, et d'une hauteur de neuf empans. La longueur de la face centrale (de cette maqṣoura) était de trente empans et ce fut sur cette face que fut percée la porte ; la longueur de chacun des autres côtés était de vingt-cinq empans.

Cependant les Musulmans trouvèrent dans cette construction une gêne, parce qu'elle rompait les rangs (des fidèles en prière) et obligeait ceux-ci à incliner leur orientation par rapport à l'Imâm. Ils soumirent la question à leurs jurisconsultes qui se rencontrèrent avec l'Émir (Abou Ḥafṣ) précité et lui exposèrent les inconvénients observés par les fidèles. Ils y ajoutèrent des raisons d'utilité. Le prince revint sur ses intentions et fit mettre la construction dans une autre partie de la Mosquée ; elle est aujourd'hui contre la porte aux degrés (toujours) fermée.

Ce travail a été fait en l'an 712[2] et la dépense fut prélevée sur les revenus des habous sous la surveillance du contrôleur de ceux-ci, Abou 'Abdallah Moḥammed ben Mimoûn.

L'Émir Abou-l-Ḥasan — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — avait songé à placer sur la face (du Miḥrâb) de la Mosquée de

---

leur règne, comme Aboul-Ḥasan, se fissent remarquer par les travaux qu'ils ont fait faire dans les Mosquées ou les Médersas (p. ex. Abou-l-Ḥasan, fondateur de la Médersa Sahrîj : cf. mes *Inscriptions*) et une Mosquée principale comme celle-ci était bien indiquée pour recevoir les embellissements des grands.

(1) Le quatrième étant le mur de la Mosquée.

(2) Abou Sa'îd, père de l'Émir Abou Ḥafṣ, a régné de radjab 710 à ḏou l-qa'da 731 (nov.-déc. 1310 à août-sept. 1331). Aucun chroniqueur du temps ne mentionne cette constrution ; il est vrai que l'auteur du *Qirṭâs*, qui est le plus complet pour cette époque, écrivait à la cour d'Abou Sa'îd ; il ne pouvait guère souligner la faute commise par le fils du souverain à propos de cette maqṣoûra que les fidèles lui firent enlever.

Au lieu de la date de 712 donnée ici il vaudrait mieux entendre 722 1322.

entrassent les gens nu-pieds ainsi que les autres. Sur ce canal on mit une grille en bois de cèdre avec une porte par où entraient dans la Mosquée, les fidèles qui avaient gravi les degrés. Une vaste porte fut ouverte au-dessus de cet escalier. Au bas des degrés et à droite en sortant de la Mosquée [1] il mit une fontaine et la décora de plâtres (sculptés), de pierres lisses et de pierres découpées ; le tout, peint de couleurs variées, était d'un art accompli et d'un effet agréable [2].

Puis il amena vers cette fontaine l'eau de l'endroit indiqué ci-devant. L'on prétend qu'il fit cette dépense sur ses revenus personnels. Cela eut lieu en l'an 692/1293 [3].

Il voulut (ensuite) informer l'Émir des Musulmans (Abou Ya'qoûb ben Abi Yousof ben 'Abd El-Ḥaqq) qu'il avait fait dans la Mosquée des travaux qui n'étaient pas indispensables, et cela sans autorisation. L'Émir des Musulmans ordonna de fermer cette porte jusqu'à ce qu'il eût examiné lui-même ce qui avait été fait. Mais le souverain ayant négligé de s'occuper de cette affaire, la porte (nouvelle) demeura fermée jusqu'à maintenant.

Parmi les travaux que fit effectuer dans cette Mosquée d'El-Qarouiyîn l'Émir Abou Ḥafṣ [4] — qu'Allâh lui soit Miséricor-

---

de ces deux noms qui sont totalement oubliés. Quant au canal d'eau courante, pour les ablutions, ménagé au pied de la porte et à l'intérieur, c'était aussi une imitation de ce qui avait été fait pour la porte à degrés de la Mosquée des Andalous, dont le canal existe encore de nos jours.

(1) Cet emplacement de la fontaine était lui-même identique à celui de la fontaine extérieure à la Mosquée des Andalous.

(2) Les détails ci-dessus manquent dans le *Qirṭâs* et dans la *Djadwat*.

(3) 689/1290 dit le *Qirṭâs* (p. 44).

(4) Cet Émir Mérinide — frère d'Abou-l-Hasan qui régna avec éclat et d'Abou 'Ali, qui se souleva contre son père, puis gouverna la province de Sidjilmâsa — est peu connu et les chroniqueurs ne le mentionnent pas (voir cependant Rawdat-ennisrin, p. 72 où il est désigné par son nom, 'Omar). Ses deux frères Abou-l-Ḥasan et Abou 'Ali firent beaucoup plus parler d'eux (voir surtout mes *Inscriptions*, p. 17-19 et *pass.*). Il n'est pas rare dans l'Islam et en particulier chez les Mérinides que des princes royaux qui ne régnèrent jamais comme Abou Ḥafṣ ou bien avant

Les dépenses (de ces réparations) furent payées sur (la valeur d') un anneau de pied en or[1] que le souverain avait reçu (dans sa part) du butin fait sur les Roûm (d'Espagne)[2].

Ces restaurations furent faites sous la direction du qâḍi du Sultan dans la (Vieille) Ville (de Fès)[3], le faqîh Abou Ghâleb, fils du qâḍi Abou 'Abd Errahmân El-Maghîli.

Cela eut lieu en l'an 696/1296-1297[4].

Parmi les aménagements de cette Mosquée, citons : la porte aux escaliers qui se trouve au sud de l'édifice[5]. En voici les raisons : le Gouverneur de la ville, Abou-l-Ḥasan 'Ali ben Moḥammed ben 'Abd el-Karim El-Ḥoudoûdi[6] ayant remarqué la porte (précédée) de degrés, construite au temps de l'Almohade En-Nâṣir, au nord de la Mosquée du quartier des Andalous[7], voulut donner de l'importance à la Mosquée d'El-Qarouiyîn et fit faire cette porte à l'imitation de l'autre. Telle il la fit construire, telle elle existe encore aujourd'hui. Au bas de la porte il fit ménager un canal en bois doublé de plomb et y amena l'eau de 'Aïn Ibn Eṣ-Ṣâdi, source connue aujourd'hui sous le nom de 'Oyoûn El-Karrâzîn[8], afin que par là

(11 mai 1307) date de sa mort, assassiné dans son palais de Mansoura près de Tlemcen qu'il assiégeait.

(1) De deux anneaux de pied, en or, d'un poids de 500 dinârs d'or, dit l'auteur du *Qirṭâṣ* (éd. p. 46).

(2) Le texte du *Qirṭâṣ* est plus complet pour ce passage ; il cite les propres paroles du roi indiquant que ces anneaux lui venaient de son père, lequel les avait offerts à sa mère, sur le cinquième du butin, lui appartenant, et pris aux Chrétiens d'Andalousie (*Qirṭâṣ*, éd., 46).

(3) On a traduit ainsi *madîna* nom donné encore aujourd'hui à la partie basse du Vieux-Fès ; c'est la « cité » comme à Paris ou à Londres.

(4) En 699/1299 1300 selon le *Qirṭâṣ* (éd., 46).

(5) On lira une recension analogue à celle-ci dans *Qirṭâṣ* (éd., 44) ; mais pour ce passage, la traduct. Beaumier (p 84) fait un contre sens.

(6. Cette orthographe est également donnée par *Qirṭâṣ* (p. 44 et 46) et non pas « El-Djedoudi » comme l'écrit Beaumier dans sa traduction (p. 84).

(7) Cette indication que la porte principale, à escaliers, de la Mosquée des Andalous fut bâtie par l'Almohade En-Naṣir est confirmé par *Qirṭâṣ* (éd. p. 198). Mais grâce à un contre sens dan la traduction Beaumier, cette porte est attribuée à la Mosquée d'El-Qarouiyîn.

(8) Aucune source à Fès ou dans les environs ne porte aujourd'hui l'un

Qarouiyîn ; la dépense fut imputée sur les revenus de ces habous. Ceci eut lieu en 688/1289.

Pour cette 'Anza le travail fut fait d'un art étonnant, d'un bois choisi et parfaitement ajusté, d'une grande délicatesse dans les moulurages et les sculptures, toutes choses que l'on ne peut exprimer ni par des formules d'admiration, ni par des métaphores.

Entre autres travaux (exécutés à la Mosquée d'El-Qarouiyîn citons encore) : la restauration du mur oriental ainsi que le plafond des deux nefs qui le joignent (1). Cela eut lieu sous le règne de notre Maître, l'Émir des Musulmans, celui qui met sa confiance dans le Maître des Mondes, Abou Yousof (Ya'qoûb ben 'Abd el-Ḥaqq) (2) — qu'Allâh le Très Haut lui accorde Sa Miséricorde — en l'an 682/1283-1284. Les dépenses furent prélevées à cet effet sur la caisse des impôts de capitation (*djizya*) et des dîmes (3).

On fit également réparer dans cette Mosquée le mur nord, à partir de la rue couverte séparant ce mur de la maison donnée en habous pour le logement des Imâm de la Mosquée jusqu'à la porte de Bâb es-Sefer qui se trouve là (4).

Ces derniers travaux eurent lieu sous le règne de l'Émir des Musulmans, notre Maître, Abou Ya'qoûb (Yousof) (5) — qu'Allâh lui accorde Sa Miséricorde.

---

(1) Le *Qirṭâs* (édi. p. 46) indique pourquoi ces réparations furent faites : ces parties de la Mosquée étaient dégradées faute d'entretien et d'argent pour des réparations, avant cette époque.

(2) Le premier sultan Mérinide qui régna sur tout le Maghrib, après s'être emparé de la capitale Marrakech et des autres provinces non encore soumises (cf. *Qirṭâs*, éd. 212, plus complet et plus exact que trad. Beaumier, p. 427). Il fut proclamé le 29 radjab 656 (2 août 1258) et mourut le 22 moharren 685/20 mars 1286). C'est le fondateur de Fès-la-Neuve ou Fès ej-Jedîd.

(3) Après l'épuisement des ressources de la caisse des habous, ajoute *Qirṭâs* (éd. 46).

(4) Le *Qirṭâs* (*ibid.*) dit que ces réparations furent faites du Bâb El-Ḥoufât jusqu'à l'extrémité de la sa'le (de prière) des femmes.

(5) Fils du précédent ; régna du 22 moharrem 685 au 7 ḏou l-qa'da 706

des fidèles, de nuit et de jour, pour leurs prières ainsi que pour ceux qui demeuraient là pour le service de la Mosquée et pour ceux qui venaient y boire.

Ceci est pour cette Mosquée un bienfait qui se conservera toujours (1) ainsi que pour celui qui a pris la peine de réaliser (cette fondation) et pour celui des Sultans de l'Islâm qui a secondé sa réalisation.

Une partie de l'eau de la vasque se rendait par une canalisation en poterie vers les latrines situées auprès de 'Aïn Qarqaf, au sud de la Mosquée (2).

Quant à la 'Anza qui se trouve aujourd'hui dans cette Mosquée (3), elle fut construite à l'époque ou le faqîh Abou 'Abdallâh ben Abi ṣ-Ṣabr était inspecteur (ناظر) des habous (4) des Musulmans et (de ceux) de la Mosquée d'El-

(1) On vient de dire que l'auteur de la *Djadwat* a indiqué qu'à son époque cette vasque avait été remplacée par une autre.

(2) L'orthographe 'Aïn Qarqaf est la même dans *Qirṭâṣ* (p. 43) qui ajoute : « Le public se servait là de cette eau, soit dans les logettes (des latrines), soit à la fontaine, puis cette eau passait au Dâr Eṣṣebâgh où elle disparaissait après avoir fourni tout son usage ».

C'est à partir d'ici que l'auteur de la *Djadwat* (p. 46 *in fine*) recommence à plagier notre texte.

(3) On lit dans *Qirṭâṣ* (éd., 43) : quant à la 'Anza vers laquelle on (s'oriente pour) prier en été, l'ancienne était en bois de cèdre, de belles planches. On lisait cette inscription sur le fronton : « Cette 'Anza fut édifiée dans le mois de cha'bân glorieux de 524 (10 juillet-7 août 1130) ». Mais la 'Anza actuelle fut construite par le faqîh, le Khaṭîb, Qâḍi et Khaṭîb de la djemâ'a, Abou 'Abdallâh ben Abi ṣ-Ṣabr, lorsqu'il fut investi de la charge de qâḍi de Fès. Les frais furent payés par les habous. Le travail fut commencé le 1er de ḍou-l-qa'da 687 (27 novembre 1288) ; il fut achevé et la 'Anza fut mise en place le samedi 5 rabi' 1er 689 (19 mars 1290) correspondant au 18 mars de l'ère étrangère.

Ce texte est plus complet que le nôtre et que celui de *Djadwat* (p. 45-46) ; il est aussi sans doute plus exact en ce qui touche à la fonction d'Abou 'Abdallâh ben Abi ṣ-Ṣabr dont il a été parlé ci-devant dans la série des Khaṭîb.

(4) La fonction d'inspecteur des habous a toujours été semble-t-il distincte de celle de qâḍi et de khaṭîb. Actuellement il y a un « nâḍir » des habous de Qarouiyin et un ou même deux autres pour les autres habous de Fès.

« *De rochers sortent des fleuves ; d'autres (rochers) se fendent et l'eau en jaillit ; d'autres encore s'écroulent par la crainte d'Allâh.... Certes qu'Allâh n'est point inattentif à vos actions* »[1].

« Achevé dans le mois de djoumâda second de l'année 599 (15 février à 15 mars 1203) ».

Il fit placer au-dessus de cette inscription, à travers une dalle de marbre, cinq tubes d'écoulement par où tombait l'eau dans le bassin en question ; lorsque le bassin était rempli, cette eau s'écoulait par vingt orifices, ménagés dans cette intention du côté indiqué ci-devant, c'est-à-dire vers l'est[2], et se dirigeait vers la vasque voisine, placée à l'ouest. Cette vasque était faite de deux cuvettes (superposées), d'une circonférence de treize empans chacune, supportées par un pied divisé en deux (tuyaux dans le sens de la hauteur)[3] ; le tout était en cuivre jaune.

L'eau amenée du bassin (réservoir ci-devant décrit) remontait dans l'une des parties du pied (de la vasque) et retombait au milieu de la (cuvette supérieure) par huit trous percés sur les côtés d'une pomme[4] (خرشنة) de cuivre doré. Cette cuvette (supérieure) étant pleine, l'eau rentrait par des trous destinés à cet effet sur le côté et pénétrait dans le second tuyau du pied, de sorte que le bassin et la vasque étaient toujours pleins[5]. Ce bassin et cette vasque suffisaient aux besoins

---

(1) *Qoran*, II, 69.

(2) Le *Qirṭâs* (p. 42) dit que le bassin était rempli par cinq robinets et que l'eau s'en écoulait par quarante trous, à droite et à gauche.

(3) Ces détails sur le pied en cuivre se trouvent dans le *Qirṭâs* (p. 42). Toute cette dernière phrase et la description de la vasque manquent dans la *Djadwat* (p. 46) qui dit seulement : « Cette vasque ayant été endommagée fut remplacée par une autre qui est celle dont nous avons précédemment fait mention ».

(4) Le *Qirṭâs* qui fait cette description dit : « L'eau jaillissait dans le milieu de la vasque, en sortant d'une pomme (تفاحة) percée de dix trous.

(5) Le *Qirṭâs* (p. 42) donne à ce pied une hauteur de cinq empans et ne parle pas des deux cuvettes superposées de la vasque. Il dit également et plus clairement que l'eau montait dans l'une des deux moitiés du pied et redescendait par l'autre Il ajoute d'autres détails sur cette vasque.

Ḥasan ben ʿAbdallâh Es-Sidjilmâsi[1] ; c'était un homme de bien, attaché à la religion. Il fit faire le travail par Abou ʿImrân Moûsa ben Ḥasan ben Abi Châmma, qui était habile en l'art de la construction et en architecture, après avoir consulté à ce sujet le pieux faqîh Abou Moḥammed Yachkour. Cet homme exécuta le travail ; le bassin ainsi que ce qui l'entourait fut fait de marbre blanc[2]. La longueur du bassin était de douze empans et sa hauteur de six, sa largeur et sa profondeur de trois empans[3]. Les bords supérieurs d'une des grandes bases et des deux petites furent recouverts de plaques de plomb, bordées par une corniche de marbre[4]. Sur ce bassin fut installé un grillage de marbre blanc (ajouré par l'ouverture) de cent vingt-quatre étoiles[5]. Au-dessous de ce grillage il fit sculpter dans la pierre, d'une belle écriture :

« Au nom d'Allâh, Clément et Miséricordieux ! Qu'Il répande Ses Grâces sur Notre-Seigneur et maître Moḥammed, sur sa famille et ses Compagnons, qu'Il leur accorde le salut ».

---

(1) Le *Qirṭâs* (p. 42) le nomme seulement Abou-l-Ḥasan Es-Sidjilmâsi et donne 599/1202-1203 comme date de ces travaux. Il y a d'ailleurs très peu de différence entre le texte du *Qirṭâs* et le nôtre, ce dernier ayant été copié sur le premier.

(2) « Le bassin (بيبلة), dit le *Qirṭâs* (p. 42) est de marbre blanc ; il n'a pas son pareil par la beauté et la pureté (de la matière), sa blancheur et sa longueur ».

(3) *Djadwat* donne pour la longueur douze empans, pour la hauteur et la profondeur six empans.

(4) Cette phrase qui manque dans la *Djadwat* (p. 46) n'est pas claire dans notre texte.

(5) Ce décor fréquent dans le bois consiste à percer à jour une cloison par des losanges, des carrés ou des polygones étoilés ou encore, comme ici, des étoiles, sur des lignes parallèles. Le texte de la *Djadwat* ajoute que ces *étoiles* étaient à six pointes.

A partir de la note 3 ci-dessus, tout ceci manque dans le *Qirṭâs* qui dit seulement : « Sur le bassin était un grillage de marbre blanc, merveille du temps, sous lequel on grava sur une pierre rouge » l'inscription donnée ci-dessous.

par la rangée des boutiques de la Qisâriya [1], par le soûk des Ḥarrârîn [2], par le souk des Qarrâqiya [3] (pour aboutir) au réservoir (qu'il avait aménagé) dans la boutique réunie au bassin précité et touchant au conduit d'eau le joignant à ce bassin ainsi qu'au bassin voisin de Bâb El-Ḥoufât, enduit lui aussi de plomb, d'une longueur de 27 empans et touchant extérieurement à la porte [4].

Sur ce bassin il mit un grillage de bois dans lequel il ménagea quatre guichets. La hauteur de la porte (Bâb El-Ḥoufât) était de seize empans.

Le sol du bassin au temps du qâḍi Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Abi ṣ-Ṣabr fut pavé de marbre blanc et noir ; l'eau s'écoulait du côté du réservoir dont on a parlé ci-dessus, vers le bassin tapissé de plomb, puis elle se déversait sur du marbre blanc, vert sombre et rouge où les fidèles venant nu-pieds se lavaient les pieds en passant [5] et ensuite l'eau tombait dans un canal destiné à la recevoir [6].

Pour construire le bassin et la vasque de l'atrium, il vint un homme de Sidjilmâsa, connu sous le nom de faqîh Abou-l-

---

(1) Sur la *Qisâriya* de Fès, voir mes *Inscriptions*, p. 180 note 3.

(2) Ce souk existe encore sous ce nom et fait partie de la Qisâriya.

(3) Porte encore ce nom et se trouve aussi à la Qisâriya, tout à côté du précédent.

(4) Le *Qirṭâs* dit à ce propos : « .... (pour aboutir au réservoir (معدّة) qui est près des (boutiques des) notaires touchant à la Mosquée ; l'eau se déversait du réservoir en question dans un bassin carré, en plomb, puis elle se divisait vers toutes les fontaines, la vasque, le bassin, le Bâb El-Ḥoûfât, le Dâr El-Ouḍoû et ses logettes, la fontaine au grillage... ».

(5) C'est d'un usage assez courant à Fès de ménager à l'une des entrées de Mosquées, un canal d'eau courante que doivent traverser les fidèles entrant dans la Mosquée pour se laver les pieds avant de pénétrer en ce lieu ; il n'existe pas seulement au Bâb El Ḥoufât d'El-Qarouiyîn, mais aussi à la Mosquée des Andalous et à la Médersa Bou 'Anâniya par exemple.

(6) Cpr. *Qirṭâs*, p. 48 ; notre texte est cité mot pour mot par *Djadwat*, 45.

des becs de cuivre doré par lesquels l'eau tombait dans le bassin en ruisselant, puis l'eau employée (par les fidèles) pour les ablutions retombait du bassin..... alentour ; tout cela était en marbre blanc.

Sur l'une des parties de ce (Dâr El-Ouḍoû) il fit construire (une maṣriya) pour la surveillance.

Il se rendit ensuite à la source précitée et s'aperçut qu'elle sortait en deux endroits d'un dur rocher, après quoi les eaux se réunissaient dans une chambre voûtée analogue à la salle d'un bain (maure). Auprès de cette chambre il fit construire un bassin carré de dix empans de côté, doublé de plomb, dans lequel tombait l'eau sortant de la chambre [1].

Puis il fit passer cette eau à travers une grille de plomb, percée comme des rayons de miel, dans des tuyaux de plomb du diamètre de plus d'un empan ; ils (amenèrent l'eau) par *'Aqbat El-Mellâḥîn* [2], ensuite par la Mosquée des Chorfa [3],

---

son milieu était un bras (vertical) creux, sur lequel on monta une pomme (d'arrosoir) en bronze doré, percée de vingt trous, répandant l'eau dans le bassin. Tout autour il fit mettre une banquette (en maçonnerie), à environ une coudée de distance, pour permettre aux fidèles faisant leurs ablutions de s'asseoir. Des bords du bassin l'eau employée par les fidèles retombait dans un conduit qui en faisait le tour. Tout cela était en marbre blanc. Il fit élever sur l'une des parties de ce (Dâr El-Ouḍoû) une *maṣriya* pour sa surveillance ». Avec sa banquette, ce bassin principal ressemble beaucoup à celui du Dâr El-Ouḍoû de la Médersa Bou 'Anâniya du milieu du XIVe siècle.

A propos de ce bassin, le *Qirṭâs* (47-48) dit seulement : « Il y mit une « bila » spacieuse comme un bassin ; au milieu de la « bila » était un tuyau de cuivre enrichi d'or avec des becs d'écoulement de l'eau dans le bassin, le tout d'une grande beauté ».

(1) Tout ce paragraphe, à partir de : « Elle sortait en deux..... » est textuellement tiré du *Qirṭâs* (p. 47). Il est reproduit aussi par *Djaḍwat* (p. 44).

(2) C'est le quartier où l'on vend les faïences de Fès entre les Nejjârîn et les 'Aṭṭârîn ; (voir à ce propos mes *Industries de la Céramique à Fès*, p. 269) ; le *Qirṭâs* dit : par *'Aqbat Eddokhân* (p. 47).

(3) Le *Qirṭâs* dit (p. 47) par Qarsṭoûn, au sud de la Mosquée des Chorfa. Il a été parlé ci-devant de cette Mosquée.

dées. Il acheta cette (maison) le double de son prix, pour réaliser son désir, puis demanda au cheikh Abou Moḥammed (Yachkour) d'en informer l'Émir En-Nâṣir, l'Almohade [1], et de lui demander l'autorisation d'amener cette eau par une canalisation selon les voies qui seraient convenables [2]. (Le cheîkh Abou Moḥammed) approuva cette demande et en référa à En-Nâṣir qui acquiesca à ce désir.

(Moûsa) commença donc la construction du Dâr El-Ouḍoû. Il y fit faire quinze logettes, ayant chacune une porte à deux battants, une fenêtre au plafond, pour la lumière, ainsi qu'une autre au-dessus de la porte.

Dans chaque fenêtre, au-dessus de la porte, était une veilleuse en verre que l'on allumait au début de la nuit et à la fin [3]. Dans chacune des logettes était un tuyau d'écoulement en cuivre donnant l'eau dans une cuvette creusée dans la pierre, de deux empans de long sur un de large [4].

Le plafond (central du Dâr El-Ouḍoû) formait un dôme de plâtre avec encorbellement à stalactites, peint de diverses couleurs. Au milieu était suspendu un lustre avec des godets de verre que l'on allumait au début et à la fin de la nuit. Sur le pourtour (du dôme), des côtés sud, est et nord, il fit percer onze fenêtres pour l'éclairage de tout l'intérieur. Au milieu fut installé un bassin de pierre rouge d'une longueur de vingt (empans et d'une largeur de cinq) [5]..... sur les côtés étaient

---

(1) Qui régna de 595/1198-1199 à 610/1213-1214.

(2) La *Djaḍwat* dit ici par les voies (شوارع) et les souks.....

(3) Pour les ablutions précédant les deux prières qui ont lieu : l'une à *El-ʿichâ* (moment entre le coucher du soleil et minuit vrai), l'autre à l'aurore (*as-ṣoubḥ*).

(4) Ces détails sur l'aménagement des logettes, manquent dans *Qirṭâs* qui indique seulement (p. 47) le nombre de ces logettes.

(5) Les mots entre parenthèse manquent dans notre Ms., mais figurent dans *Djaḍwat* dont le texte, bien que tiré de la *Zahrat* diffère légèrement dans cette description du bassin ; le voici : « Il plaça au milieu un bassin pavé de carreaux en faïence, divisés par des lignes de carreaux blancs en pierre : sa longueur était de vingt empans et sa largeur de cinq ; en

Le cheîkh Abou Moḥammed Yachkour différa (sa réponse) pour examiner la question. L'autre insista pour faire construire un Dâr El-Ouḍoû, à l'ouest de la Mosquée, pour les besoins des fidèles.

Lorsque (le cheikh Abou Moḥammed Yachkour) comprit le désir de cet homme et qu'il eut reconnu son intention de faire une bonne œuvre, il l'entraîna à la Mosquée, l'arrêta entre le minbar et le miḥrâb et lui fit jurer que son bien était pur [1]. L'homme ayant juré devant lui, le qâḍi en question lui dit : « Entreprends maintenant ce que tu désires et qu'Allâh te récompense de ton intention ».

(Ainsi autorisé, Moûsa ben 'Abdallâh) songea à utiliser le fondaq qui était (alors) sur l'emplacement du Dâr El-Ouḍoû (actuel) et l'acheta ; puis il le fit démolir et s'occupa de trouver un endroit d'où il amènerait l'eau pour (les besoins) de cette (chambre des ablutions). On lui indiqua plusieurs endroits, que lui conseillèrent de choisir des gens de savoir et d'expérience. Il ne s'en trouva aucun de plus convenable qu'une source située dans une petite maison (du quartier) de Gernîz [2]. Cette source était connue sous le nom de Aïn Farmâl [3] ; la distance qui la séparait de la Mosquée était de cinq cents cou-

(1) On lit dans *Qirṭâs* (p. 47) : « Devant le miḥrâb de la Mosquée, il lui donna un exemplaire du Qoran sur lequel il le fit jurer dans l'intérieur du miḥrâb que son bien était licite et pur, qu'il provenait de la succession de son père uniquement ; qu'il n'avait point modifié ce patrimoine par le commerce ».

(2 Sur ce quartier de Fès. voyez mes *Inscriptions*, p. 181 note 3.

(3) Ce mot dans le Ms. peut se lire Farmâl ou Barmâl ; dans le *Qirṭâs* (p. 47) on lit : Aïn Khaoumân ; et Aïn Khoûmal dans Beaumier ; la *Djadwat* donne : Aïn Ḥarmâl et une note marginale de l'édition de Fès, (p. 44) dit : « Notre texte porte Ḥarmâl tandis que l'*Anîs* donne Khoumân qui serait peut-être la bonne leçon, mais Dieu est le mieux instruit de la vraie lecture ». Aucune source de ce nom n'existe à Fès aujourd'hui ; mais cette source existe à Gernîz et se trouve dans le Derb Sidi Mousa. Le *Qirṭâs* indique toutes les recherches faites pour cette eau, avant de s'arrêter à cette dernière source, sur laquelle il donne des détails abondants et précis, qui figurent plus loin dans notre texte.

local et de son mobilier) furent prises sur les revenus des ḥabous. Or au temps du faqîh Abou 'Abd Allâh Moḥammed ben 'Imrân on pénétra par ruse dans cette chambre (souterraine) et un vol y fut commis. Ce personnage s'appliqua à faire une enquête à ce sujet, mais elle n'aboutit pas (1).

En ce qui concerne le bassin, la vasque et le Dâr El-Ouḍoû, les travaux qui eurent lieu pour l'agrandissement de la porte dite Bâb El-Ḥoufât et sa restauration, ainsi que la construction de la porte qui se trouve en face du fondaq Ben Ḥayyoûn, du côté de l'Orient, tout ceci fut fait au temps du vertueux faqîh Abou Moḥammed Yachkour. On conte à ce propos que ce dernier reçut la visite d'un homme des Beni Yâzgha (2) nommé Moûsa ben 'Abdallâh ben Sâdât (3), possédant une très grande fortune et qui était venu habiter Fès. Cet homme recherchant l'amitié du cheikh Abou Moḥammed Yachkour lui raconta qu'il possédait une fortune honnêtement acquise en héritage de son père, que celui-ci l'avait gagnée en travaillant ses terres de labour ainsi que dans l'élevage des troupeaux. Il voulait, disait-il, la dépenser pour les besoins de la Mosquée d'El-Qarouiyîn.

---

(1) Ce passage manque dans la *Djaḍwat ;* mais le *Qirṭâs* donne des détails intéressants : Le « Mastouda' » fut construit au temps du vertueux faqîh Abou Moḥammed Yachkour ; il fit creuser dans le sol et soutenir les parois (d'un béton) de terre et de chaux ; il fit revêtir (le tout) d'une couche (طلفة) de carreaux de marbre et d'une couche de ce béton. L'ouvrier chargé de ce travail fut le faqîh Abou-l-Qâsim ben Ḥomaïd, qui le termina. Trois clefs furent mises (aux serrures de) la première porte et trois à celles de la seconde. (Dans ce caveau) on déposa de nombreux coffres (fermés par) de solides serrures (أقفال). Cependant, par ruse, on pénétra dans cette chambre et l'on prit tout ce qui s'y trouvait de revenus des ḥabous et des immeubles de la Mosquée, de livres et de fonds en dépôt des particuliers. Ce (vol) eut lieu au temps du qâḍi, le faqîh Abou 'Imrân. L'on ne sut pas quel était le coupable.

(2) Tribu se trouvant actuellement dans la région de Fès au sud-est. Tout ce qui est dit ici est reproduit par la *Djaḍwat* (p. 43-44) et figure à peu près dans les mêmes termes dans le *Qirṭâs* (p. 46 47) d'où l'auteur que nous traduisons l'a tiré.

(3) *Qirṭâs* = ben Sadâf.

Enfin Ibn Khalaf poursuivit :

« *Que l'Islâm s'enorgueillisse de ce lustre tant que brilleront les lampes au moment où s'achève le crépuscule du soir !* ».

Citons encore quelques vers à propos de lampes :

« *Regardez (ces) lampes qui brillent dans la nuit ; leur enveloppe est de verre et pourtant elles donnent des flammes.*

« *On dirait des langues de vipères qui sortent et ne cessent de vibrer en plein midi* ».

Quant au Mastouda'[1] qui se trouve dans cette Mosquée, il a été construit au temps du pieux faqîh Abou Moḥammed Yachkour, pour y entreposer le mobilier de la Mosquée et (les revenus) de ses habous. Le surveillant des travaux, au temps de la construction, fut le faqîh Abou-l-Qâsim ben Aḥmed. Il fit creuser (cette salle souterraine) jusqu'à ce qu'il atteignit le roc ; puis il la fit paver avec un mortier de sable, de chaux et de plâtre, consolida les parois et le plafond avec des poutres de cèdre. Il ménagea cinq ouvertures[2] fermées de barres de fer retordues et deux portes dont l'une en fer. Le tout était construit avec art et solidité. Il fit mettre à chaque porte trois clefs[3] et entreposa dans cette chambre de grands coffres, fermés par de solides cadenas, dans lesquels on plaça les (revenus des) biens ḥabous appartenant à la Mosquée, ainsi que les dépôts des particuliers. Les dépenses d'entretien (de ce

---

(1) Voir ce qu'a dit M. Ricard du « Mestoûda' » dans la *Mosquée d'El-Qarouiyine* (*France-Maroc*, *loc. cit.*, p. 80)

(2) Le mot *mnâfis* « ouvertures » désigne de hautes ouvertures dans le plafond ou dans la partie supérieure des parois, comme dans l'étuve des bains maures. Voir aussi ce mot dans la technologie des potiers de Fès, dans mes *Industries de la Céramique à Fès*, p. 144.

(3) Cet usage de mettre plusieurs clefs à une porte existait encore à la Mosquée d'El-Qarouiyin à Fès en 1914 lorsque je m'y trouvais ; la Bibliothèque fermait à l'aide de deux clefs pour la même porte et les deux bibliothécaires ne pouvaient ainsi entrer séparément dans ce local, car chacun d'eux possédait l'une des deux clefs. C'était une manière d'exercer un contrôle de l'un sur l'autre.

Les vers suivants ont été dits à ce sujet : *Basît*

« *(Ce) lustre ressemble aux Pléïades dans ses rapports avec cette (constellation) ; le zéphyr incline (sa flamme) et (ses lampes) flambent cependant* ».

« *(Ce lustre), pour les fidèles pleins de foi, est comme leur âme qui tremble, au milieu de la nuit, par humilité devant Dieu* » (1).

L'Oustâḏ (Abou-l-Qâsim) El-Mazyâti — qu'Allâh lui soit miséricordieux — se tenait assis sous ce lustre pendant la nuit du 27 ramaḍân, avec l'Oustâḏ Ibn 'Abdoûn, le lettré — qu'Allâh lui soit miséricordieux — ainsi que Mâlik ben El-Marḥal et Moḥammed ben Khalaf, quand El-Mazyâti improvisa ce vers :

« *Voyez ce lustre dont la lumière déchire par son éclat le voile de l'obscurité* ».

Ibn 'Abdoun ajouta :

« *Par son dispositif, on dirait que ce lustre est une colline* (2) *sur laquelle des lumières sont rangées dans un ordre régulier* ».

Ibn Marḥal dit à son tour :

« *Puissé-je protéger (ce lustre), grâce au Maître du Globe, contre les dangers des (misères) inattendues du Mauvais Œil* ».

Mosquée étaient allumées et consommaient 3 quintaux et 1/2 d'huile. Il en fut ainsi jusqu'au temps d'un qâḍi qui fit allumer ce grand lustre tout le mois et cela jusqu'à sa mort en 617/1220. En 618 il en fut encore ainsi, mais alors la misère fut si grande au Maroc que l'on ne put trouver l'huile nécessaire aux lampes et le grand lustre ne fut plus du tout allumé, jusqu'en 687/1288, époque à laquelle le qâḍi Ben Abi-ṣ-Ṣaber obtint du sultan d'allumer le grand lustre pendant la 27e nuit de ramaḍân seulement. L'usage s'en était conservé jusqu'à l'époque de l'auteur du *Qirṭâṣ* (726/1325) nous dit celui-ci, et à celle de notre auteur qui vivait à l'époque Mérinide. Mais l'auteur de la *Djaḏwat* ajoute ici : « Cet usage ne s'est pas conservé jusqu'à nos jours ».

(1) Ces vers sont cités par *Djaḏwat* (p. 43) mais non par le *Qirṭâṣ*.

(2) A cause de la forme conique de ces sortes de lustres.

Mosquée [1]. Le travail de ce lustre est tel qu'il serait impossible aujourd'hui d'en faire un semblable. Son poids est de dix-sept quintaux et un quart [2]. La circonférence de base a une longueur de trente-deux empans [3]. Le nombre des godets des veilleuses de ce lustre est de cinq cent vingt [4] et il faut cinq « qolla » d'huile pour remplir toutes ces lampes [5].

Tantôt toutes les lampes de ce lustre étaient allumées pendant les nuits de ramaḍân, tantôt elles ne l'étaient pas. Mais à l'époque où le cheikh, le faqîh Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Abi-ṣ-Ṣaber fut nommé qâḍi de la ville, il s'aperçut que si l'on allumait les lampes du lustre pendant chaque nuit de ramaḍân, cela produirait un gaspillage des ressources de la Mosquée. Cependant (il comprit) que si ces lampes n'étaient pas allumées cela ferait perdre à ce lustre le rôle qu'il devait avoir.

Il se préoccupa de cette question et consulta à ce sujet l'Emir des Musulmans, le Mérinide, notre maître Abou Ya'qoûb qu'il mit au courant de cette affaire. Le sultan lui ordonna de s'en tenir à une solution intermédiaire, d'allumer toutes les lampes du lustre pendant la nuit entière du 27 ramaḍân et de n'en allumer qu'une partie pendant les autres nuits de l'année. On a continué à agir ainsi jusqu'à présent [6].

---

(1) Le *Qirṭâs* n'indique pas la provenance de cet argent, pas plus que la *Djaḍwat*.

(2) Le poids donné par *Qirṭâs* est de 17 quintaux et demi et 13 livres de bronze ; par la *Djaḍwat* de 17 quintaux 1/4 plus 1/16 de quintal.

(3) C'est le même tour de circonférence que donne la *Djaḍwat* ; le *Qirṭaṣ* ne fournit pas d'indication sur ce point.

(4) C'est ce nombre que donne la *Djaḍwat* tandis que le *Qirṭâs* n'en donne que 509.

(5) Actuellement la *qolla* pour l'huile à Fès vaut onze litres (voir ma *Fabrication de l'huile d'olive à Fès*, *in Bull. soc. Géog. d'Alger*, tir. à p., 1917, p. 13). Le *Qirṭâs* indique que l'huile nécessaire aux lampes du lustre est de un quintal et sept *qolla* ; la *Djaḍwat* donne le même chiffre de cinq *qolla* qu'ici ; ce chiffre est très différent dans les deux textes.

(6) Le texte du *Qirṭâs* est ici bien plus complet que celui-ci et que *Djaḍwat* qui plagie ce passage ; il dit (p. 44-45) que dans la 27e nuit de ramaḍân (*leïlat el qadr*) toutes les lampes (au nombre de 1,700) de la

On prétend que la terre et les pierres qui servirent à la construction de ces compléments aux bâtiments (de la Mosquée) furent tirés d'un puits creusé dans l'atrium, afin d'affranchir ces constructions de toute souillure[1]. C'est ce qu'ont rapporté l'auteur du *Miqbâs* et celui d'*El-Anîs*.

Quant au grand lustre, il y avait dans cette Mosquée, à sa place avant qu'il ne fût fait, un lustre semblable de dimensions, mais il était abimé et brisé. Le nouveau fut construit au temps de (feu) le faqîh, le khaṭîb, Abou Moḥammed 'Abdallâh ben Moûsa, le maître de Qoran (ci-devant mentionné) — qu'Allâh le Très-Haut lui soit Miséricordieux. Le coût de ce lustre fut de sept cent dix-sept dinars d'argent plus un cinquième de dinar[2], prélevés sur les revenus des ḥabous de la

---

rabî 1er, 540 (8 sept. 1145), les docteurs et les cheikhs de Fès craignirent que ces (conquérants) ne les rendissent responsables de ces sculptures et des ornements du miḥrâb, car (les Almohades) s'étaient dressés (contre le Gouvernement Almoravide) par humilité et renoncement (aux pompes vaines). Ces docteurs et ces cheikhs ayant appris que le Commandeur des Croyants 'Abd El-Moumen ben 'Ali entrerait le lendemain dans la ville ainsi que les Cheikhs Almohades avec l'intention de faire la prière du vendredi dans la Mosquée d'El-Qarouiyîn, furent saisis de crainte. Les notables passèrent la nuit à enduire les sculptures et les dorures du miḥrab et des murs voisins avec du papier, qu'ils recouvrirent ensuite de plâtre sur lequel ils coulèrent de la chaux... ».

(1) On a vu précédemment des indications analogues à propos de la fondations de cette Mosquée. Au sujet de ces agrandissements et des matériaux employés, l'auteur du *Qirṭâs* donne des renseignements de ce genre mais un peu plus complets : « Ceci fut construit avec la terre tirée de l'emplacement de la Mosquée ; il n'y entra rien de la terre provenant des grottes et des carrières servant (d'ordinaire) aux habitants pour leurs constructions. Il en fut de même de la pierre qui fut extraite du sol de la Mosquée, sous la seconde travée à partir de la *qibla* ; on trouva là une grotte très vaste dont on ne pouvait apercevoir le fond. C'est de là que les ouvriers tiraient la pierre et la terre que des manœuvres remontaient, sur leur tête, aux maçons qui utilisaient ces matériaux. Pour toutes les constructions ils n'employèrent d'autre eau que celle du puits de l'atrium. Tout ceci était fait en vue d'affranchir cette construction de tout soupçon et d'inspirer en elle une complète confiance ». (Cf. *Qirṭâs*, p. 40). Tout ce passage sur les matériaux manque dans *Djadwat*.

(2) *Djadwat* (p. 42) dit 717 dinars ; *Qirṭâs* (p. 44) donne 717 dinars et deux dirhems et demi.

Il fut aussi ordonné de construire le minbar qui existe encore à peu près dans son ancien état ainsi que nous l'avons dit ci-devant, car celui qui s'y trouvait auparavant était usé, comme nous l'avons précédemment indiqué [1].

Après cela on se mit à construire la galerie de la chambre par laquelle on pénètre dans le « Mosalla-l-Djanâïz » [2].

Mais le qâḍi fut destitué sans avoir terminé ce qu'il comptait faire (dans cette Mosquée), en l'an 533/1138-1139.

Il fut remplacé par un autre qâḍi qui ne poursuivit aucun de ces travaux, de sorte que ce qui était fait demeura (sans changement) jusqu'à la nomination comme qâḍi de Fès, du cheikh, le faqîh Abou Marouân 'Abd El-Malek ben Baïḍâ El-Qaïsi, en 537/1142-1143.

On raconte que les sculptures et les dorures qui se trouvaient dans (l'encadrement de l'arc du) miḥrâb et autour de la coupole le surmontant furent complètement recouvertes de papier, puis (d'une couche) de plâtre, lorsque le khalife (Almohade) 'Abd El-Moûmen ben 'Ali résolut d'entrer à Fès et de venir faire la prière dans la Mosquée d'El-Qarouyîn, car (ces décors) étaient une distraction pour les fidèles (en prière) [3].

---

(1) Il a été déjà question de ce minbar ci-devant. Il serait intéressant pour l'art musulman de publier une étude, avec photographies et dessins, de ce minbar de la Mosquée d'El-Qarouiyîn, ainsi que de ceux de la Médersa Bou 'Anâniya (XIVe s.) et de la Mosquée de Tâza (XIVe s.). On trouvera des détails sur ce minbar dans *Qirṭâs* (éd., p. 41).

(2) Cet emplacement est marqué sur le plan Ricard (*France-Maroc*, *loc. cit.*, p. 81) à la droite du miḥrâb. Le rôle de cette salle appelée aussi *Djâmi'-l-Djânâïz* est de recevoir, comme son nom l'indique, les cadavres avant l'enterrement, pour les faire assister à la prière en commun à la Mosquée. Pour que la présence du cadavre ne souille pas la Mosquée, ce « lieu de prière des funérailles » est toujours en dehors des salles de prière et en verrue sur la face sud de la Mosquée. On verra au sujet de cette salle spéciale ce que j'en ai dit dans mes *Inscriptions*, p. 30 et notes.

(3) Le décor de ce miḥrâb était tellement beau, dit le *Qirṭâs* (p. 40) que « ceux qui le voyaient en restaient stupéfaits et que les fidèles en étaient distraits (du devoir religieux) ».

A propos de l'entrée des Almohades à Fès, le texte du *Qirṭâs* est plus complet : « Lorsque les Almohades entrèrent, dans la ville, le jeudi 15

rehaussé de (peinture) dorée, bleue azurée, et d'autres tons (1).

On fixa sur les fenêtres ajourées se trouvant sur les côtés de la coupole des variétés artistiques de divers vitraux dont les couleurs faisaient le plus heureux effet que l'on puisse souhaiter (2).

Ensuite on se mit à revêtir quelques portes de la Mosquée d'un placage de cuivre jaune d'un travail achevé et d'une technique parfaite (3).

---

diatement voisins qui est la plus décorée. Le plus souvent — à de très rares exceptions près, comme pour plusieurs Mosquées des XIIIe et XIVe siècles à Tlemcen par exemple — les murs de la Mosquée sont nus à l'exception du miḥrab et de ses abords immédiats.

(1) La peinture sur plâtre a joué un rôle dans la décoration des monuments musulmans de l'Occident, rôle délicat et fort heureux à l'époque classique et les monuments de Tlemcen et de Fès nous en ont laissé assez de spécimens pour qu'une étude raisonnée puisse en être aujourd'hui entreprise, avec comparaison avec les autres monuments de ce genre en Andalousie et en Orient.

Le passage cité ici se trouve dans le *Qirṭâs* (éd. , p. 40) mais il manque dans *Djadwat* qui a plagié notre texte.

(2) Ces fenêtres à arcatures ajourées (ou aveugles) en plâtre et quelquefois à vitraux soudés au plomb, sont nommées *chemmâchât* dans notre texte, *chemsiyât* dans *Djadwat* (p. 42) et l'on entend aujourd'hui à Fès : *chemâmech*, du singulier *chemmâchiya* et *chemmâcha* (le *sîn* et le *chîn* arabes permutant fréquemment dans les dialectes). Tantôt ménagées dans l'intérieur du miḥrâb comme à la grande Mosquée de Tlemcen (du XIIe s.), tantôt au-dessus de l'arc d'ouverture du miḥrâb, comme à la Mosquée de Sidi Bel Ḥasen à Tlemcen (XIIIe s.) ou à la Médersa Bou'ananiya de Fès (XIVe s. ; voir mes *Inscriptions* fig. 56 et p. 272), tantôt au-dessus de l'arc d'ouverture d'une porte, comme dans la « maison privée du XIVe siècle », à Fès dont j'ai donné la description (voir mes *Inscriptions*, fig. 78 et p. 324), ou bien encore sur une face murale d'une galerie ou d'une salle pour former une bande de décor à arcatures, dont mes *Inscriptions* (fig. 41, 68, 72, etc.) offrent bien des spécimens, ces arcatures sont, dans l'ensemble de la décoration, comme un habile rappel des grands arcs des portes et des galeries ; elles se retrouvent dans la plupart des monuments de l'époque classique peut-on dire.

(3) L'une de ces portes donne dans une petite inscription en médaillon sur le placage la date de 531, et le nom de l'artisan ʿAbd El-Wâḥid, ainsi que l'a découvert M. Ricard, qui a signalé cette trouvaille dans la Revue *France-Maroc* (*loc. cit.*, p. 81). Mais le commentaire qui suit cette indication, est erroné.

donné d'acheter les immeubles qui se trouvaient au sud de la Mosquée. Ils furent achetés légalement. On raconte que la plupart de ces immeubles appartenaient aux Juifs — qu'Allâh les maudisse. Les qâḍi les avait avertis qu'en vertu du droit musulman, lorsque la Mosquée devenait trop étroite, les voisins étaient forcés de vendre de (leurs) immeubles ce qui était nécessaire pour (l'agrandissement de cet édifice). (Les propriétaires) acquiescèrent à cette (mise en demeure) [1].

Quand il eut achevé les achats, il décida de faire démolir les constructions et de vendre des démolitions ce dont il n'avait pas besoin pour (les travaux de) la Mosquée. Cette vente produisit plus d'argent que l'achat des immeubles n'en avait coûté.

Puis le qâḍi entreprit les constructions. Elles durèrent longtemps pour (terminer) ces agrandissements.

On édifia dix travées à partir de l'atrium jusqu'à la « qibla » [2]. On entreprit aussi la coupole surmontant le miḥrâb ainsi que (celle qui se trouve) devant celui-ci, entre les deux travées adjacentes. Ce dernier travail fut fait en plâtre à stalactites et très soigné. Le plâtre (de revêtement des murs) fut sculpté, contre le miḥrâb et tout autour de son ouverture [3]. Le tout fut

(1) Le *Qirṭâs* dit ici : « (Le qâḍi) entreprit l'agrandissement de la Mosquée vers le sud, vers l'est et vers l'ouest. Il commença par acheter les immeubles et les maisons au sud de la Mosquée, à l'ouest et à l'est. Il en acheta ce qu'il voulut et ce qui lui était nécessaire à un prix convenable et paya sans mécontenter personne. La plupart de ces maisons appartenaient à des juifs — qu'Allâh les maudisse. Pour les propriétaires qui s'opposaient à la vente, l'estimation de l'immeuble fut faite et le prix fort fut offert, conformément à ce qu'avait fait le Commandeur des Croyants 'Omar ben El-Khaṭṭâb — qu'Allâh soit satisfait de lui — lorsqu'il eut à agrandir la Mosquée Sacrée (de La Mekke) ».

(2) Il s'agit ici d'une véritable reconstruction totale de la salle principale de prière, car, ainsi qu'en fait foi le plan actuel (d'après Ricard dans *France-Maroc*, *loc. cit.*, p. 81) qui ne comporte que neuf travées d'arcades entre l'atrium et le mur du miḥrâb. Par *qibla* ici nous entendons le mur sud de la salle principale de prière, mur dans lequel est ménagé le miḥrâb.

(3) Sur la décoration des coupoles, à stalactites, voir ci-devant, p. 105 note 1. Dans les Mosquées c'est la partie du miḥrâb et des murs immé-

lui indiquèrent divers moyens de trouver l'aide nécessaire pour ces travaux. Ils l'informèrent que beaucoup de biens ḥabous se trouvaient (illégalement) en possession de nombreux habitants de Fès qui en jouissaient et les considéraient comme faisant partie de leur propriété propre. Or ces biens (ḥabous) serviraient aux dépenses à engager dans les agrandissements projetés[1]. Ils consultèrent à ce propos le khalife ʿAli ben Yoûsof ben Tâchfîn, lui montrèrent que (l'agrandissement de la Mosquée) était une de ces actions qui élèvent la religion et donnent une large satisfaction aux fidèles surtout (pour la prière du) vendredi (jour) comptant parmi les fêtes (religieuses) de l'Islâm[2]. Le sultan donna l'autorisation au qâḍi qui prescrivit (un examen) de la gestion des contrôleurs et des agents (des habous) et de leur comptabilité. On raconte que ceci produisit quatre-vingt mille dinars d'argent[3]. L'ordre fut alors

(1) J'ai constaté au cours des recherches que j'ai faites à Fès pour retrouver les biens ḥabous figurant sur les listes relevées dans mes *Inscriptions*, que la plupart de ces biens avaient été usurpés, depuis leur fondation de ḥabous (XIVe siècle), par des particuliers. Le fait n'était pas nouveau dans cette ville, puisque notre texte indique ici que c'était déjà d'un usage courant au XIIe siècle. Tout ce passage manque dans *Qirṭâs*.

(2) Dans l'orthodoxie musulmane, la prière en commun du *ḍouhour*, faite à la Mosquée est une obligation pour le fidèle, le vendredi.

(3) La version du *Qirṭâs* (p. 38) est un peu différente et plus claire. Le sultan dit au qâḍi : « La dépense sera prélevée sur les fonds du Trésor public ». « Peut-être, reprit le qâḍi, qu'Allâh vous dispensera de puiser à cette source en réunisant des biens ḥabous de cette Mosquée tout ce qui est entre les mains des agents (de ce service) ». Le sultan ordonna au qâḍi d'agir dans ce sens avec prudence et respect d'Allâh contre tout mal et de s'efforcer de restaurer et d'agrandir cette Mosquée, d'examiner les biens ḥabous lui appartenant et tout ce qui lui revenait et de le faire rentrer. Le qâḍi le remercia et se rendit à son prétoire. Il questionna au sujet des ḥabous et trouva qu'ils étaient passés entre les mains de particuliers qui s'en étaient emparés et les avaient réunis à leurs biens ; il les leur retira et désigna d'autres mandataires plus scrupuleux en matière de religion ; il fit le compte de ce que possédaient ceux qui furent destitués et leur réclama les revenus des immeubles urbains et ruraux appartenant aux ḥabous. Ce compte s'élevait à des sommes considérables ; il leur en imposa le remboursement augmenté du paiement des revenus de l'année en cours. Il réunit ainsi plus de 80,000 dinars.

il était retiré, enlevé et supprimé jusqu'au moment où il était utile. Il donnait ainsi aux lieux qu'il abritait l'avantage d'y respirer l'air frais. Le velum fut utilisé pendant quelques années jusqu'à ce qu'il fût déchiré et que l'on cessât de s'en occuper. Mais les poulies qui lui servaient sont visibles jusqu'à présent. C'est ce qu'a rapporté l'auteur d'*El-Anîs*.

Voici (deux) vers qui se rapportent (à l'auteur de ce velum) :

Tawîl

« *Le monde est mis à l'aise grâce à ta justice parmi les humains ; tu as agrandi une Mosquée devenue trop étroite pour les fidèles.*

« *L'atrium de cette (Mosquée) s'est plaint d'être exposé au soleil de midi et tu as jeté sur lui un ombrage qui éloigne l'ardeur (du soleil)* »[1].

Lorsque la ville (de Fès) eut une population considérable, au temps de l'Émir des Musulmans ʿAli ben Yoûsof ben Tâchfîn et que la Mosquée devint trop étroite pour le grand nombre de fidèles, au point qu'ils étaient obligés de prier dans les rues (adjacentes) et les souks, les docteurs de Fès se réunirent ainsi que les cheikhs[2] et portèrent le fait à la connaissance du qâḍi Abou Moḥammed ʿAbd El-Ḥaqq ben ʿAbdallâh ben Moʿîcha El-Gharnâṭi[3] en l'an 529 (1134-1135) ; ils lui montrèrent comment pourrait être réalisé l'agrandissement de la Mosquée et

(1) Tout ce passage et ces vers, relatifs au velum de l'atrium, figure textuellement dans *Djaḍwat*, p. 41.

(2) J'ignore ce que ce mot *cheîkh* pouvait désigner sous les Almoravides ; chez les Almohades, cheîkh servait à distinguer les descendants d'Abou Ḥafṣ ʿOmar, le compagnon du Mehdi, des descendants de ʿAbd el-Moûmen (cf. mes *Benou Ghanya*, p. 50 et 103). On sait que les acceptions de ce mot ont toujours été multiples.

(3) Le *Qirṭâṣ* (p. 38) le nomme Abou ʿAbdallâh Moḥammed ben Dâwoûd ; à part cela tout le passage du *Qirṭâṣ* est plagié par notre auteur, plagié à son tour par *Djaḍwat*, p. 41 et 42. La date donnée ici et qui ne figure pas dans le *Qirṭâṣ* nous reporte au dernier règne important de la dynastie almoravide ; ʿAli ben Yoûsof régna de 500/1107 à 537/1143.

briques, de chaux et d'autres matériaux ; puis il exécuta lui-même le travail, ne demandant rien à personne pour toute cette œuvre et disant : « Je n'ai en vue en ceci que l'amour d'Allâh, le Très-Haut » (1). C'est ce pavage qui existe encore aujourd'hui. Il compte dans sa longueur d'est en ouest 243 rangs (de briques) et chaque rang est de 218 briques, ce qui donne un total de 53,018 briques moins 26 (c'est-à-dire au total : 52,992 briques) (2). Quant à la longueur de l'atrium, mesurée en empans, elle est de 182, tandis que la largeur est de 25 empans.

Parmi les améliorations que fit apporter le qâḍi Moḥammed ben Dawoud dans l'atrium de la Mosquée d'El-Qarouiyîn, il y a le velum de bandes de cotonnade que l'on déploie sur cette cour le vendredi, en été, pour garantir du soleil les derniers rangs des fidèles arrivés en retard, en raison de l'éloignement de leurs demeures, et qui n'ont pu trouver de place (dans les nefs) trop étroites de la Mosquée (3).

On mit aux extrémités de ce velum deux chaînettes courant sur des poulies solidement fixées dans les angles de l'atrium. Ces chaînettes supportaient le velum quand on en avait besoin ;

---

(1) Ajoutons ici le texte du *Qirṭâs* (p. 41) : « Ce fut l'artisan Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Aḥmed ben Moḥammed El-Khoûlâni ; il s'imposa de n'y laisser ni dépression, ni boursouflure, mais que toute l'eau qui tombait sur la partie haute descendit, sans aucune déperdition, vers la partie basse, grâce au plan régulier de la surface..... Le travail fut fait par l'artisan précité, à ses frais et de ses mains, avec l'aide de Ṣakhr ci-dessus nommé, et il ne reçut rien de personne, n'ayant en vue que la récompense d'Allâh. Qu'Allâh les rétribue selon leur confiance ». Le texte de ces passages dans *Djadwat* est identique à celui de notre auteur. Il y a donc une certaine divergence entre la version du *Qirṭâs* et celle de notre texte. J'imagine que c'est le texte du *Qirṭâs* qui est le meilleur, comme étant le plus ancien, et le plus complet sur ce point.

(2) « 44,000 briques, car la longueur de l'atrium est de onze arcades et dans chaque arcade, du sud au nord, il y a 20 rangs de 200 briques chacun, ce qui fait 44,000 sans aucun doute, ni hésitation ». (Cf. *Qirṭâs*, p. 41-42). Il y a en tous cas dans le calcul de notre auteur une légère erreur, car 243 rangs de 218 briques chacun, doivent faire au total 52,994.

(3) Le *Qirṭâs* (p. 42) mentionne ce velum que l'on déployait en été sur l'atrium, mais sans donner autant de détails qu'ici.

Dans la suite, un incendie éclata du côté de (la porte dite) Bâb Es-Selsela[1] ; il dévora les souks à proximité de cette porte et atteignit la coupole de bois ci-dessus mentionnée ; elle fut consumée et cela eut lieu dans le mois de djoumâda II de 571 (décembre 1175-janvier 1176)[2].

Ensuite, la partie extérieure de la porte fut restaurée, ainsi que la voûte qui avait été brûlée. Cette voûte fut reconstruite en plâtre — à peu près dans la forme qu'elle a aujourd'hui — sous la direction de l'un des gouverneurs Almohades, en l'an 600/1203-1204, ainsi que le mentionne une inscription dans ce monument. Les dépenses faites à ce sujet furent payées sur les fonds du Trésor d'État[3].

A l'époque du qâḍi Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Dâwoûd, on construisit dans l'atrium deux nefs nouvelles du côté de l'Est et de l'Ouest[4]. C'est à cette époque que fut pavé l'atrium tout entier, ainsi que l'a indiqué l'auteur du *Miqbâs*[5]. L'auteur d'*El-Anîs* déclare que dans l'atrium se trouvaient des bassins pour l'eau. Ce fut l'habile artisan bien connu Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Aḥmed ben Ṣakhr qui fit les frais de ce pavage. Il possédait quatre maisons de l'héritage de son père ; il les vendit et en consacra l'argent à ce qu'il lui fallut de

(1) Voir l'emplacement de cette porte dans GAILLARD, Pl. II, p. 31, et MASSIGNON, p. 221.

(2) Le 24 djoumâda II, 571 (10 janvier 1176) dit le *Qirṭâs*, p. 39.

(3) Le texte du *Qirṭâs* (p. 39-40) est plus complet : « La coupole et la porte furent reconstruites par les soins et sur l'ordre du Sîd Abou Ḥafṣ fils de l'Émîr des Musulmans Yoûsof ben 'Abd El-Moûmen ben 'Ali, dans le mois de djoumâda II de l'an 600 (février 1204) ; le surveillant des travaux fut Abou-l-Ḥasan ben Moḥammed El-Azraq, marchand d'épices. Les frais de cette construction furent prélevés sur le Trésor public des Musulmans, sous le contrôle du Qâḍi Abou Ya'qoûb ben 'Abd El-Ḥaqq ».

(4) Cette indication de construction de deux nefs, manque dans *Qirṭâs*.

(5) Voici le texte plus complet du *Qirṭâs* (p. 41) : « L'atrium fut fait et pavé au temps du qâḍi Abou 'Abdallâh ben Dâwoûd. Le pavage et la construction furent confiés à Ṣakhr El-Benna qui était le plus habile des artisans en maçonnerie et en menuiserie. Cet atrium avait été pavé par d'autres avant lui, mais le travail n'était ni satisfaisant, ni achevé ».

d'avis de la retirer de là. Ils convinrent ensuite de consulter à ce sujet les savants de Fès ; ceux-ci leur conseillèrent de laisser la tortue où elle était et de refermer la construction voûtée comme auparavant [1].

Or cette décision juridique n'a pas de valeur — mais Allâh est le mieux renseigné — car, si la tortue y était vivante, il n'était pas licite de l'emprisonner dans une construction ; si elle était morte il n'était pas non plus licite de construire sur elle la Mosquée. O mon Dieu ! (si la tortue était vivante, il n'aurait été permis de construire sur elle) que dans le cas où elle aurait pu trouver dans cette eau sa nourriture [2] et que du fait de la construction effectuée il n'y aurait pas eu pour la tortue de souffrance à subir ; alors (seulement) la construction édifiée sur elle n'eût point été interdite.

Il se peut d'ailleurs qu'avant cette trouvaille des hommes aient observé plus d'une fois qu'il y avait préjudice porté à celui qui voulait tirer cette tortue de ce lieu, par exemple du fait que cet endroit était habité par des génies ou pour d'autre raison. Mais de ceci, Allâh est le mieux instruit [3].

Lorsque la construction de cette porte fut achevée, on édifia au-dessus une double coupole : la première recouverte de plâtre à l'intérieur de la porte ; la seconde, à l'extérieur, en bois de cèdre.

---

(1) Cette décision est bien dans le tempérament des docteurs maghribins de l'Islâm, redoutant le moindre changement, la plus mince décision à prendre lorsqu'ils ne peuvent appuyer leur sentence sur des textes juridiques. Même dans ce cas ils hésitent et préfèrent le *statu quo ante*, comme on le verra plus loin, à propos de l'orientation mauvaise des « mihrâb ». Tout ce qui suit manque dans *Djadwat*.

(2) Littéralement : « Dans le cas où cette eau eût été pour elle une nourriture ». Cpr. *Qirṭâs*, éd. p. 39.

(3) Il est dans la croyance courante des Musulmans de ce pays que les « djenoûn », ces démons dont le monde est peuplé, ont surtout pour habitat, les lieux sombres, humides et les dépotoirs (voir ma *Population musulmane de Tlemcen* et mon *Coup d'œil sur l'Islâm en Berbérie*).

direction du Khaṭîb Abou 'Abdallâh ben Moûsa El-Mo'allim (précité). Ceci est rapporté par l'auteur d'*El-Anîs*.

Quant à la très grande porte connue aujourd'hui sous le nom de Bâb Ech-Chemma'în [1], elle fut construite sur les fonds des ḥabous au temps du qâḍi Abou 'Abdallâh ben Dâwoud en 518/1124 [2], comme cela est écrit dans la coupole (décorée) de plâtres (sculptés) et se trouvant à l'intérieur de cette porte. Elle fut faite haute et large, sur le modèle de la porte voisine de celle-ci et mentionnée ci-devant. On lui fit deux grands vantaux dont les faces reçurent un beau décor qui existe encore aujourd'hui [3]. Lorsque l'on creusa les fondations de cette porte, on trouva, du côté gauche en entrant, à l'endroit où est aujourd'hui le banc une construction dissimulée que l'on pensa (cacher) un trésor [4]; une partie de cette construction (voûtée) fut démolie et l'on trouva au-dessous un bassin de huit empans de long sur autant de large; il contenait de l'eau et une tortue qui en couvrait toute la surface. Les ouvriers ne furent pas tous

---

(1) Cette porte fut d'abord nommée Bâb El-Fakhkhârîn El-Qodamâ et était désignée déjà au temps de l'auteur du *Qirṭâs* (cf. éd. p. 39) sous le nom de Bâb Ech-Chemma'în : elle a conservé ce nom jusqu'à nos jours et se trouve à l'Ouest de la Mosquée, en face de la petite place des Chemma'în, sur laquelle se vendent aujourd'hui des fruits secs.

(2) Il vaudrait mieux prendre ici la date du *Qirṭâs* (p. 39) : 528; c'est aussi par erreur que la *Djadwat* plagiant notre texte, donne 510 (cf. éd. p. 40). Il faudrait contrôler cette date sur l'inscription de la porte existant sans doute encore ; je ne l'ai pas fait.

(3) M. Ricard a consacré une courte étude à la Mosquée d'El-Qarouiyîn dans *France-Maroc* (n° du 15 mars 1918, 79 à 85); il en donne également un plan, sur lequel les portes sont indiquées, mais non nommées. Peut-être est-il fait allusion à un placage de bronze comme en ont deux portes de cette Mosquée du côté du quartier des « Sbitriyîn », comme celle de la Mosquée de Sidi Bou Médine à Tlemcen ? Je ne saurais l'affirmer, notre texte étant un peu concis sur ce point.

En ce qui concerne les portes monumentales dans l'architecture de Fès, on pourra se reporter à ce que j'ai dit de quelques-unes d'entre elles, dans mes *Inscriptions*, p. 330 et suiv.

(4) Le *Qirṭâs* (p. 39) donne des détails un peu plus complets; la *Djadwat* reproduit notre texte.

Cette suppléance dura jusqu'à la mort du père (le titulaire), le dimanche 13 cha'bân 761 (30 juin 1360).

Le fils en question, Abou-r-Rabî' prit donc pour lui seul la fonction d'Imâm ; il donna l'exemple du bien et de la droiture. Il quitta cette fonction de sa propre volonté — qu'Allâh le rende profitable (à tous) — en raison d'un ordre (administratif) qu'il avait reçu concernant sa charge.

Dès lors, la double charge de Khaṭîb et d'Imâm fut réunie dans la personne de Abou Moḥammed 'Abdallâh ben Es-Sabr[1] précité, vers la fin de l'an 766 (septembre 1365)[2].

Parmi les agrandissements de cette Mosquée d'El-Qarouiyîn (nous citerons) la très grande porte de l'Ouest donnant sur le quartier des Notaires[3]. Elle fut construite avec l'argent des ḥabous, à l'époque du qâdi, le faqîh Abou 'Abd Allâh Moḥammed ben 'Isâ Es-Sebti, en l'an 505 (1111-1112). C'est du moins ce que rapporte l'auteur du *Miqbâs*.

Plus tard, à l'extérieur de cette porte fut construite la coupole à stalactites de plâtre[4] — sur laquelle on lit encore en caractères maghribins (la date) de l'année 617/1220 — sous la

---

(1) Il vaut mieux lire avec *Djadwat* « Abou-ṣ-Ṣabr » ou plutôt Es-Sabri, selon les noms qui lui sont donnés ci-devant

(2) C'est ici que s'arrête la liste chronologique des Khaṭîb et des Imâms donnée par cet auteur. Faut-il, comme je le pense, en conclure que l'auteur de notre texte écrivait à cette époque ? Il n'aurait pas manqué de poursuivre cette liste s'il avait vécu après cette date, comme l'a fait Ibn El-Qâḍi dans sa *Djadwat* (p. 39-40) qui va jusqu'en 1003 de l'hégire, et comme l'avait fait avant eux deux, l'auteur du *Qirṭâṣ* allant jusqu'en 726.

(3) Cette porte n'est pas mentionnée dans le *Qirṭâṣ*. Elle existe encore mais au lieu d'avoir conservé le nom de *Bâb El-Mouwattiqîn*, elle a pris celui de *Bâb El-'Oudoûl* qui a le même sens et donne encore sur la rangée (*smât*) des boutiques des Notaires.

(4) L'encorbellement à stalactites de plâtre si courant dans la décoration hispano-moresque se nomme encore à Fès *mqarbes*. C'est pourquoi j'ai suivi pour ce passage la leçon *qoubba moqarbisa* donnée par *Djadwat* au lieu de *qoubba mouqawwîsa* donnée par notre Mst. Ce passage tiré d'El-Anîs ne figure ni dans l'édition de Fès du *Qirṭâṣ*, ni dans la traduction Beaumier.

public le choix qu'il a fait de vous et tout ce qu'il a mis (pour vous) d'affection dans le cadeau (qu'il vous fait) ».

Il accepta le cadeau, remercia et fit des vœux pour le bonheur du souverain. Il mit ces vêtements pour faire sa première Khoṭba, puis il en fit don à qui était digne (de les porter) parmi les grands de la ville; quant à lui il s'en tint à son costume accoutumé et ne cessa d'être traité avec honneur et distinction, le roi satisfaisant à ses besoins jusqu'à sa mort.

Il fut (à un moment) suppléé pour la Khoṭba, en raison d'excuses qu'il fit valoir, par le faqîh, le qâdi, le maître en Traditions islamiques, Abou 'Abdallâh Moḥammed ben El-Ḥâdjj Abou-l-Ḥasan 'Ali ben 'Abd er-Razzâq El-Djazoûli.

Quant à Abou-l-Hadjjâdj Yoûsof, il continua à s'excuser de ne pouvoir faire la Khoṭba jusqu'à ce que le faqîh Abou 'Abdallâh ben 'Ali prit pour lui complètement cette fonction. Ce dernier resta Khaṭîb jusqu'à ce que la mémoire lui fit défaut et qu'il se rendit compte de son impuissance à faire le prône.

La charge de Khaṭîb fut confiée après lui au faqîh très juste et vertueux Abou Moḥammed 'Abdallâh fils du Khaṭîb Abou Moḥammed 'Abd El-Wâḥid, fils lui-même du Khaṭîb Ibn El-'Achîri Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Abou-ṣ-Ṣabr, sur la désignation d'Abou 'Inân — qu'Allâh le Très-Haut lui soit Miséricordieux — le jour où le prédécesseur fut incapable (de continuer ce service), et cela eut lieu le vendredi 14 djoumâda I, de l'an 758 (6 mai 1357).

Le faqîh Abou 'Abdallâh ben 'Ali ben 'Abd Er-Razzâq. précité mourut le dimanche 4 de ḍou-l-qa'da 758 (20 octobre 1357).

Le vertueux Abou-l-Ḥadjjâdj (Yoûsof) resta Imâm jusqu'à ce qu'il tomba malade et fut dans l'incapacité de remplir sa fonction. Il chargea de le remplacer son fils, le jeune, vertueux, saint et scrupuleux Abou-r-Rabî' Solaïmân qui le suppléait (en cas d'empêchement) dans sa fonction. Ce fils refusa d'abord puis il accepta le mercredi 18 ramaḍân 760 (14 août 1359).

première Khoṭba (qu'il devait prononcer) un riche vêtement comprenant : « un bernoûs (1) et une tunique » (2), tous deux en laïne blanche. des « ḥizâm » pour se couvrir (3), un Djondabân (4) en guise de turban, deux robes de soie de raṣân (5), une « qobṭîya charâchiya » (6).

L'envoyé du roi chargé d'apporter ces dons (au Khaṭîb) lui dit « La valeur de ces vêtements dépasse cent dinârs d'or ». En les recevant, le destinataire fut confus de ce cadeau et s'écria : « Ces vêtements ne conviennent point à quelqu'un comme moi et le costume que je porte me suffit bien ». L'envoyé comprit qu'il s'excusait ainsi de ne les pouvoir accepter et lui dit : « Vous comptez parmi les savants et vous avez bien des raisons pour les accepter. En tous cas le désir de celui qui les envoie et (vous) les offre est d'honorer les hommes de science de votre valeur, afin que les titulaires de charges publiques soient distingués des autres ; c'est aussi pour apprendre au

(1) Ce mot est écrit برنوص conformément à la prononciation actuelle dans ce pays (avec un ص et non un س). Sur ce costume, voir Dozy (qui ne donne pas la prononciation en ص) dans son *Dict. des N. de Vêtements*, p. 73 à 80.

(2) Cf. Dozy, *Dict. des N. de Vêtements* 56 à 58 qui pense que cette tunique d'homme, sans manche est propre à l'Arabie. Le vêtement était connu dans toute l'Afrique du Nord et en Espagne. Dans son *Supplément aux Dict.*, I, 58, il donne ce mot aussi dans le sens de *robe de soie* portée par les Juives ; ce n'est pas une robe seulement de soie, mais surtout une *robe de velours* avec broderie d'or et d'argent sur le devant dans le costume actuel des juives de Tlemcen.

(3) Je ne vois pas bien le rôle de ces « ceintures » ou de ces « écharpes » appelées « ḥizâm » et qui paraissent d'après ce texte être assez larges cpr. Dozy, *N. de Vêtem.*, 139 à 142. Peut-être vaudrait-il mieux lire احرام avec *Djaḍwat*, p. 38.

(4) Ce mot ne figure pas dans les Dictionnaires.

(5) *Djaḍwat* ajoute ملّويتين « retordus », après ذراعتين, mais n'ajoute pas les mots من ثوب رصان ; je ne vois pas bien ici le rôle de cette pièce du vêtement (cf. Dozy, *N. de Vêtem.*, p. 177 et sur le mot رصان ou رسان voir *Supplément aux Dictionnaires*, s. v.).

(6) Je n'ai trouvé aucun renseignement sur cette sorte de costume d'homme. Au lieu de notre texte شراشية العمل il vaudrait peut-être mieux lire سوسية العمل « du travail du Sous » avec *Djaḍwat*, p. 38.

On a rapporté (ici) une telle poésie parce qu'elle grandit le poète par la reconnaissance (qu'il témoigne) de la quiétude (dont il a été gratifié), ainsi que pour avertir celui qui s'est égaré et pour servir d'exemple à l'homme intelligent (1).

Après (El-Mazdaghi) la Khoṭba fut confiée au faqîh, lecteur du livre d'Allâh le Très-Haut, Abou Moḥammed 'Abdallâh (ben Moḥammed) El-Djanyâri. Il jeûnait fréquemment. Il fut nommé à cet emploi par Abou-l-Ḥasan, Émir des Musulmans — qu'Allâh lui accorde Sa Miséricorde — (et conserva cette charge) jusqu'à sa mort, le jeudi 26 djoumâda I, 750 (13 août 1349).

Il fut remplacé par le cheikh, le savant, vertueux et saint faqîh Abou-l-Ḥadjjâdj Yoûsof ben 'Omar El-Anfâsi, désigné pour cet emploi par notre maître (feu) Abou 'Inân — qu'Allâh lui fasse Miséricorde — après que ce souverain eut consulté le sort (2), qu'il eut examiné la situation et compris que là était l'intérêt des Musulmans.

Ce personnage accepta la nomination après avoir présenté des excuses (pour la refuser) ; ces excuses ne furent point acceptées (par le souverain) parce que l'intérêt (des fidèles) l'emportait sur les raisons présentées. Le public se réjouit de cette nomination faite par Abou 'Inân et le remercia de sa sollicitude pour les choses de la religion.

Le souverain envoya au nouveau Khaṭîb, à l'occasion de la

---

(1) Ce passage manque dans la *Djaḍwat*.

(2) On remarquera que sous les Mérinides, ce sont les Sultans qui nomment à cet emploi de Khaṭîb, alors qu'auparavant c'était le Khaṭîb en fonction qui désignait avant sa mort son successeur, ou laissait parfois ce soin à l'assemblée des docteurs de Fès. C'est l'un des traits du Gouvernement Mérinide de s'être réservé les nominations à tous les emplois du culte aussi bien que de l'Administration ; et c'est pour former ces fonctionnaires que les Mérinides ont fondé les Médersas (cf mes *Inscriptions*, p. 87 et s.).

Quant à la prière d'*Istikhâra* à laquelle il est fait ici allusion, elle est prescrite par l'Islâm dans des conditions déterminées (cf. p. ex. note de M. Abou Bekr, sur l'*Istikhâra*, in Bull. soc. de Géog. d'Oran, 1908).

Voici un extrait de cette poésie : *El-Basît*

« *Après Dieu, je n'ai point (d'autre soutien) que l'Émir des Musulmans 'Ali, celui qui suit la voie des (Saintes) Écritures et des Envoyés ;*

« *Je n'ai que lui pour ce que j'espère obtenir comme refuge* (1) ; *je n'ai que lui pour réaliser mes demandes et mes espérances.*

« *C'est le fils du Khalife 'Oṯmân, grâce auquel les hautes vertus ont brillé d'un éclat qu'on ne peut éclipser,*

« *Je veux dire par là le pôle des Rois, celui qui a fait revivre le khalifat, par la science et l'action.*

« *Il est la force* (2) *des souverains qu'atteint une épreuve, la pluie (des générosités) pour les quémandeurs, la sécurité pour le peureux et le craintif.*

« *C'est un doux Océan de mansuétude, débordant pour qui vient s'y désaltérer ; et tu pourras t'y désaltérer, que tu sois rassasié* (3) *aussi bien que si tu meurs de soif.*

« *Au jour de la fureur des combats, il te fera oublier le (fameux) 'Amr (ben Ma'di Kariba des Anciens Arabes)* (4) *au moment de la charge ; et pourtant 'Amr n'a pas son pareil.*

« *Les décisions (d'Abou-l-Ḥasan) sont tranchantes ; il est unique dans la bravoure ; il dépasse tous ceux dont on peut narrer les belles qualités, tous ceux que l'on peut donner en exemple !* »

Djaḏwat. Il est assez curieux que ce Khaṭîb soit si bien rentré en grâce auprès du Sultan que celui-ci plaça sous son nom, et sans doute sous sa gestion, les immeubles ḥabous qu'il affecta à l'entretien de la Médersa Meṣbâḥiya fondée en 747 (cf. mes *Inscriptions*, p. 240). Il avait si mal tenu sa propre fortune que ce devait être un bien mauvais gérant des biens d'Église.

(1) Ou bien avec *Djaḏwat* « en fait de grâces ».

(2) L'auteur de la *Djaḏwat* remplace ce mot (غـز) par غـوث « secours » qui donne à la fois un meilleur sens et qui est une heureuse réplique, dans le langage des mystiques au mot qoṭb, « pôle », du vers précédent.

(3) Dans le dénuement (عـيـل) dit la *Djaḏwat* au lieu de ceci.

(4) Sur ce célèbre guerrier arabe qui se fit musulman et mourut très avancé en âge, sous le Khalifat de 'Omar, vers l'an 23, on consultera, par ex. Caussin de Perceval, *Essai sur l'Histoire des Arabes*, t. III, 292, 312, 485-488 et *pass.*

lumière de mes yeux ! alors que tu es un pontife plein de grandeur et de vertu ?

« *Comment un homme, ton ami* (1), *serait-il injustement traité et méprisé dans les campagnes et dans les villes ?*

« *Or tous les savants ont déclaré que (dans ma faute) il n'y a aucun préjudice (sérieux, causé a mes créanciers),*

« *Que le maximum de ce qu'ils (m')imputent n'est que peu de chose, et qu'il n'y a pas de mal pour celui qui n'a commis que des fautes insignifiantes.*

« *Puis-je donc être éloigné de toi sans faute grave ? Pourrais-je être empêché par une violence (injuste) de monter en chaire ?*

« *Encore si je savais, ô mon maître, que celui qui gravira comme je l'ai fait les marches de la chaire ait ma valeur,*

« *Je n'élèverais point mon âme vers quoi que ce soit de (cette) gloire, mais je lui imposerais (volontiers) la disgrâce de me tenir dans les derniers rangs (des fidèles).* »

Lorsque (le roi Abou-l-Ḥasan) eut lu cette poésie, il se repentit d'avoir retiré son emploi à ce (Khaṭîb) et écrivit dans ce sens aux habitants de Fès, alors qu'il était à la Manṣoûra près de Tlemcen, le 13 cha'bân 746 (10 décembre 1345) (2).

L'Émir Abou-l-Ḥasan avait lu aussi une poésie de ce même auteur que ce dernier avait adressée à sa cour royale lorsque, écrasé par les dettes il implorait, pour les payer, l'aide de ce souverain. (Abou-l-Ḥasan) en avait été confus et avait fait servir à l'auteur une pension de cent cinquante dinârs par mois jusqu'à sa mort, survenue à la fin de chawwâl 748 (1er février 1348) (3).

---

(1) La *Djadwat* qui cite cette poésie donne ici pour ce premier hémistiche : « Comment El-Mazdaghi, ton humble serviteur.... ».

(2) Après avoir fait la conquête de Tlemcen où il entra le 28 de ramaḍân 737 (2 mai 1337), Abou-l-Ḥasan s'installa dans le « Palais de la Victoire » à Manṣoûra. Il y resta jusqu'au moment où il entreprit sa grande expédition contre Tunis (en 748).

(3) Cette pension provenait des produits (des impôts sans doute) de la ville de Fès ajoute le texte, ainsi que le plagiaire Ibn El-Qâḍi dans la

(Les poètes) se recommandaient de lui auprès des Khalifes, des Émirs et des autres (personnages) quand ils en avaient besoin, à cause du rang qu'il occupait auprès de ces (hautes autorités). Il s'occupait beaucoup de labourage, de culture de céréales et de plantation d'arbres ; il possédait d'abondantes ressources. Mais il faisait des dépenses considérables pour lui-même et pour son entourage, surtout en fêtes et en festins. Il fut bientôt criblé de dettes, négligea de veiller à la conservation de ses biens et aux revers de la fortune ; il se montra d'une trop grande bonté pour ses intendants. On lui attribuait comme passif une somme considérable, atteignant trente et un mille trois cents dinârs d'or pour la totalité des dépôts reçus par lui. Or, lorsque les déposants réclamèrent leurs biens et se dressèrent contre lui, ce qu'il possédait (d'argent), ainsi que la valeur de (ses) biens, de (ses) immeubles, etc. (1) n'arrivait pas au chiffre de dix mille cinq cents dinârs d'argent. Les créanciers se partagèrent cela au prorata de ce qui leur était dû.

Quand l'Émir des Musulmans Abou-l-Ḥasan — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — eut connaissance de ces faits avec certitude, il lui retira la fonction de Khaṭîb et d'Imâm. (Abou-l-Faḍl) voyant que (tout) cela lui faisait du tort et que l'ordre de lui retirer son emploi était donné, adressa au souverain ces vers : *Tawîl*

« *O mon maître ! Gloire des souverains ! toi qui as des mérites supérieurs à ceux des plus grands souverains,*

« *N'aurais-tu aucune bienveillance et ne prendrais-tu pas en pitié mon malheur, alors que l'amour pour toi demeure dans les entrailles et dans les cœurs ?*

« *Alors que mon affection pour toi se renouvelle sans cesse en mon cœur, au su de tout le monde, citadins et ruraux !*

« *Comment l'attachement (à toi) pourrait-il disparaître, ô*

(1) La *Djadwat* qui donne tout ceci dit simplement ici : « Ce qu'il possédait (d'argent) et de biens ».

belle conduite, riant peu, enclin à régler les affaires des gens qu'il connaissait aussi bien que de ceux qu'il ne connaissait pas, soit par lui-même, soit par son argent, soit par correspondance ; il était distingué et très libéral, au point de ne jamais repousser la requête d'un solliciteur ou d'un poète ; au contraire, il se hâtait de leur donner satisfaction (1).

Souvent, à ceux qui le blâmaient (de sa générosité à l'égard des poètes) il récitait ces vers en guise d'argument :

El-Kâmil

« *N'acceptez point une poésie pour la laisser ensuite de côté ; car tandis que vous dormez, les poètes demeurent sans sommeil.*

« *Sachez que les poètes, s'ils ne sont pas traités avec équité, rendent des jugements en leur propre faveur et contre leurs juges eux-mêmes.*

« *La faute que commet quelqu'un à leur égard s'efface, mais le châtiment qu'ils infligent (dans leurs vers) demeure à travers le temps* ».

---

duquel le cheikh vertueux et pieux, Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Abi ṣ-Ṣabr Iyoûb occupa les charges d'Imâm et de Khaṭîb. Il les conserva jusqu'à sa mort en l'an 690/1291. A ce moment l'Émir des Musulmans, feu Abou Ya'qoûb ben Abi Yoûsof ben 'Abd El-Ḥaqq, nomma Imâm le cheikh, le faqîh versé dans la science des *Traditions*, le dévot Abou-l-'Abbâs fils de feu le savant faqîh Abou 'Abdallâh ben Râchid le premier de son temps dans la science des *Sources* et des *Dogmes*. Ce même souverain confia la Khoṭba au faqîh, versé dans la science des *Traditions*, le vertueux, distingué et béni Abou-l-Ḥasan, fils du cheikh, faqîh et Khaṭîb feu Abou-l-Qâsim El-Mazdaghi.

Abou-l-'Abbâs ben Râchid resta Imâm de la Mosquée d'El-Qarouiyîn pendant environ trois ans, puis il fut écarté de cette fonction et le faqîh Abou-l-Ḥasan El-Mazdaghi prit pour lui seul la double fonction d'Imâm et de Khaṭîb jusqu'au moment où il atteignit un âge avancé et devint trop faible pour prononcer la Khoṭba. La charge de Khaṭîb fut alors occupée par son fils le distingué et pieux faqîh, le béni Abou-l-Faḍl. Qu'Allâh (nous) conserve les bénédictions de ces (personnages) par Sa Bonté et Sa Générosité ; certes Il entend tout, Il est Généreux, Il exauce (les prières) ; qu'Il soit glorifié et exalté ! »

(1) Ce personnage est mentionné dans la table des ḥaboûs de la Médersa Misbâhiya fondée en 747 (1346-1347) par le Sultan Mérinide Abou-l-Ḥasan 'Ali (voir cette inscription dans mes *Inscriptions*, p. 240 et note 2).

de l'Imâmat le Cheîkh et faqîh, lecteur de Qoran (à El-Qarouiyîn [selon Qirṭâṣ]) Abou-l-'Abbâs ben Abi Zar'.

Ces deux personnages conservèrent leur fonction pendant soixante-dix jours, après quoi la charge de Khaṭîb fut confiée au cheîkh et faqîh Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Abi ṣ-Ṣabr 'Iyoûb ben Yaknoun Ezzenâti En-Nefsadji des Beni Seder[1]; fut chargé en outre de la fonction d'Imâm par ordre de l'Émir des Croyants Abou Ya'qoûb (le Mérinide) en l'an 689/1290, jusqu'à sa mort qui survint le 9 ḍou-l-qa'da de l'an 693 (12 octobre 1294).

Après lui devint Khaṭîb le faqîh Abou-l-Ḥasan Yaḥya ben Abou-l-Qâsim 'Abd Er-Raḥmân ben Moḥammed ben Yoûsof ben 'Imrân ben El-Foutoûh El-Mazdaghi, le 19 djoumâda II, 694 (7 mai 1295). La fonction d'Imâm fut confiée au faqîh versé dans la science des *Traditions* et des *Sources* Abou-l-'Abbâs Aḥmed ben Râchid El-'Imrâni par ordre de l'Émir des Croyants Abou Ya'qoûb (le Mérinide) — qu'Allâh lui soit Miséricordieux — le 20 du même mois de djoumâda. Il remplit sa fonction pendant trois ans; puis il en fut écarté et elle fut confiée au Khaṭîb Abou-l-Ḥasan El-Mazdaghi précité, jusqu'à la mort de celui-ci, le 25 de chaouwal de l'an 726 (24 septembre 1326). Il fut remplacé par son fils, le faqîh versé dans la science des *Traditions*, Abou-l-Faḍl Moḥammed[2]. C'était un homme d'une

---

(1) Le *Qirṭâṣ* (p. 52) l'appelle Abou 'Abd Allâh Moḥammed ben Abi ṣ-Ṣabr; la *Djaḍwat* (p. 36) ajoute à ces noms Iyoûb ben Yaknoun El-Djânâti seulement.

(2) L'auteur du *Qirṭâṣ* qui écrivait son livre *à Fès* en 726 (1327) termine ici l'énumération des Khaṭîb et des Imâm d'El-Qarouiyîn. Il a été plagié pour tout ce chapitre par l'auteur du texte que je traduis qui a été plagié à son tour par celui de la *Djaḍwat*. Cependant le *Qirṭâṣ* donne ce dernier passage d'une façon différente, comme je l'ai signalé en note du texte arabe. L'auteur du *Qirṭâṣ* ayant assisté aux événements pour cette période il est utile de donner ici sa version (éd. de Fès, p. 52-53; voir trad. Beaumier, p. 100-101 assez différente) : « (Ces deux personnages conservèrent leur fonction) pendant 70 jours. Alors parvint un ḍahîr (rescrit) de l'Émir des Musulmans Abou Yousôf ben 'Abd El-Ḥaqq à la suite

tionniste » Abou Dorr El-Ḥasani, alors que j'étudiais sous sa direction le chapitre des *Jugements* dans les *Traditions musulmanes*, le jour même de la mort du faqîh Abou Moḥammed ben Moûsa, le Maître d'école (qoranique), et de son remplacement (à la fonction d'Imâm) par El-Qoḍâ'i, m'a dit après m'avoir longuement regardé : « Moḥammed, tu seras investi de la fonction d'Imâm dans la prière publique à la Mosquée d'El-Qarouiyîn, mais cela ne sera qu'à la fin de ta vie ». Quand on me proposa l'Imâmat, je me suis souvenu de la parole du cheikh ; j'ai compris que mon terme était prochain et je me suis dérobé (à cette fonction).

Cependant Abou 'Abdallâh Moḥammed El-Mazdaghi demeura Imâm, et son fils Abou-l-Qâsim, Khaṭîb, jusqu'à ce que Abou 'Abdallâh Moḥammed mourut, le 9 rabî' II, de 655 (27 avril 1257) (1).

Il fut remplacé comme Imâm par le cheikh, le faqîh vertueux, pieux et dévot, Abou-l-Ḥasan 'Ali ben Ḥomaïd. Puis le Khaṭîb Abou-l-Qâsim El-Mazdaghi (2) précité étant mort, la charge de Khaṭîb passa au faqîh Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Zyadet Allâh El-Madani qui la garda jusqu'à sa mort.

Peu après celui-ci, mourut à son tour Abou-l-Ḥasan ben Ḥomaïd — qu'Allâh le Très Haut les accueille tous deux au sein de Sa Miséricorde !

Puis la charge de Khaṭîb fut confiée sur présentation des docteurs et des professeurs de la ville, au cheîkh et faqîh, Abou-l-Qâsim 'Abd Errahmân ben Machoûna, tandis que fut investi

(1) La *Djadwat* (p. 36) nomme ce personnage Abou 'Abd Allâh Moḥammed El-Mazda'i et plus loin (même page) El-Mazdaghi et donne le 29 (au lieu du 9) comme date de sa mort. Cette date manque dans *Qirṭâs*.

(2) Le fils de Abou 'Abdallâh ci-devant indiqué. C'est à partir de ce moment que la Khoṭba et l'Imâmat sont séparés et deux personnages — au lieu d'un seul — sont chargés chacun de l'une des deux fonctions. Notre texte et celui de la *Djadwat* qui le plagie, sont moins complets et moins précis que le texte du *Qirṭâs* (p. 52) que je suivrai dans ma traduction.

LIBRARY OF THE UNION THEOLOGICAL

Il fut remplacé comme Khaṭîb par le dévot Abou-l-Ḥasan ʿAli, connu sous le nom d'Ibn El-Ḥâdjj. On raconte que lorsque se retira Abou Moḥammed ʿAbd El-Ghaffâr, les fidèles s'adressèrent au pieux cheîkh Abou Moḥammed ʿAbdallâh El-Fichtâli pour qu'il leur trouve un Khaṭîb ; il leur promit de s'en rapporter à Allâh, le Très Haut, pour celui qui conviendrait comme Khaṭîb. Il vit en songe le Prophète — qu'Allâh lui accorde Sa Miséricorde et le Salut — qui lui désigna Abou-l-Ḥasan. Au matin, les fidèles auxquels il avait promis (de leur choisir un Khaṭîb), vinrent le trouver ; il leur dit : « Prenez Ibn El-Ḥâdjj ». Celui-ci refusa ; ils insistèrent à plusieurs reprises ; mais il ne voulait pas habiter le local réservé, comme bien ḥabous (au logement) des Imâms de la Mosquée et disait : « Il ne convient pas que le logement soit la rétribution de la charge d'Imâm »[1] ; il se refusa à cette éventualité. On lui objecta alors : « Mais en n'habitant pas ce logement, tu annulerais la qualité de ḥabous dont le fondateur de cet immeuble l'a affecté ». — « Accordez-moi un délai, ajouta-t-il, pour rechercher la solution de cette question ». Finalement il accepta d'habiter ce local à la condition qu'il (travaillerait à) coudre les nattes de la Mosquée. Il voyait là un moyen de payer son logement et (pensait) qu'Allâh lui en tiendrait compte.

Il mourut — qu'Allâh lui soit miséricordieux — l'an 653/1255.

Il fut remplacé par le cheikh, le faqîh que l'on consulte, le dévot Abou ʿAbdallâh Moḥammed ben Yoûsof El-Mazdaghi qui se fit suppléer dans la suite par son fils. Lorsqu'on lui offrit la fonction d'Imâm il refusa à trois reprises. Comme on lui demandait pourquoi, il déclara : le cheikh, le ḥâfiḍ et « tradi-

(1) Qui doit être gratuite. Ibn Ḥamdoûn dans sa glose sur le commentaire de Mayâra (éd. Boûlâq de 1316 H.), p. 163-164, donne des détails sur cette question à propos des Muezzins et des Imâms. Il ressort que les indemnités pour ces fonctions sont licites si elles proviennent des fonds de l'État ou des Ḥabous, non dans les autres cas. Mais cependant les docteurs ne sont pas d'accord et il en est qui inclinent à penser que ces charges doivent être gratuites

Il fut remplacé par le cheikh, le pieux faqîh, El-Hâdjj Abou 'Abdallâh Moḥammed ben 'Abdallâh, surnommé El-Khaṭîb.

Celui-ci mourut en 635. Il eut pour successeur le cheikh, le vertueux et pieux faqîh Abou Moḥammed 'Abd El-Ghaffâr pendant six mois, puis il abandonna sa fonction. La raison de ce renoncement fut qu'un envieux répandit sur son compte le bruit qu'il mettait un « tanouîne » sur le *mîm* de « es-salâmou » et disait « *essalamoun 'alaïkum* »[1]. A cette nouvelle (Abou Moḥammed) convoqua un groupe de notables de la ville et leur dit qu'il avait appris que l'on prétendait qu'il mettait le « tanouîne » à *es-salâmou*.

« Par Allâh, ajouta-t-il (je jure) ne point l'avoir fait. Vous choisirez quelqu'un pour me remplacer (comme Imâm) ; je jure par Celui qui est la seule divinité que je ne me mettrai jamais devant personne pour faire la prière[2].

---

astronomiques. Or au temps où il était Imâm, vint (à Fès) de Qṣar Kotâma le faqîh, le muezzin Abou-l-Hadjâdj Yoûsof ben Moḥammed ben 'Ali Es-Saqṭi, doué d'une belle voix pour l'appel à la prière et pour la liturgie ; il connaissait aussi la détermination des moments. Le qâdi Abou Yaqoûb Yoûsof ben 'Imrân donna l'ordre au Khaṭîb Abou 'Abdallâh Ech-Chabli d'abandonner un seul jour (à Abou-l-Ḥadjâdj) le soin de faire la Khoṭba, afin que celui-ci se fît apprécier par ce moyen et fût porté sur la liste des Khaṭîb. Ech-Chabli prétexta une maladie et (Abou-l-Hadjâdj) fit à sa place la Khoṭba. Il faisait d'ailleurs déjà la Khoṭba à la Mosquée de la Qaṣba lorsque le Khaṭîb de cette Mosquée était malade »

(1) Le fait de pouvoir accuser un Khaṭîb d'une faute aussi grossière, montre que des lettrés étaient sujets à caution en ce qui touchait à la connaissance de la plus élémentaire morphologie. Il en est encore de même aujourd'hui à Fès pour certains lettrés qui se sont spécialisés dans le « fiqh » avant d'avoir acquis une connaissance assez sérieuse de la grammaire arabe.

(2) Ces paroles manquent dans *Qirṭâs* qui donne tout le reste. D'ailleurs le rôle d'Imâm passe pour avoir été assez peu recherché par des personnages scrupuleux. On attribue par exemple au gendre du Prophète 'Ali ben Abi Ṭâleb ces paroles : ataqaddamou 'ala s-souyoûf oualâ ataqaddamou 'ala ṣ-ṣoufoûf : « Je marcherai volontiers à la tête des guerriers mais non devant les fidèles en prière ». C'est que l'Imâm est responsable moralement devant Dieu de la validité de la prière de tous les fidèles placés derrière lui.

lui avait donnés, mais s'excusa de ne pouvoir accepter les mille dinars. Le souverain lui pardonna (ce refus).

Il ne cessa d'occuper (la double fonction) de Khaṭîb et d'Imâm jusqu'à sa mort, survenue le onze radjab de l'an 611 (17 novembre 1214) [1].

La charge de Khaṭîb fut occupée après lui par le faqîh Abou Moḥammed 'Abdallâh El-Qoḍaï [2] qu'il avait désigné pour le remplacer, pendant la maladie (dont il mourut). Des Musulmans s'attachèrent à le perdre et le calomnièrent en disant qu'il envoyait des enfants de son école (qoranique) trouver des femmes (de sa part). L'affaire fut examinée par un fonctionnaire investi d'un contrôle général qui déclara : « Celui qui a mis (cet Imâm) à cette place a assuré l'Émir des Croyants, En-Nâṣir, que (son remplaçant) valait mieux que lui, laissez-le donc tranquille ».

Cependant Abou Moḥammed abandonna son école qoranique et demeura complètement à la Mosquée (d'El-Qarouiyîn) où il logeait dans le local affecté, au titre de ḥabous, à l'habitation des Imâms de ce temple. Il y resta jusqu'à sa mort, le jeudi 22 ramaḍân 615 (12 mars 1219) [3].

Après lui la Khoṭba fut faite par le faqîh, le savant Abou 'Abdallâh Moḥammed ben 'Abderrahmân Ech-Chabli ; il appartenait à la classe des savants, des hommes de piété et de mérite ; il avait une voix agréable (pour l'appel à la prière) ; il savait déterminer les moments (des prières) [4]. Il mourut en 629 (1231-1232).

---

(1) Même date donnée par *Qirṭâṣ* (éd. p. 51) et par *Djadwat* (p. 35). La traduction Beaumier donne par erreur la date de 621.

(2) Abou Moḥammed Qâsim selon *Qirṭâṣ* (p. 51) ; voir sur ce nom *Djadwat* (p. 35).

(3) Cette date est donnée par *Qirṭâṣ* (éd. p. 51, 23 ramaḍân) mais on lit 625 dans la traduct. Beaumier (p. 99). Tout le passage tiré du *Qirṭâṣ* est reproduit d'après notre texte dans *Djadwat* (p. 35).

(4) Le *Qirṭâṣ* (p. 51) d'où est tiré également ce passage en dit un peu plus long : « Il savait déterminer les moments et avait des connaissances

qui présiderait à cette prière, le qâdi dit au fils du défunt : « Avance-toi et préside la prière sur ton père »[1]. (Abou Moḥammed) s'avança donc et fit la prière des funérailles sur le corps de son père, puis les assistants s'en allèrent.

(Abou Moḥammed) remplit la fonction (d'Imâm et de Khaṭîb) à la place de son père et il plut aux fidèles. Lorsque vint à Fès En-Nâsir ben El-Manṣoûr[2], il le fit mander pour faire sa connaissance. (Abou Moḥammed) se présenta devant le souverain, le salua et resta jusqu'au moment du ḍouhour à s'entretenir avec lui. Alors En-Nâṣir lui dit : « Viens prier avec nous », puis il ajouta « Qui as-tu laissé à ta place pour présider la prière publique ? » — « J'ai laissé, répliqua Abou Moḥammed, quelqu'un de meilleur que moi-même, mon maître, celui qui m'a enseigné le Qoran. J'ai agi de la sorte parce que, lorsque votre envoyé est venu me chercher, je me suis aussitôt préoccupé de choisir celui qui me remplacerait pour cette prière ; je ne savais pas en effet quand je serais de retour, si ce serait plus ou moins tôt. Mais je me suis souvenu de la parole du Prophète — sur lui soit le salut — « Ton maître est celui qui t'a enseigné un verset (du Qoran) ». Je l'ai informé de l'affaire et l'ai prié de me remplacer dans ma fonction (d'Imâm et de Khaṭîb) ».

En-Nâṣir s'écria : « Qu'Allâh t'en récompense » et il le laissa partir. Il le fit suivre par un esclave blanc portant un paquet de vêtements et une bourse contenant mille dinars.

(Abou Moḥammed) revint auprès d'En-Naṣir, le remercia, invoqua Dieu en sa faveur, accepta les vêtements que le Sultan

---

(1) Le fait de faire présider la prière des funérailles du père par le fils était de la part du qâdi une indication qu'il reconnaissait en lui les qualités requises pour l'imâmat ; c'était donc une désignation tacite pour remplir la fonction d'Imâm à la place du père et c'est ainsi que l'entend évidemment l'auteur en montrant par là que cet Imâm fut désigné par Allâh, selon l'expression du père avant sa mort.

(2) Ce souverain almohade, troisième successeur de 'Abd El-Moumen, régna de 595/1198 à 610/1213.

vit et son aspect ne lui plut pas ; il le trouva détestable. Comme il manisfesta quelque chose (de cette opinion), l'un des assistants lui répondit : « Lorsque vous aurez entendu son prône (cet homme) vous plaira ».

Ayant entendu le prône (le qâḍi) se mit à pleurer et demanda qu'on lui pardonnât et que l'on fît des invocations en faveur de cet homme.

Ce (Khaṭîb) pleurait facilement et multipliait les actes d'humilité. La crainte (de Dieu) dominait chez lui en toute circonstance.

Abou Moḥammed Yachkor mourut le 21 de ḏou l-qa'da de 598 (1) (13 août 1202) et demeura Imâm de la Mosquée durant quarante ans pendant lesquels il n'eut pas de négligence dans sa fonction et montra une exactitude parfaite. Il ne laissa pas d'enfant, et les Beni Yachkor qui se trouvent aujourd'hui à Fès ne sont pas ses descendants, bien qu'ils portent le même nom.

Alors Abou 'Imrân réunit à lui seul la fonction de Khaṭîb et cette d'Imâm jusqu'à sa mort le 8 safar 599 (28 octobre 1202) (2).

Après lui la fonction de Khaṭîb fut occupée par son fils, le faqîh Abou Mohammed 'Abdallâh. Le jour où il fut investi de cette fonction il n'avait que dix-huit ans. Il avait une haute réputation de belle conduite, de savoir, de piété, de valeur, de renoncement au monde, de bonnes manières. Il n'avait point goûté aux plaisirs de l'enfance et n'avait cessé de s'adonner à l'étude de la science et aux pratiques du culte. Lorsque son père Abou 'Imrân tomba malade on lui dit : « Choisis ton fils pour te remplacer à la prière ». — « Si, répliqua-t-il, Allâh reconnait en lui quelque bien, qu'Il le désigne (pour me remplacer) ».

Or lorsque mourut Abou 'Imrân, que son corps fut transporté vers la tombe et déposé sur le bord de celle-ci pour la prière (des funérailles), les assistants pleurèrent. Comme on cherchait

(1) Même date dans *Qirṭâs* (éd. 197).

(2) La date de 598 donnée par notre Mst. est une erreur. C'est 599 qu'il faut lire avec *Qirṭâs*.

Serviteurs, ô Toi, le plus Miséricordieux des Miséricordieux ! »

Quand (pour sa première Khoṭba) le muezzin appela à la prière du vendredi, Abou 'Imrân revêtit ses plus beaux habits et se rendit à la Mosquée ; il s'assit dans sa chambre jusqu'à ce ce que fut terminé l'appel à la prière [1].

Alors il se leva et prononça la Khoṭba sans s'arrêter, ni hésiter. Puis il pénétra dans le miḥrâb ; il apporta dans sa lecture de la Khoṭba, tant de science et de méthodiques divisions que tous les assistants pleurèrent.

Quand la prière fut achevée, les fidèles vinrent auprès de lui pour lui baiser les mains et recevoir sa bénédiction [2].

Il conserva cette fonction de Khaṭîb jusqu'à l'arrivée (à Fès) du faqîh, le qâḍi Abou Moḥammed 'Abdallâh ben Mîmoûn El-Howâri.

Sa première question aux gens de la ville fut au sujet du Khaṭîb de la Mosquée d'El-Qarouiyîn. On lui en dit du bien et l'on fit abondamment ses louanges. Le vendredi suivant il le

---

(1) Selon un usage assez général je crois dans l'Afrique du Nord, lorsque le muezzin a terminé le dernier appel à la prière du vendredi, l'un des fonctionnaires du culte (un autre muezzin généralement) va chercher le Khaṭîb qui attend dans la maqṣoûra et l'accompagne jusqu'au minbar où il lui tend le bâton rituel que le Khaṭîb doit tenir dans la main pendant le prône.

Le Khaṭîb gravit trois ou quatre marches du minbar, prononce la première partie de la Khoṭba dans le plus absolu silence, puis marque un arrêt de quelques instants pendant lequel il s'assied, ensuite il reprend la fin de ce prône. La Khoṭba est le plus souvent lue par le Khaṭîb. Aussitôt qu'il a achevé le prône, le Khâṭîb descend et la prière en commun commence aussitôt.

(2 Les fidèles considéraient que ce personnage était sanctifié par l'acte religieux qu'il venait d'accomplir et le « baise-main » était une des manières, comme encore aujourd'hui de recueillir cette « baraka » émanant de la personne sacrée de cet homme. A Fès, lorsqu'un professeur d'El-Qarouiyîn a achevé l'explication à ses élèves du texte du *Mokhtaṣar* de Khalîl, après de longues années de leçons dans la Mosquée, il est, lui aussi, ce jour-là, le jour de la « Khaṭma », élevé au rang d'un saint, et la foule des assistants se livre autour de sa personne à des manifestations montrant nettement le caractère de sainteté du professeur et le désir de chacun de recueillir la « baraka » qu'il détient à ce moment.

en héritage par son père et lui servaient pour la plus grande partie à faire des aumônes.

Il remplit la fonction d'Imâm, mais non celle de Khatîb parce qu'il était de langue berbère (1) et très étranger à l'arabe ; il se faisait donc suppléer pour la Khoṭba par le faqîh, l'ascète, Abou 'Abdallâh ben Zyadet Allâh El-Mozni et garda pour lui la charge d'Imâm.

Abou 'Abdallâh ben Zyadet Allâh (2) mourut le 23 djoumâda Ier de l'an 572 (28 décembre 1176) et fut remplacé dans la charge de Khatîb par le faqîh Abou l-Qâsim ben Ḥomaïd, désigné par Abou Moḥammed Yachkor pour le remplacer dans cette fonction. Abou l-Qâsim ben Ḥomaïd mourut le lundi 14 ramaḍân 581 (12 décembre 1185) (3).

Après celui-ci la fonction de Khaṭîb fut exercée par le faqîh, vertueux et scrupuleux Abou 'Imrân Mousa, maître d'école qoranique, toujours à la place et sur la désignation de Abou Moḥammed Yachkor (4).

Or cet Abou 'Imrân enseignait le Qoran aux enfants dans l'école située près du pont d'Abou Rowoûs ; sa voix était d'une beauté troublante ; il arrachait des larmes à ceux qui l'entendaient réciter le Qoran. Lorsqu'il fut nommé Khaṭîb il fut saisi de crainte, renvoya ses jeunes élèves et se mit à pleurer et à invoquer Allâh :

« O mon Dieu, ne me couvre pas de honte aux yeux de Tes

---

(1) Littéralement « non arabe » que l'on a traduit par : berbère ; Beaumier (tr. p. 94) a traduit شديد التعجمة par « toutefois il parlait un berbère si inintelligible qu'il ne lui fut pas possible de faire la Khoṭba ».

(2) L'auteur du *Qirṭâs* et celui de la *Djadwat* nomment ce personnage Abou 'Abdallâh ben Ḥasan (ou Ḥosaïn) ben Zyadet Allâh El-Mozni.

(3) *Qirṭâs* (p. 49) confirme cette date et nomme ce suppléant Abou l-Qâsim 'Abd Er Raḥmân ben Ḥomaïd. Ce texte ajoute : « Le faqîh Abou Moḥammed Yachkor occupa la fonction d'Imâm d'El-Qarouiyîn pendant 40 ans, sans négliger de (présider) la prière un seul jour, tant son exactitude était grande »

(4) Pour tout ceci et ce qui suit, notre texte est tiré mot pour mot du *Qirṭâs* (éd. p. 49) et a été plagié par l'auteur de la *Djadwat* (éd. p. 34).

« Je recherche, s'écria-t-il, le repos de mon âme dans l'Autre Monde », et il récita ce distique : *El-Kâmil*

« *Ne fais pas de ramaḍân un mois de plaisir ; en ce mois les enseignements tirés du « ḥadîṯ » (seuls) devront te charmer.*

« *Sache que tu n'atteindras la récompense (d'Allâh) en ce mois, que si tu jeûnes et que tu gardes (fidèlement) les (prescriptions) qu'il comporte* »[1].

On rapporte au sujet de cet homme (l'anecdote suivante) : l'un des gouverneurs almohades de Fès écrivit à Marrâkech (au Sultan) que Abou Moḥammed Yachkor aspirait au Khalifat. (Le Sultan) reçut cette nouvelle au moment où il sortait ; il envoya dire aussitôt qu'on lui envoyât (ce personnage). Or parmi ceux qui étaient à ses côtés se trouvait un eunuque tenant une hache de fer à deux tranchants. Il la lui prit, la saisit de sa main en disant à ceux qui l'entouraient : « Avec ceci je le tuerai ». Le destin voulut qu'il se frappât lui-même au front du tranchant de la hache ; le sang jaillit en abondance. Les médecins se hâtèrent (auprès du blessé) et par des médicaments cherchèrent à arrêter l'écoulement de sang, ainsi que par des procédés divers. Ils n'y parvinrent pas. Or dans la suite du Khalife se trouvait un saint homme qui comprit l'influence occulte, cause de cet accident ; il dit au Khalife : « Si vous aviez eu l'idée (de faire) quelque mauvaise action, demandez-en pardon a Allâh ». Se souvenant de son (ordre) de faire comparaître Abou Moḥammed Yachkor, le (Khalife) en demanda pardon et se hâta de faire rappeler l'envoyé qui devait le lui amener. Le sang cessa aussitôt de couler[2].

Ce (saint homme) — qu'Allâh nous le rende profitable — possédait des troupeaux de moutons et de nombreux bestiaux dans le pays où il avait été élevé. Ces biens lui avaient été laissés

---

(1) Ces deux vers sont cités dans *Qirṭâs* et *Ḍjadwat*, *loc. cit.*

(2) Cette anecdote ne figure pas dans le *Qirṭâs*, mais se trouve dans la *Ḍjadwat* (p. 33). La suite du récit se trouve dans les deux ouvrages.

Abou-l-Ḥasan demeura prédicateur de cette Mosquée jusqu'à sa mort survenue le 8 ḏou-l-qa'da 558 (9 octobre 1153) (1).

Après lui la « khoṭba » fut faite par le faqîh (2) vertueux et scrupuleux Abou Moḥammed Yachkor ben Moûsa El-Djarâoui (3) qui était l'un des maîtres du Maghrib dans les (sciences) religieuses, les vertus, l'ascétisme, l'abstinence (4), la guerre sainte, le mysticisme, les mérites et les pieuses aumônes. Il passait fréquemment ses nuits à prier, surtout en ramaḍân.

On lui dit une certaine nuit : « Si tu laissais ton âme se reposer un peu et que tu lui donnes sa part de sommeil, cela vaudrait mieux pour toi »

---

mo'tazilite de l'idée de Dieu et de ses attributs), Ibn Toûmert, le fondateur de l'empire. Sur les Almohades et la réforme politique, religieuse et juridique qu'ils ont réalisée dans l'Afrique du Nord, on consultera mon article « Almohades » dans l'*Encyclopédie de l'Islâm* et la bibliographie qu'il donne.

(1) Le *Qirṭâs* (éd. p. 48) donne la même date et ajoute qu'il fit son premier prône le premier vendredi de djoumâda I, 540 (octobre 1145).

(2) Ce mot *faqîh* si couramment employé pour désigner un « docteur versé dans la science des applications juridiques (*fouroû'*) », ne doit évidemment pas être pris ici dans ce sens, car on sait que les Almohades furent justement les adversaires irréductibles de cette science (cf. par exemple *Almohades*, tr. p. 241).

(3) L'ethnique indique que ce personnage était originaire de Djaraoûa, petit port à l'Est de l'embouchure de la Moulouiya c'est-à-dire, d'une région voisine de la patrie du souverain almohade 'Abd El-Moûmen. Sur ce personnage voir aussi *Qirṭâs* (éd. p. 48 et 157) et *Djadwat* (*loc. cit.*) qui donnent le même texte qu'ici, et comp. trad. Beaumier, p. 94 et 387.

(4) Ces deux derniers mots du texte sont *ezzouhd* et *el-war'* que notre traduction ne rend pas très exactement pour éviter la longue périphrase qui eût été nécessaire. Ces mots sont de la terminologie spéciale aux *Ṣoufis* (voir au sujet de ces mots : G. Marçais, dans la *Revue Africaine* 1918, n° 294 p. 124-125) et le mot « taqachchouf » (synon. « tachawwouf ») donné dans cette même énumération, nous montre qu'il s'agit bien ici d'un « mystique ». Le fait est intéressant à noter parce qu'il s'agit d'un fonctionnaire *almohade*. Sur l'introduction du mysticisme en Berbérie et des données sur son développement dans ce pays, voir, en dehors de l'article ci-dessus de G. Marçais, son ouvrage *Les Arabes en Berbérie* (1913) et les références données dans ces deux publications.

jusqu'à la fin du gouvernement des Lamtoûna[1], puis sous le gouvernement almohade[2], et pendant (l'actuel) gouvernement mérinide — qu'Allâh le Très Haut le fasse durer — jusqu'à notre époque[3], le premier fut Abou Moḥammed El-Mahdi ben 'Isâ. Il était le meilleur des hommes par les qualités physiques et morales, le plus éloquent et le meilleur rhéteur ; ses exhortations s'imprimaient fortement dans les cœurs et dans les consciences. Il faisait chaque vendredi un sermon qui ne ressemblait jamais à l'un des précédents. Il garda la charge du prône (dans cette Mosquée) pendant cinq mois[4].

A l'entrée des Almohades à Fès[5] ceux-ci l'écartèrent de cette fonction de prédicateur et mirent à sa place le vertueux faqîh Abou-l-Ḥasan ben 'Aṭîya, à cause de sa connaissance de la langue berbère. En effet les Almohades ne nommaient pour la « khoṭba » et « l'imâmat » que ceux qui connaissaient le « tawḥîd » en berbère[6].

---

(1) Le règne sur le Maghrib de la dynastie almoravide (les Lamtoûna) se termine par la prise de Marrâkech en 541/1146, et la mort du dernier de leurs souverains Isḥâq ben 'Alî.

(2) Le règne des souverains de la dynastie almohade — qui succéda à celle des Almoravides — a duré jusqu'en moharrem 668 (septembre 1269), date de la prise de Marrâkech par les Mérinides.

(3) Ibn El-Qâḍi dans sa *Djadwat* (p. 32 *in fine*) a ajouté à cette énumération des gouvernements, ceux des Chorfa Djoûtiyoun, des Beni Waṭṭâs et des Chérifs, jusqu'à son époque en l'an 1103/1691. Avec cette courte addition tout ce qui précède et ce qui suit est reproduit dans la *Djadwat*.

(4) C'est par ce personnage que commence dans *Qirṭâs* (éd. p. 48) l'énumération des « Khaṭîb » d'El-Qarouiyîn donnée dans ce livre qui fournit exactement sur Abou Mohammed El-Mahdi les mêmes renseignements que ceux-ci. C'était peut-être le frère d'Abou Dja'far, vizir et secrétaire d'Abd El-Moumen (*Almohades*, p. 173).

(5) Les Almohades entrèrent à Fès le jeudi 15 rabî' I de 540 (5 sept. 1145). Cf. *Qirṭâs* (éd. p. 40).

(6) Cette phrase manque dans le *Qirṭâs*. Elle vient confirmer ce que nous savons des Almohades qui s'efforçaient de mettre à la portée des Berbères — dont bien peu sans doute, sauf dans les villes, comprenaient l'arabe à cette époque — tout ce qui se rapportait à la religion telle que l'avait réformée (dans le sens du *tawḥîd* selon la définition

encore aujourd'hui [1]. (Ce dernier fut fait) sous la surveillance du qâdi de ce souverain (almoravide), Abou Moḥammed 'Abd El-Ḥaqq ben 'Abdallâh ben Mo'îcha El-Gharnâṭi. Il ne fut pas achevé du temps de celui-ci ; sa construction ne fut terminée — qu'après qu'il eut quitté la fonction de qâdi de Fès — par les soins de son successeur dans cette charge, Abou Marouân 'Abd El-Mâlik ben Baïḍâ El-Qaïsi.

Cette chaire fut faite en bois de santal, d'ébène, d'oranger, de jujubier, (avec des incrustations) d'ivoire. Celui qui exécuta ce travail et fit cette chaire fut le cheîkh lettré Abou Yaḥya El-'Attâd qui eut une vie très longue et dépassa cent ans. C'était un maître en littérature et en poésie ; plusieurs (étudiants) de Fès ou du dehors ont reçu de lui l'enseignement.

La totalité des frais de construction de cette chaire, dépensés sur la caisse des ḥabous et payés par les préposés de ce service fut de trois mille huit cents dinârs et sept dixièmes, en dinârs d'argent [2].

Ce minbar avait deux housses, l'une en peau de chèvre et l'autre en excellent coton. On les enlevait chaque vendredi.

(La construction du minbar) fut (achevée) en cha'bân de l'an 538 (février 1144), ainsi que le porte une inscription en ivoire, sur le fronton de ce monument [3].

Parmi les prédicateurs qui sont montés dans cette chaire pour y faire le prône à partir du moment de sa construction

---

(1) Des renseignements que j'ai pu recueillir à Fès sur cette chaire, il semble bien que ce soit toujours la même qui existe encore. On sait que le vieux minbar de la Mosquée de Nédroma, dont l'inscription a été retrouvée par M. R. Basset, était aussi almoravide (cf. *Nédromah et les Traras*, 1 vol. in-8, Paris-Leroux, 1901, qui en donne une photographie.)

(2) Pour supputer la valeur de ces dinârs on se référera à la note et aux sources indiquées par Nallino dans la *Rivista degli Studi Orient.*, vol. VIII, fasc. 4, p. 844-845.

(3) 'Alî ben Yoûsof régna de 500 à 537 (1107-1143) et son fils Tâchefîn de 537 à 539/1145 ou à 541/1147 ; ce fut donc sous le règne de ce dernier que fut achevé le minbar en question.

porte de Bâb el-Hofât du côté du Nord [1] c'est El-Mouḍaffar (ben El-Manṣoûr ben Abi 'Amir) qui les a fait édifier et il y a conduit l'eau de l'Oued Ḥasan [2] qui coule en amont de la ville, du côté de Bâb el-Ḥadîd.

El-Mouḍaffar ben El-Manṣour a (encore) fait faire un minbar (pour remplacer celui) qui fut construit au début de l'occupation des Zenâta [3].

Ce minbar était en bois d'ébène, de jujubier et d'autres essences. Il portait à son fronton l'inscription suivante : « Louange à Allâh, Clément et Miséricordieux ! Qu'Allâh répande Ses Grâces sur notre Seigneur Mohammed et sur Sa famille ! Qu'Il leur accorde le Salut !

« Ceci est ce qu'a ordonné de construire le khalife victorieux, épée de l'Islâm et Serviteur d'Allâh, Hichâm El-Mou'ayyad billâh — qu'Allâh prolonge sa durée — par l'intermédiaire de son chambellan 'Abd El-Mâlik El-Mouḍaffar ben (Moḥammed) El-Manṣoûr ben Abi 'Amir — qu'Allâh l'assiste ! Fait à la date de 388/996 » [4].

La « Khoṭba » fut prononcée du haut de ce minbar jusqu'au temps (du souverain) 'Ali ben Yoûsof ben Tâchefîn [5]. A ce moment il fut abandonné et l'on construisit le minbar qui existe

---

(1) Beaumier dans sa traduction n'a rien compris à ce mot El-Ḥofât. C'est encore le nom de l'une des portes (face nord) de la Mosquée d'El-Qarouiyîne : c'est la porte de ceux qui entrent « nu-pieds ».

(2) Un bras de l'Oued Fès sans doute, mais il n'en est aucun qui ait gardé ce nom aujourd'hui et les anciens textes ne permettent pas de l'identifier.

(3) On a vu précédemment (p. 87) que ce premier minbar était en bois de pin.

(4) Le texte de cette inscription donné par le *Qirṭâs* (éd. p. 38 et trad. Beaumier, p. 73) renferme une erreur dans la date et porte : djoumâda II, 375 (19 oct.-16 nov. 985). L'auteur de la *Djaḍwat* ne donne qu'une partie de cette inscription (p. 32) et pas la date.

(5) Ceci et ce qui suit manque dans *Qirṭâs*, mais figure textuellement dans *Djaḍwat* qui nomme ce souverain almoravide 'Ali ben Tâchefîn. Voir cependant *Qirṭâs*, éd. p. 48.

y entrait, (par exemple) sur le vêtement d'un fidèle, il tombait aussitôt en défaillance et ne bougeait plus [1].

Il y avait également pour le serpent une amulette consistant en boules de cuivre jaune (grâce à quoi) aucun serpent ne pouvait entrer sans être découvert et tué. Aussi bien si l'on trouvait (dans cette Mosquée) quelque serpent (on pouvait affirmer) que celui-ci appartenait à une tribu de génies [2].

Or ceci ne saurait être nié, car Allâh — qu'Il soit glorifié — a pour habitude de lier certaines choses au moyen de certaines d'entre elles, si ces choses se produisent à un moment (et dans des conditions) spéciales [3].

On n'a jamais entendu dire du reste, soit dans les temps anciens, soit à une époque récente que quelqu'un ait été piqué (en ce lieu) par un scorpion ou par un serpent [4]. Tout ces (talismans) ont été enlevés depuis des années..... [5] et au bassin [6] allongé (qui se trouve) à gauche en sortant par la

---

(1) A ce propos le *Qirṭâṣ* cite un cas de ce genre qui serait survenu un vendredi pendant la grande prière.

(2) La croyance que les « *djinn* » prennent volontiers la forme du *serpent* est courante et de tous les temps dans cette Afrique du Nord et les textes, aussi bien que le folk-lore nous en donnent d'abondants témoignages. Ces croyances pour la région de Tlemcen ont été condensées en une petite note intéressante de Cour : *Le culte du serpent dans les Traditions populaires du Nord-Ouest Algérien* (Oran, Fouque, 1911). Voir aussi S. Gsell, *Histoire anc. de l'Af. du Nord*, t. I, p. 246 247

(3) Cette explication « islamique » de l'efficacité de certaines pratiques de la magie ne figurent ni dans le *Qirṭâṣ*, plagié par notre auteur, ni dans la *Djadwat* qui a plagié celui-ci à son tour.

La dernière phrase ici n'est pas claire et l'on sait que des talismans de ce genre doivent agir en toute circonstance et en tout temps, selon la croyance populaire générale.

(4) Ceci est donné par *Qirṭâṣ* (éd. p. 37) mais non dans la traduction Beaumier (p. 73). L'auteur de la *Djadwat* (p. 32) ajoute comme ici : « Ces talismans ont disparu depuis des années ».

(5) Le texte de la *Djadwat* reproduisant ces passages nous permet de combler cette lacune par les mots : « Quant à la fontaine ».

(6) Sur le sens de « bassin » donné à *bîla* voir mes *Inscriptions*, p. 230.

el-Malik) ben El-Manṣoûr ben Abi 'Amir, chambellan[1] du (khalife) Hichâm El-Mou'ayyad, s'empara de la ville de Fès par une vigoureuse attaque, en l'an 388/998[2], il la fit construire et fixa à son sommet des talismans et des images qui, auparavant, se trouvaient au sommet de la coupole du premier miḥrâb de la Mosquée en question et qui étaient l'œuvre des Anciens. Parmi ces objets il y en avait qui avaient été faits au temps des Chî'ites.

Le chambellan El-Mouḍaffar fixa ces talismans sur des tiges de fer. Au nombre de ces amulettes, il y avait celle du rat, qui avait la forme d'un rat[3]. Aucun rat (grâce à ce talisman) n'entrait jamais en ces lieux ou n'y faisait son nid. Si (par hasard) un rat y pénétrait, il était (aussitôt) découvert et tué.

Il y avait aussi l'amulette du scorpion ; elle avait la forme d'un oiseau tenant dans son bec une sorte de queue de scorpion. Grâce à cette amulette, les scorpions ne pénétraient jamais en ces lieux sans y être (aussitôt) découverts. Lorsqu'un scorpion

---

(1) Le titre de « ḥâdjib », fut donné à son fils, par El-Manṣoûr ben Abi 'Amir qui était maître du pouvoir dans le Khalifat de Cordoue à cette époque, voir *Bayân*, tr. II, 465 et 489. Ce serait en 381/991 que ce grand « ḥadjib » aurait fait passer ce titre à son fils (cf. aussi *Qirṭâs*, éd. p. 75 et s.) ; cependant il serait difficile de concilier ce point de vue avec le texte de l'inscription du « minbar » d'El Qarouiyin donné par *Qirṭâs* (éd. 38 et trad. Beaumier, p. 73) qui porte la date de 375, si la même inscription donnée ci-dessous dans notre texte, ne nous permettait de rectifier cette erreur matérielle du *Qirṭâs* en nous apportant la véritable date de ce monument : 388/998 (voir aussi *Qirṭâs*, éd. p 76).

(2) *Qirṭâs* (éd. p 76) dit : « El-Mouḍaffar fit son entrée dans la ville de Fès, le samedi dernier jour de chawwâl de l'an 387 (4 novembre 997)..... il y resta comme gouverneur jusqu'au mois de Ṣafar 389 (janvier 999) ».

(3) Ce passage relatif à des représentations d'animaux, ayant le caractère magique, pour la protection de cette Mosquée contre l'entrée de bêtes venimeuses ou impures, est rapporté déjà par *Qirṭâs* (éd. p. 37 ; tr. Beaumier, p. 72). Il est intéressant pour l'histoire de la magie dans les croyances des Berbères, croyances auxquelles E. Doutté a consacré un gros livre fort documenté : *Magie et Religion dans l'Afrique du Nord*, 1 vol. in-8, Alger, Jourdan, 1909.

« *Et si l'on veille pour (connaître) les moments, imprécis pour nous, l'on connaîtra (grâce à cet instrument) la juste mesure du temps de la nuit et de la veille,*

« *(Puisqu')il détermine chaque instant ; les gens de discernement l'ont choisi (comme guide), soit qu'ils (veuillent) voyager, soit qu'ils restent (à la ville).*

« *Il indique, parmi les portions de la journée, les temps les plus précis de la nuit et de l'aube* (1).

« *C'est un produit de la science et du génie. Oh ! quelle précieuse invention du génie dans ce corps !* »

Abou 'Inân — qu'Allâh lui soit miséricordieux — a fait construire une « Mâgâna » (2) avec des coupes et des écuelles (c'est-à-dire : des timbres) de cuivre jaune, en face de la porte (septentrionale) de sa Médersa-Nouvelle qu'il a fait élever au Souk-El-Qasr de Fès. Pour marquer chaque heure, un poids tombait dans une (des) coupes et une fenêtre s'ouvrait.

Cela fut exécuté dans les derniers (jours de la construction) de la Médersa, le 14 joumâda 1er de l'an 758 (6 mai 1357) par les soins du « Mouwaqqit » du roi, Abou-l-Ḥasan 'Alî ben Aḥmed Et-Tilimsâni, le « Mou'addil » (3).

Quant à la coupole qui se trouvait au-dessus de la « 'anza » (de la Mosquée d'El-Qarouiyîn), lorsque El-Moḍaffar ('Abd

---

(1) Les « ḥadît » et les traités de « fouroû' » ont indiqué les limites entre lesquelles se doivent faire les prières. Des instruments astronomiques divers ont été construits et des traités écrits pour indiquer le temps et la manière de le déterminer. On trouvera en outre des indications sur les moments astraux de la journée dans les notes d'*Ethnographie traditionnelle de la Mitidja* de M. Desparmet (*Revue Africaine*, année 1918, n° 294, p. 23 et suiv.).

(2) J'ai donné une photographie (fig. 58) et une description de ce qui reste de cette « Mâgâna » dans mes *Inscriptions* (p. 275 à 279) et j'y ai cité le passage du présent texte.

(3) Ce passage n'est donné qu'en court abrégé dans *Djadwat* (p. 31). Naturellement le *Qirṭâs* achevé en 726 est muet sur ces constructions.

Cette décision est l'indice de la sollicitude (de ce souverain) pour les questions relatives à la détermination du temps et à tout ce que s'y rattache en fait d'obligations relatives aux prières, ainsi qu'en ce qui concerne les droits, les usages traditionnels et les pratiques cultuelles.

Voici quelques vers qui se rapportent à tout ceci : *(Basit)*

« *Une lumière, signal de la foi, s'élève pour ceux d'entre les hommes qu'elle guide vers la Vérité ;*

« *De toutes parts (les fidèles) se dirigent vers elle et pour eux elle détermine (les moments de) la nuit et du jour* (1).

« *C'est (la Mâgâna) une âme d'eau dans un corps de bronze d'élégante beauté et d'aspect (agréable).*

« *(Ce corps) verse des larmes sans que jamais son œil ne cesse de pleurer et il ne doit point passer la nuit (endormi) par précaution contre les gens de mauvais vouloir (à surveiller les heures de prière).*

« *Au sommet (de cet instrument) est une graduation qui le partage (en degrés) pour ceux qui observent, sans (avoir à faire effort) d'intelligence et de pensée ;*

« *Quand il pleure, un globe tourne à l'intérieur, d'un mouvement latent, lorsqu'il ne pleure pas, le globe cesse de tourner ;*

« *(Ce mouvement) traduit (les divisions du temps) et nous en avertit, de sorte que l'on trouve dans (l'indication de) ces (moments) une information sûre.*

« *Par lui sont fixés les cinq temps (des prières) obligatoires (quotidiennes), même si le soleil est masqué par le voile des nuages et de la pluie.*

---

(1) Une variante de cet hémistiche dans *Djadwat* (éd. p. 31) donne : « (pour les fidèles) cette lumière les ramène et les rappelle vers la bonne voie ».

Après ce vers, *Djadwat* qui ne donne que 7 des 10 vers suivants, les introduit par ces mots : « Voici (quelques vers) parmi ce que l'on a dit de machines du genre de cette Mâgâna ».

auparavant ; il ne cessa d'y travailler avec zèle jusqu'à l'avènement au pouvoir de notre maître feu Abou 'Inân [1]. Ce surveillant multiplia ses efforts dans ce travail, il plaça sur le côté extérieur de cette machine, vers le sud-est un cadran d'astrolabe dont les curseurs pouvaient tourner. De la sorte, lorsque montait la règle dont on vient de parler, les curseurs indiquaient les divisions du temps de nuit et de jour. Il prépara également en cet endroit des sabliers pour la détermination du temps, ainsi que plusieurs astrolabes. Par ces instruments il indiquait aux surveillants les portions de temps de la nuit et du jour [2].

(Il advint qu'un jour) feu notre maître Abou 'Inân monta au minaret (de Qarouiyîn) pour regarder la ville et son panorama [3] ; il s'arrêta devant la Mâgâna et ses accessoires ; tout cela lui ayant plu, il gratifia le surveillant d'un traitement — qu'Allâh soit généreux pour ce souverain — afin de pouvoir s'en rapporter à ce surveillant pour l'observance des prescriptions de la loi islamique. Cela eut lieu en l'an 749/1348.

A la suite de cette visite, le souverain ordonna de mettre au sommet du minaret en question un mât au bout duquel on hisserait un drapeau aux heures des prières du jour et une lanterne avec une lampe aux heures des prières de la nuit, afin de donner ainsi les indications voulues aux quartiers de la ville, éloignés de cette Mosquée, et qui n'entendaient pas l'appel à la prière (lancé de ce minaret) [4].

---

(1) Ce souverain Mérinide fut proclamé à Tlemcen en rabî' 1 de 749 (juin 1348).

(2) Tous ces détails sur le dispositif de la Mâgâna d'El Qarouiyîn, manquent dans *Qirṭâs* et dans *Djadwat*.

(3) A partir de ce passage, l'auteur de la *Djadwat* reproduit notre texte (éd. p. 31).

(4) Cet usage a été conservé jusqu'à nos jours. Lorsque le souverain Mérinide Abou 'Inân fit construire la Médersa Bou'anâniya (cf. mes *Inscriptions*, p. 253 à 317) quelques années plus tard, il fit élever un minaret du haut duquel on aperçoit à la fois les Mosquées d'El-Qarouiyîn et de Fès Ejjdîd. Et ce fut alors comme aujourd'hui ce minaret de la Médersa qui transmettait à la ville Mérinide de Fès, le signal de la prière partant d'El-Qarouiyîn.

gravées par Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Eṣṣaddîna El-Qarsṭoûni [1]. Les frais de cette construction (de la Mâgâna) furent payés volontairement par quelques musulmans. Cela eut lieu en 717/1317.

Pour faire cette *Mâgâna*, l'artisan installa dans un coin de cette chambre du premier étage, à la gauche de celui qui est tourné vers la *qibla*, un grand vase de bois de cèdre dans lequel il mit deux vaisseaux en faïence de façon que l'un d'eux soit plus haut que l'autre. Le vaisseau le plus élevé fut rempli d'eau et muni à sa base d'un tuyau de cuivre ingénieusement fabriqué et par lequel l'eau descendait dans le vaisseau inférieur en quantité déterminée. Sur le côté était une cuvette sur les flancs de laquelle étaient tracées les heures, les minutes et les moments (de prière) de la nuit et du jour. Une règle (verticale) était accrochée au..... [2], du côté extérieur, de façon à pouvoir monter et descendre dans la cuvette. Sur la surface de l'eau qui arrivait dans le vase inférieur était un flotteur creux, en cuivre, épousant la forme des parois internes, se tenant en suspens sur l'eau, à l'intérieur du vase et (se mouvant) dans le sens de la hauteur. Lorsque ce flotteur s'élevait par suite de l'élévation du niveau de l'eau arrivant dans le vaisseau inférieur, la paroi du..... [3] extérieur à la cuvette s'élevait et faisait monter avec elle la règle de la même quantité.

Plus tard cette machine fut négligée et délaissée jusqu'à l'arrivée en service du surveillant des heures Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Moḥammed ben El-'Arabi, en l'an 747 (1346). Il restaura la Mâgâna et la mit en meilleur état qu'elle n'était

---

(1) Ce passage au sujet de la *Mâgâna* manque dans *Qirṭâs;* il figure dans la *Djadwat* qui néglige cependant de donner cette dernière indication et le nom de ce graveur.

(2) Il manque un mot dans le texte et comme ce passage ne figure ni dans la *Djadwat*, ni dans le *Qirṭâs*, il ne m'est pas possible de le remplacer.

(3) Un mot manquant dans le texte.

à telle ou telle division, on connaissait par là les moments de la nuit et du jour par temps nuageux. Cela fut fait en 685/1286 (1).

Cet instrument fut négligé et délaissé.

En la même année furent entrepris les travaux de réparation de ce minaret et le blanchîment en plâtre et à la chaux, après qu'on eut planté dans les murs et à l'extérieur des clous en fer représentant en poids trois quintaux et trois huitièmes de quintal (2). Les murs furent polis après avoir été blanchis, au point de devenir unis comme un miroir, alors qu'auparavant les oiseaux nichaient dans les crevasses ; toutes des détériorations disparurent. Alors fut également construit l'étage dominant l'atrium (3) et ce fut là que fut transportée la chambre des gardiens pour les heures (des prières) et la station des veilleurs (4).

En ce qui concerne la *Mâgâna* (5) qui fut construite à cet étage pour la détermination du temps, c'est le cheîkh, le « mou'addil » Abou 'Abdallâh Moḥammed Eṣṣanhâdji (6) qui la construisit en cet endroit. Les divisions de cette horloge furent

---

(1) Ces passages relatifs à la machine à marquer les heures ainsi qu'aux cadrans scolaires manquent dans *Qirṭâs*, mais ils ont été plagiés d'après ce texte-ci par l'auteur de la *Djadwat* (p. 30).

(2) Ces renseignements figurent dans *Qirṭâs* (éd. p. 37) qui donne d'autres indications pour le poids de ces clous. C'est toujours le texte de la *Zahrat el-As* que plagie l'auteur de *Djadwat* pour ce passage ; pour le poids du quintal, Massignon (p. 104) donne 59 kg 72 ; il est très difficile de fixer la valeur de mesures de ce genre, attendu qu'elles variaient non seulement dans le temps, mais avec les villes et avec les matières pesées ; il en est encore ainsi aujourd'hui

(3) Le *Qirṭâs* (éd. p 37) donnant ce passage indique que cette pièce à l'étage fut construite au-dessus de la porte du minaret.

(4) Le *Qirṭâs* indique qu'auparavant les Mouezzins stationnaient dans la chambre supérieure, comme il a été dit ci-devant.

(5) Le texte (comme celui de *Djadwat*, p. 31) porte *Mandjâna* qui est prononcé aujourd'hui *Mâgâna* (plur. *Mouâgen*) à Fès. Sur ce mot voir mes *Inscriptions*, p. 275.

(6) La *Djadwat* (p 31) le nomme Abou 'Abd Allâh Mohammed El-'Azfi ; c'est celui qui vient d'être mentionné ci-devant.

science[1] ; au milieu de chacune de ces plaques (rectangulaires) de marbre était une tige dont l'ombre (portée) sur les lignes tracées sur le marbre indiquait les moments de la journée et les heures (des prières). Des savants avaient installé ces cadrans après examen attentif et accord entre eux. Ce travail compte pour ces hommes pour le plus précieux des dons.

Les tournants de l'escalier (du minaret) étaient éclairés pendant toute la nuit par des lampes très lumineuses, à l'intention des surveillants du « fajr » et des divisions de la nuit.

Ce minaret demeura en cet état jusqu'à la nomination comme qâdi de la ville du faqîh et prédicateur, Abou 'Abdallâh Moḥammed ben Abou Eṣ-Ṣaber Yioûb ben Guennoûn[2].

De son temps le « mou'addil »[3] Abou 'Abdallâh Moḥammed ben El-Ḥabbâk[4] mit un vaisseau en faïence dans la chambre située en haut du minaret. Dans ce vaisseau était de l'eau au niveau de laquelle aboutissait un tuyau de cuivre marqué de divisions et portant des trous par lesquels l'eau sortait en quantité déterminée. De la sorte, lorsque le niveau de l'eau arrivait

---

(1) Ces marbres étaient des cadrans solaires, comme il en existe encore dans les principales Mosquées de Fès, notamment à celle d'El-Qarouiyîn et à celle des Andalous ; on en a trouvé plusieurs à Tlemcen (Mosquée de Sidi l Ḥaloui et Musée) et j'ai même donné une note sur ces cadrans (*Rev. Afric.*, n° 257 de 1905). Il est fourni plus loin des indications sur d'autres horloges pour la détermination des heures ; depuis longtemps dans toute l'Afrique du Nord, les Mosquées et oratoires, voire même certaines sanctuaires sont garnis de ces grandes horloges comtoises qui font dans ces édifices un effet un peu inattendu et pas toujours heureux (Cf. p. ex. *Ali Bey*, p. 187. 188 du t. 1).

(2) *Djadwat* qui reproduit tout ceci, au lieu de « Guennoûn », donne le nom de « Yaknoûn » ? Ce personnage vivait sous le sultan Mérinide Yoûsof qui régna de 685/1286 à 706/1307.

(3) Sur ce m. voir mes *Inscriptions*, p. 277, n. 2.

(4) Nous n'avons pas trouvé de renseignements sur ce personnage dans les dictionnaires biographiques ; mais la *Djadwat* (éd. p. 6) indique la fabrication de cette horloge à eau par ce « mou'addil » au temps du qâdi Abou 'Abd Allâh Mohammed ben Abi Essabr. On verra plus loin que c'est ce mou addil qui orienta le miḥrâb de la première médersa de Fès.

Au sommet de ce minaret fut construite une petite chambre sur le dôme de laquelle, il plaça des boules dorées fixées sur une barre (verticale) en fer. A (l'extrémité de) cette barre il fit monter l'épée de l'Imâm Idrîs II — qu'Allâh lui soit miséricordieux — le fondateur de Fès. La raison en fut que l'Émir Aḥmed ben Abi Bekr précité, lorsqu'il eut achevé la construction du minaret, (il advint que) quelques descendants de l'Imâm Idrîs se disputèrent (la propriété) de cette épée. L'Émir demanda à chacun d'eux d'abandonner ses prétentions à ce sujet et de s'en remettre à lui-même. Mais la discussion à ce propos se prolongeant, l'Émir leur dit : « Voulez-vous me donner cette épée et cesser toute discussion à son sujet ! »

— « Qu'en feras-tu si nous te la donnons ? »

— « Je la placerai au sommet du minaret pour qu'elle soit une bénédiction pour lui et un souvenir de vous ».

— « Dans ce cas, nous te l'offrons avec un grand plaisir ».

Et l'Émir la fit mettre sur la coupole du minaret [1].

Sous cette petite chambre il fit ménager une chambre plus grande pour abriter les Muezzins chargés d'appeler à la prière aux moments (obligatoires). Dans cette chambre se trouvait la cellule du gardien chargé de la détermination des heures (de prière) pendant la nuit et notamment de celle du *fajr* [2] et de l'appel à la prière.

C'est sur l'appel de ce Muezzin (de la Mosquée d'El-Qarouiyîn) que se basent les Muezzins des autres Mosquées de la ville, conservant encore cette coutume transmise des anciens temps.

Pour les Muezzins (d'El-Qarouiyîn) il y avait en divers endroits de ce minaret des plaques de marbre disposées avec

---

(1) Ces renseignements sur le minaret et les détails relatifs à l'épée d'Idrîs, figurent dans *Qirṭâs* (éd. 36) ; la traduction de ce passage dans Beaumier (p. 70-71) ne manque, comme de coutume, ni d'omissions, ni de contre sens.

(2) C'est le moment de l'aube ; il marque l'heure de la première prière du jour, strictement indiquée par les manuels de droit musulman et par de nombreuses traditions du Prophète.

l'atrium — où ne se trouvait qu'une seule travée — après avoir fait démolir le minaret de cette Mosquée, parce qu'il était très haut et dominait (les intérieurs voisins); il le fit rebâtir ailleurs[1].

Ce nouveau minaret est celui qui existe encore de nos jours dans cette Mosquée. Lorsque (Aḥmed ben Abi Bekr) entreprit la construction de ce minaret, il le fit (sur plan carré) de vingt et un empans de largeur, l'éleva de cent une marches d'escalier en hauteur[2], en plaça la porte du côté de la *qibla*[3] et le fit couvrir de lamelles de cuivre jaune.

Ce travail de construction fut achevé par les soins de Aḥmed ben Abi Bekr Ez-Zenâti dans le mois de rabî' I de l'an 345 (13 juin à 12 juillet 956) ainsi que cela est tracé dans un carré portant une inscription sculptée sur le minaret du côté du ṣaḥn (atrium)[4].

---

(1) Ces renseignements sont tirés du *Qirṭâs* (éd. p. 39). Les musulmans ont toujours redouté que du haut du minaret le regard ne plonge dans l'intérieur des maisons voisines, à cause des femmes, et c'est pourquoi bien souvent les muezzins sont choisis parmi les aveugles. Yaghmorâsm, fondateur de la dynastie des rois de Tlemcen, après avoir fait construire le minaret de la grande Mosquée de cette ville, s'étant aperçu dit-on, que du haut de cette tour on voyait dans l'intérieur de son palais, transporta sa résidence au Méchouar qu'il fit bâtir dans ce but.

(2) On comparera ce texte avec celui du *Qirṭâs* (éd. p. 36 et s.) qui consacre tout un chapitre à l'histoire de ce minaret. L'on y verra que le minaret de Aḥmed ben Abi Bekr avait une hauteur égale à quatre fois la largeur du côté. Il est facile d'avoir la longueur de l'empan en mesurant la largeur du côté de ce minaret dont l'architecture n'a pas été modifiée depuis cette époque.

(3) Beaumier traduit (p. 69) *qibla* par « couchant ».

(4) Voici la traduction de cette inscription (d'après le texte du *Qirṭâs*, éd. p. 36) sculptée dans du plâtre incrusté de faïences : « Au nom d'Allâh, Clément et Miséricordieux ! L'empire appartient à Allâh, l'Unique, le Triomphant ! Ceci est ce qu'a ordonné de construire Aḥmed ben Abi Bekr ben Aḥmed ben Abi Sa'id Ez-Zenâti — qu'Allâh le guide et l'assiste — recherchant (par là) la récompense d'Allâh, le Très Haut, et Sa généreuse Grâce. La construction de ce minaret a été commencée le lundi premier jour de rajab 344 (21 oct. 955); elle a été achevée dans le mois de rabî' II de 345 (entre le 13 juillet et le 10 août 956) ». On voit que cette date d'achèvement diffère d'un mois de celle donnée par notre texte. La profession de foi musulmane et le verset 54 du XXXIX chap. du Qorân, complètent cet épigraphe.

luttant contre ceux qui restèrent impuissants, aidant les faibles de leurs propres biens, jusqu'au moment où ce groupe amena l'opinion du plus grand nombre à se tenir entre la reconnaissance de l'autorité (du Khalife Omayyade) et la recherche de son appui, afin d'obtenir ses faveurs et l'aide de sa force pour repousser ceux des Idrisides et des Chî'ites dont la puissance était encore triomphante [1].

Les Zenâta se levèrent donc pour défendre la cause d'En-Nâṣir Lidînillâh et s'emparèrent de diverses contrées du Maghrib. Les habitants de Fès le proclamèrent, ainsi que le rapporte l'auteur d'*El-Mouqtabis* [2]. Il leur donna comme gouverneur, pour le représenter, l'un des Zenâta du nom de Aḥmed ben Abi Bekr ben Aḥmed ben Abi Sa'îd Ez-Zenâti. C'était un homme de bien et de piété. Il écrivit à En-Nâṣir pour lui demander l'autorisation de restaurer la Mosquée, de la réparer et de l'agrandir, parce que c'était une nécessité à cause (du nombre) des fidèles. Ce souverain l'y autorisa et lui envoya des sommes importantes, prélevées sur le cinquième [3] du butin enlevé aux Chrétiens, qu'il lui ordonna de dépenser dans ces travaux. La Mosquée fut réparée ; on y ajouta quatre travées à l'Ouest et cinq à l'Est, trois au Nord, sur l'emplacement de

(1) Tout ceci manque dans *Qirṭâṣ* et *Djadwat*.

(2) L'auteur du *Qirṭâṣ* (éd. p. 59) indique que Moûsa ben Abi-l-'Afiya lorsqu'il fut maître de Tlemcen, de Takroûr et de Fès proclama la suzeraineté du Khalife de Cordoue En-Nâṣir (320/932). Ce fut à la suite de ces événements que 'Obaïd Allâh ouvrit les hostilités contre Moûsa, qui livra combat au général Chî'ite Ḥomaïd ben Chîbel dans la plaine de Msoûn, à l'Est de Taza, le défit et entra dans Fès où il mit comme gouverneur Ḥomaïd ben Ḥamdân el-Ḥamdâni (321/933). Mais le qaïd de Moûsa, Aḥmed ben Abi Bekr ben Abderraḥmân ben Sahl s'empara bientôt de Fès et gouverna la ville au nom de Moûsa jusqu'en 323/935, mais la ville fut reprise par les partisans du Mehdi et Aḥmed ben Abi Bekr cité ci-dessous, comme on le verra par la suite, fut envoyé prisonnier à El-Mahdiya, d'où il revint en 341/952 et reprit le gouvernement de Fès (*Qirṭâṣ*, éd. p. 60).

(3) Le cinquième est la part légale de butin qui revient au Khalife, ainsi qu'on le sait.

supprimée de la Mosquée des Chorfa qui était trop petite et qu'elle eut lieu à la Mosquée d'El-Qarouiyîn qui était spacieuse et grande. On lui fit faire une chaire[1] en bois de pin, et le premier prédicateur qui y prononça la Khoṭba fut le vertueux cheikh Abou Moḥammed 'Abdallâh ben 'Ali El-Fârisi[2]. On dit encore que ce fut en 321/933 et que celui qui prononça la Khoṭba à ce moment fut l'Émir Ḥâmid ben Aḥmed El-Ḥamadâni, préfet de 'Obaïd Allâh, le Chî'ite, pour une partie des territoires du Maghrib, après que se fut emparé de vive force de ces régions Masâla ben Ḥobbous pour le compte du Chî'ite[3].

Il en fut ainsi jusqu'à ce que fut fortifié le pouvoir des Zenâta à l'appel adressé par En-Nâṣir Lidînillâh 'Abderraḥmân ben Moḥammed, souverain d'Espagne, aux notables et aux chefs (des Zenâta) et grâce au déploiement de la tutelle de ce monarque, à la bonne entente entre ces chefs, à leur situation, à leur distinction, à leur décision cette occurrence. Les partisans de la soumission l'emportèrent sur ceux de l'opposition,

---

(1) Bien que le *minbar* ou chaire à prêcher ne soit pas indispensable dans une Mosquée à *Khoṭba*, il est probable que les deux Mosquées de Fès fondées par Idrîs avaient leur *minbar*, car la Mosquée de Tlemcen fondée par Idrîs en avait un.

(2) Les renseignements ne sont pas concordants sur le premier Khaṭîb de cette Mosquée ainsi qu'on le voit ici. Si l'on compare ce passage au texte correspondant du *Qirṭâs* (éd. p. 39) d'où il est tiré, on trouve quelques différences à noter : par exemple la chaire aurait été construite en 345/956 (et non en 306 comme le traduit Beaumier, p. 68). La date de 321 donnée ensuite ici figure également dans *Qirṭâs* avec le même texte, au sujet de 'Obaïd Allâh.

(3) Il est difficile de démêler exactement à travers les contradictions ou l'imprécision des chroniqueurs musulmans les détails de l'histoire de Fès durant ces années troublées du premier quart du IVe siècle de l'hégire qui marquent la fin de la domination idrîside dans la capitale. L'autorité est disputée aux Idrîsides, par les Zenâta, par les généraux du Mahdi Obaïd Allâh puis bientôt par les Omayyades d'Espagne. (Voir p. ex. : *Qirṭâs*, éd. 37 et s. ; Bekri tr. dans *Jour. Asiat.* d'avril-mai 1859, p. 357 et s. ; *Bayân*, tr. I, 307 et s. ; *Berb.*, tr. II, 567 et s., etc.). L'auteur de la *Djadwat* a plagié tout ceci également du *Qirṭâs*.

Ouest ; le miḥrâb fut placé dans la nef où se trouve le grand lustre aujourd'hui ; derrière (cette salle de prière, au nord par conséquent) fut ménagée une petite cour et au nord de celle-ci un minaret (qui s'élevait) à l'endroit où se trouve actuellement la « ʿanza »[1]. Tout cela fut exécuté selon le gré de la fondatrice et après examen de l'Émir Yaḥya (le souverain). Puis (Fâṭima) y fit sa prière et remercia Dieu le Très Haut qui l'avait secondée dans sa tâche.

Cette Mosquée demeura à peu près telle qu'elle avait été fondée, au temps des Idrisides, jusqu'à l'époque où la population (de Fès) augmenta et que l'on réunit à la ville les constructions des faubourgs, des divers côtés.

L'autorité des Zenâta se répandit sur le territoire du Maghrib en l'année 307/919[2]. C'est à cette époque que la *Khoṭba*[3] fut

---

principale de prière. J'ai remarqué à propos des *miḥrâb* des Médersas de Fès (voir mes *Inscriptions*, passim) qu'ils sont généralement mal orientés. La même remarque fut faite à Fès par des lettrés et l'on verra plus loin la réponse donnée à cette objection par les docteurs.

(1) La *ʿanza* désignait déjà à l'époque des premiers Mérinides (voir ce mot cité dans *Qirṭâs*) et désigne encore aujourd'hui au Maroc, la partie de la cour intérieure (précédant la salle principale de prière) et indiquant la direction de la *qibla* pour les fidèles qui prient dans la cour. Tantôt c'est un simple défoncement, analogue à celui du *miḥrâb* ménagé dans le seuil séparant la cour (*ṣaḥn*) de la salle principale de prière, tantôt c'est, comme à la Mosquée d'El-Qarouiyîn, un véritable édicule, un toit ou un auvent supporté par des colonnes. Voir *Suppl.* de Dozy (II, 181 s. v.) où ce sens n'est pas donné.

(2) Dès 305 les Fatimites d'El-Qairouan donnent l'ordre à Masâla ben Hobbous d'attaquer les Idrisides. Yaḥya ben Idrîs marche contre lui ; battu il se réfugie dans Fès qui est assiégée. Il accepte de rester le vassal des Fatimites. Moûsa ben Abi 'l-ʿAfiya, seigneur des Miknâsa, prend le commandement des provinces du Maghrib et Yaḥya ben Idrîs finit par aller mourir à El-Mahdiya. (Cf. *Berb.*, tr. II, 567-568). Moûsa entre à Fès en 313/925, selon *Qirṭâs*, éd., p. 58.

(3) Sur la *Khoṭba* qui est le prône prononcé du *minbar* le vendredi à la prière d'*eddouhour*, son dispositif et son importance, voir G. Demombynes, *Les Institutions de l'Islâm*, p. 72 et s.

Il semble donc qu'à cette époque, à Fès la *Khoṭba* ne pouvait être faite que dans une seule mosquée de chaque ʿadoua. Aujourd'hui il y a plusieurs mosquées à *Khoṭba* dans les grandes villes musulmanes.

mosquées (fondées par Idrîs II) étaient devenus trop étroites pour les fidèles.

Fâṭima décida de faire construire une Mosquée dans la 'adoua des Qarouiyîn et Maryem fit de même pour la 'adoua des Andalous.

Les fouilles des fondations et les travaux de la construction furent commencés le samedi premier jour du mois de ramaḍan de l'an 245 (30 nov. 859). L'emplacement sur lequel fut bâtie la Mosquée (d'El-Qarouiyîn) était un terrain de cultures maraîchères et d'arbres, appartenant à un homme de la tribu des Howâra dont le père l'avait acquis d'une manière licite, lors de la fondation de la ville. Faṭima le lui acheta, lui en paya le prix avec l'argent lui venant de l'héritage de son père et entreprit la construction de la Mosquée[1]. On creusa le sol et l'on en prit la terre et les pierres pour en bâtir l'édifice. Sur l'emplacement fut foré un puits devant procurer l'eau nécessaire aux travaux. L'orientation (du miḥrâb) fut sensiblement établie d'après l'orientation (du miḥrâb) de la Mosquée des Chorfa qu'avait fondée l'Imâm Idrîs — qu'Allâh soit satisfait de celui-ci — et cela, après que l'on eut consulté les gens de savoir et qu'ils eurent approfondi la question.

La Mosquée fut dotée de quatre travées[2] à partir du mur de la *qibla*[3] ; chaque travée comprenait douze arcades d'Est en

(1) Tous ces détails et les suivants ont pour objet de montrer que les terrains et les matériaux ayant servi à l'édification de cette Mosquée étaient de provenance licite au regard du droit musulman, sans quoi cette maison de prière n'aurait pas eu le caractère de pureté qui lui était nécessaire. On remarquera le soin apporté à noter la pureté de la fondation de cet édifice musulman qui, depuis cette époque jusqu'à nos jours, est resté le cœur religieux et intellectuel du Maghrib.

(2) Le mot traduit ici par « travée » est بلاطة qui signifie également « nef » dans d'autres passages de ce même texte, ainsi qu'on le verra plus loin.

(3) On sait que la *qibla* est la direction de La Mekke, vers laquelle le musulman en prière doit se tourner ; elle est indiquée dans les Mosquées maghribines par le *miḥrâb*, creusé dans le mur sud ou sud-est de la salle

La plus grande partie (de cette ville) fut détruite au temps de la famine et des troubles qui survinrent sous le règne de (l'almohade) El-'Adel et de son frère El-Mâmoûn [1], une vingtaine d'années avant l'avènement du Gouvernement mérinide — qu'Allâh prolonge son existence [2]. Alors le pays fut remis en bon état, les routes redevinrent sûres et la tranquillité règna parmi les habitants.

Mosquées d'El-Qaroûiyin et d'El-Andalous

En ce qui concerne la construction des Mosquées d'El-Qaroûiyîn et d'El-Andalous [3], ainsi que (les restaurations ou) les agrandissements qui y furent faits jusqu'à ce jour, Aboû l-Qâsim Gennoûn et d'autres (auteurs) traitant de l'histoire de Fès, ont raconté :

Sous le règne de Yaḥya ben Mohammed ben Idrîs [qui commença en rajab 234 (janvier 849)], le nombre des immigrants à Fès fut très grand. Il y avait parmi ceux-ci, venant d'El-Qairouan, Mohammed ben 'Abdallâh El-Fihri El-Qaroûy qui s'établit à la 'adoua des Qaroûiyîn avec ceux de ses concitoyens (d'El-Qairouan) qui étaient venus avec lui. Il mourut laissant deux filles. L'une d'elles était Fâṭima surnommée Oumm El-Banaïn ; l'autre se nommait Maryem. Elles recueillirent de l'héritage de leur père, une fortune considérable et légitime qu'elles résolurent de consacrer à des œuvres pies.

Elles savaient que les habitants avaient besoin d'une Grande Mosquée dans chacune des deux 'adoua, car les deux anciennes

---

(1) El-'Adel règna de 621/1224 à 624/1227 ; El-Mamoûn de 624/1227 à 629 ou 630/1232.

(2) De 630 à 668/1269, date de la prise de Marrâkech par les Mérinides il s'est écoulé trent-huit ans ; mais Fès était déjà tombée au pouvoir des Mérinides en 646/1248.

(3) Le texte de la *Zahrat el-As* pour ce récit a été plagié par l'auteur de la *Djadwat* (éd. p. 28 et s.) à peu près mot pour mot. Mais ce texte est tiré lui-même du *Qirṭâs* (éd. p. 38 et s.) à peu de variantes près ; voir aussi *Berb.*, tr. II, 565.

Et s'il avait tenu compte de la Ville Blanche (Fès ejjdîd), du Mellâḥ [1] et de toutes les grottes existant aujourd'hui à Fès, la statistique aurait bien dépassé ces chiffres.

A cette époque, sur les deux rives de l'Oued El-Kebir (Oued Bou Khrareb d'aujourd'hui) à partir de son entrée en ville, jusqu'à sa sortie il y avait les teinturiers et leurs boutiques, les ateliers des tanneurs, ceux du savon, les magnaneries [2], les bouchers, les fabricants de beignets [3], les emplacements servant à la cuisson du fil (à teindre) [4], des gargotiers [5] et d'autres industries de celles qui ont besoin d'eau. Dans les quartiers élevés se trouvaient les ateliers de tissage.

Dans la ville on ne voyait pas d autre rivière que (le bras principal) de l'Oued El-Kebîr [6], car, sur ses bras (dérivés avant l'entrée en ville) on a construit des boutiques, des maisons et des pavillons.

Il n'y avait point alors à l'intérieur (des murs) de la ville de jardins extérieurs ou intérieurs [7] aux maisons à l'exception de (ceux de) Zitoûn ben 'Aṭiya.

---

(1) Il ne pouvait être question de la Ville Blanche et du Mellâḥ dans une statistique datant de l'époque almohade, puisqu'ils ne furent fondés qu'au temps des Mérinides.

(2) L'élevage du ver à soie et la fabrication de la soie fut très prospère à Fès jusqu'à la fin du XIXe siècle. Elle avait totalement disparu depuis, jusqu'à l'arrivée des Français, à la suite d'une épidémie sur les vers à soie. Elle a repris de l'importance avec le Protectorat, dès 1915.

(3) Le mot beignet *asfandj*, « éponge » a donné *sfenj* à Tlemcen et *sfejj* à Fès avec le nom de métier *seffâj*.

(4) La phrase arabe dans notre texte est : المواضع المعدة (الكوش) لطبخ الغزل (*Qirṭâs* = ولاجران المعدة ; je ne vois pas bien de quelle industrie il s'agit ici.

(5) C'est le mot *fawwâl* (*foûl* « fève ») que je traduis par « gargotier », sens qu'il a encore dans le parler de Fès, tandis qu'à Tlemcen dans le même sens c'est *ḥammâṣ* (de *ḥimmaṣ*, « pois chiche ») qui est seul employé.

(6) Celui même qui séparait et sépare encore la ville en deux et sert d'égout collecteur à ciel ouvert.

(7) Sur le sens de بستان et de رياض employés ici, voir mes *Inscriptions*, p. 127, n. 2. Le *Qirṭâs* d'où ce passage est tiré donne رياض et غرس.

dans chacune, un atelier pour la frappe de la monnaie. On y comptait en outre 3,094 tisserands, 47 fabriques de savon, 86 ateliers de tanneurs, 116 ateliers de teinturerie, 12 ateliers pour la confection des barres de fer et de cuivre, 11 verreries, 135 fours à chaux (1), 1,170 fours à pain, 400 machines en pierre pour faire le papier (2) ; tout cela était à l'intérieur de la ville.

En dehors des murs il y avait 180 ateliers de céramique (3). Cette (statistique) a été copiée par le « mochrif » 'Ali ben 'Omar El-Aoûsi, qui a déclaré l'avoir copiée (sur celle qui avait été écrite) de la main de..... *mochrif* (4) de la ville (de Fès) au temps d'En-Nâṣir fils d'El-Manṣoûr..... (5).

---

(1) Il est probable qu'à cette époque ancienne, comme aujourd'hui, les fours à chaux étaient en dehors de l'enceinte de la ville et non à l'intérieur et que c'est fours à pain (خبز au lieu de جير), qu'il faut lire avec *Qirṭâs* (éd. 29).

(2) On ne fabrique plus de papier ni de verre à Fès aujourd'hui ; mais toutes les autres industries mentionnées ici y sont encore représentées par de nombreux ateliers.

(3) En ce qui concerne la céramique, il y eut toujours à Fès de fort nombreux ateliers et encore aujourd'hui c'est l'une des plus importantes industries de Fès. Voy. mes *Industries de la Céramique à Fès*, Alger et Paris, 1918, un vol. in-8.

Tout ce passage n'est qu'un abrégé du *Qirṭâs* (éd. p. 29 et 30) qui donne : 782 oratoires, 73 bains publics, 472 moulins, 89.236 maisons, 19,041 « maṣriya », 467 fandaqs, tant pour les marchandises que pour le logement des étrangers, 9.082 magasins, 9,064 ateliers de tisserands en haïk, 47 fabriques de savon, 86 ateliers de tanneurs, 116 de teinturerie, 12 ateliers pour le cuivre, 135 fours à pain (كوشة), 1,170 petits fours à pain (فرن), 11 verreries ; hors de la ville, 188 ateliers de céramique.

(4) Surintendant des finances (cf. les sens divers de ce mot et les références données par Dozy, *Supplément*, I, 750). Il n'est pas question de cet important fonctionnaire, immédiatement au-dessous des vizirs, dans la composition du makhzen mérinide donnée par Bouali et G. Marçais (*Rawḍat en-Nisrîn*, p. XV-XVI).

(5) Il y a deux courtes lacunes dans notre manuscrit du texte arabe. Le texte du *Qirṭâs* (éd. 29 et 30) qui a été vraisemblablement plagié intégralement ici par notre auteur ne donne pas ce passage dans l'éd. de Fès ; mais il doit sans doute se trouver dans certains manuscrits du *Qirṭâs*. L'auteur de la *Djadwat* a parodié le passage du *Qirṭâs*, mais ne donne pas non plus l'indication du document original (cf. *Djadwat*, éd. p. 28).

qui appartient à la qaṣba ; *Bâb El-Ouâdi* (1) à l'usage des khalifes pour leur passage à l'entrée ou à la sortie de la qaṣba ; *Bâb El-Ḥadîd* (2), *Bâb Zîtoûn ben 'Aṭiya* (3), *Bâb El-Djiziyîn* (4). Ces cinq portes sont ouvertes (en permanence) (5) ; mais toutes sont fermées dans les époques de famine.

Au temps des Almoravides, et après eux, des Almohades, Fès atteignit un degré de félicité, de bien-être, de tranquillité, de sécurité et de quiétude que n'a jamais atteint une ville du Maghrib.

C'est surtout au temps de l'Almohade El-Manṣoûr et de son fils Moḥammed En-Nâṣir (qu'il en fut ainsi). Il y eut alors à Fès 785 oratoires, 42 chambres d'ablutions, 80 fontaines, 93 bains, 472 moulins hydrauliques, 89,236 maisons, 17,041 « maṣriya » (6), 467 fandaqs (7), 9,082 magasins de vente ; il y avait une *qiṣâriya* (8) dans chaque 'adoua de Fès et, également

(1) Peut-être *Bâb Ech-Chems*, à l'ouest de la précédente : elle devait être percée dans le voisinage de la rivière, traversant la qaṣba et les jardins de Bou Jeloûd actuels. Il est difficile d'en marquer l'emplacement précis, à cause des nombreux changements subis par ce rempart almohade dans cette partie voisine actuellement de Fès-Jdîd.

(2) Existe encore sous ce même nom.

(3) M. de Castries a identifié cette porte d'une façon certaine, m'a-t-il écrit ; elle était exactement à la hauteur du Dar Mac-Lean actuel (voir aussi Plan Gaillard et Plan Massignon). C'est l'ancienne *Bâb El-Ḥamra* et *Bâb El-Fawwara* ; elle est aujourd'hui murée.

(4) Au sujet de cette porte disparue, M. de Castries, m'écrit : *Bâb El-Djîziîn* (الجيزيين) entre Bâb El-Ḥamra et Bâb Ftoûḥ. *El-Djîziîn* serait le nom de la tribu à laquelle M. Idrîs aurait fait construire cette porte.

(5) Le texte de ce passage n'est pas clair. La *Djadwal*, qui reproduit tout ce qui précède, ne le donne pas et parmi ces cinq portes, elle ne cite que Bâb El-Ḥadîd.

(6) Sur ce mot, voir mes *Inscriptions*, p. 47, n. 4.

(7) Sur ce mot, voir mes *Inscriptions*, p. 130, n. 4.

(8) Sur ce mot, voir mes *Inscriptions*, p. 180, n. 3 et 387, n. 1. Il semble bien qu'ici ce mot soit synonyme de *soûq*, c'est-à-dire le *quartier des bazars* qui marque, dans une *ville* musulmane (une *madîna*), le centre commercial, comme la *Mosquée-Khatîb* en est le cœur religieux, comme le *sour* ou rempart en fait un *oppidum*. Voir aussi sur ce passage *Qirṭâs* (éd. p. 25 et 29).

Bâb Ech-Charî'a[1]. Cette dernière est une porte si haute que le cavalier porteur d'un étendard élevé ainsi que le lancier armé d'une longue lance peuvent la franchir sans avoir à incliner l'étendard ou à abaisser la lance. Elle a été nommée Bâb El-Maḥroûq, à cause d'El-'Obaïdi, le rebelle des montagnes d'Ouazzân dont, lorsqu'il fut pris et mis à mort, la tête fut suspendue au fronton de Bâb Ech-Charî'a, tandis que son corps fut brûlé (*maḥroûq*) sous cette porte.

Cet événement eut lieu le jour où furent montés les vantaux de la porte, par ordre du Commandeur des Croyants, Moḥammed En-Nâṣir, fils d'El-Manṣoûr, en l'an 600 (1203-1204)[2].

Signalons encore, parmi les portes de Fès : *Bâb El-Maṭmar*[3],

---

(1) Il a déjà été question précédemment de quelques-unes de ces six portes de Fès. Trois d'entre elles étaient percées dans le rempart du quartier des Andalous, les trois premières, les trois dernières appartenaient au quartier des Qaroulyîn ; celles qui subsistent de nos jours, sont : *Bab el-Fotoûh*, *Bâb Beni Msâfer* (actuellement *Bab Sidi Bou Djîda*), *Bâb El-Djîsa* (*Bâb Gîsa*), *Bâb Ech Charî'a* (c'est *Bâb Maḥrouq*), les deux autres ont disparu.

(2) Ces indications au sujet de Bâb Ech-Charî'a sont partiellement tirées du *Qirṭâs* (éd. p. 197) sous la rubrique de l'an 600. Elles ont, ainsi que tout ce qui les précède et les suit, été plagiées par l'auteur de la *Djadwat* (éd. p. 27) qui présente cependant quelques importantes variantes au sujet du Sour Zitoûn ben 'Atiya et du grand « bordj » attribués au Mérinide Ya'qoûb ben 'Abd El-Ḥaqq.

(3) Cette porte fermée aujourd'hui et partiellement enterrée sous les terres rapportées des deux côtés du rempart a été retrouvée cependant en 1921 par M. le comte de Castries. « Elle doit son nom, m'écrivait-il, à d'immenses silos, en partie combles, qui se trouvent dans le cimetière de Bâb Maḥroûq (Sidi Bou Beker ben el-'Arabi), au milieu des tombes. La porte est très visible à l'extérieur du rempart, mais les terres rapportées l'ont enterrée de près de 2^m^ ». Mon éminent correspondant a eu l'obligeance de la faire déblayer et d'en orendre une photographie qu'il m'a envoyée ; il en a également marqué la place sur un plan ; elle se trouve un peu à l'Ouest de *Bâb Maḥroûq* et donne à l'intérieur sur le terrain du *ḥeri* actuel voisin de la qaṣba et de la Mosquée de Bou Jeloûd. Voir aussi la place des silos marquée sur le Plan de Fès à l'époque almohade (Plan Gaillard, p. 31).

donna de démolir la plus grande partie des remparts; ils restèrent ainsi jusqu'à ce que Ya'qoûb el-Manṣour (l'almohade)[1] se mit à faire relever ce qui avait été détruit; le fils de celui-ci, Abou 'Abd Allâh En-Nâṣir acheva ce travail. Ce dernier souverain fit rebâtir la qaṣba[2] qui est encore sur la rivière. Or de l'avis unanime de ceux qui ont visité les constructions royales dans les divers pays, cette qaṣba n'a pas sa pareille, à cause de la rivière qui la partage en deux. C'est En-Nâṣir également qui fit construire la *porte d'Ech-Cha'ît'a* dans l'état où on la voit encore; de même que l'Émîr des Musulmans, le soldat de la guerre dans la voie d'Allâh, Yoûsof ben Tachefîn construisit le rempart (connu sous le nom) de Sour Zîtoûn ben 'Aṭîya[3]. En-Nâṣîr fit encore élever le grand « bordj » qui se trouve là et sur lequel son nom a été inscrit[4].

A notre époque, les portes de Fès sont : Bâb El-Fotoûḥ, Bâb El-Khoûkha, Bâb Beni Msâfer, Bâb El-Djîsa, Bâb Aṣlîten et

---

(1) Grand constructeur, au dire des chroniqueurs de son règne; il demeura sur le trône almohade de 580/1184 à 595/janvier 1199.

(2) Il s'agit de la *qaṣba* connue aujourd'hui sous le nom de qaṣba de Bou Jeloud. Mais l'ancienne qaṣba s'étendait plus au nord que celle d'aujourd'hui qui a été reconstruite et restaurée à diverses époques. L'énumération faite ci-dessous des portes donnant sur cette qaṣba et l'identification certaine de l'une d'elles (*Bâb el-Maṭmar*, dont il sera parlé ci-dessous), par M. le comte H. de Castries qui a bien voulu la faire déblayer extérieurement et m'en envoyer une photographie, permettent, sinon de délimiter l'emplacement précis de cette qaṣba almohade de Fès, du moins de signaler sans erreur possible, une partie des terrains qu'occupait la qaṣba reconstruite par l'Almohade En-Nâṣir.

(3) Cette partie du rempart se trouvait dans la partie ouest de la 'adouat el-Andalous (voir Plans Gaillard, II et III, p. 30 et 31), dans la partie au-dessous de l'actuel *Bordj Sud*.

(4) Cette autre forteresse bâtie sur la hauteur, dans le quartier des Andalous, en face de la qaṣba qui était sur le revers du plateau opposé a disparu. Elle se trouvait vraisemblablement à l'endroit nommé aujourd'hui « Bordj el-Mektoub » peut-être en souvenir de l'inscription ici mentionnée. Toutefois il ne reste rien en ces lieux que quelques ruines de murs, et il n'y a pas été fait encore de fouilles, à ma connaissance. On comparera ce passage à *Djadwat*, tr. p. 27.

les Musulmans. Mais les Juifs ne mirent aucun empressement à ces travaux et les Émirs trouvèrent mauvais de les charger de ces constructions, de crainte qu'ils n'en retirassent le mérite. C'est pourquoi cette affaire fut négligée. Je tiens tout ceci de plusieurs « cheîkhs » de Fès [1].

Quant au plus grand des Lemtoûna, leur chef, Yoûsof ben Tâchefîn, il ne cessa d'accroître le nombre des oratoires à Fès, ainsi que celui des fontaines, des bains et des fandaqs, et de pourvoir à leur entretien [2].

Il fit venir de Cordoue des artisans qui construisirent (ou restaurèrent) nombres d'édifices à Fès [3]. Ce fut au point que cette ville atteignit la (brillante) situation dont nous parlerons plus loin, s'il plaît à Allâh, le Très Haut. Ce fut sous le règne de ce souverain que les deux 'adouas furent (définitivement) réunies en une seule ville.

Son fils 'Ali fit contruire le rempart d'El-Qoûrâja entre Bâb El-Djîsa et Bâb Aṣlîten [4] par les soins de son qâḍi 'Abd El-Ḥaqq ben Mo'icha qui en paya les frais au moyen d'une souscription faite dans la population de Fès, ainsi que le spécifie l'auteur d'*El-Miqbâs*.

En l'an 542/1147-1148, l'Émir 'Abd el-Moûmen ben 'Ali [5] or-

---

(1) Toute cette histoire au sujet du Pont d'Er-Remîla et des Juifs manque dans *Djadwat* qui donne cependant tout ce qui précède au sujet de ces ponts, ainsi que le passage qui suit, relatif aux Lemtoûna, (éd. p. 27).

(2) Des indications analogues sont fournies par *Qirṭâs* (éd. 103-104) sous la rubrique de l'an 462/1069-1070, lors de la conquête de Fès.

(3) Ce passage, précieux pour l'histoire de l'art au Maroc, manque dans *Qirṭâs*, mais il a été reproduit, sans citation d'origine, par *Djadwat* (éd. p 27) et M. Gaillard, p. 35.

(4) Aucune partie du rempart de Fès ne porte aujourd'hui ce nom, et il n'y a pas non plus de porte du nom de Bâb Aṣlîten, mais comme 'Aïn Aṣlîten (ou Aẓlîten) [voy. mes *Inscriptions*, p. 179] est encore connue ainsi que Bâb El-Djîsa, il est facile d'identifier très approximativement ce te partie du rempart, sinon la porte disparue.

(5) Sur ce personnage, premier khalife de l'empire almohade, voir mon art. dans *Encyclopédie de l'Islâm*, s. v.

El-Waqqàdîn (1), le sixième, celui d'*Er-Remîla*. Lorsque survint la grande inondation de 725/1324-1325, le pont de Bâb es-Selsela fut emporté, ainsi que tous ceux qui étaient en aval (2). Ce fut le Commandeur des Croyants (sic) Abou Sa'îd (le Mérinide) qui fit reconstruire le pont des Ṣabbâghîn et celui de Bâb es-Selsela ; ils furent remis dans l'état où ils sont encore. Le pont d'El-Waqqadîn fut restauré par des ouvriers musulmans de bonne volonté. Quant au pont d'Er-Remîla il n'a pas été reconstruit jusqu'à présent. Puisse Allâh ajouter sa (restauration) au trésor des actions de notre souverain béni et heureux et la compter au nombre de ses bonnes œuvres dont la trace demeurera et dont la récompense sera accrue, car une telle action fait partie des bonnes œuvres qui ont pour résultat un avantage durable et une grande utilité.

La cause pour laquelle les princes ont négligé sa reconstruction est que les remparts de la ville, lorsque les terrassiers et les ouvriers en pisé furent désignés, à l'époque d'anarchie (que traversa le pays) au début du présent gouvernement mérinide — qu'Allâh soutienne cet empire — (la construction) du rempart (du quartier) d'Er-Remîla incomba aux Juifs — qu'Allâh les maudisse — et cela fut publié parmi eux. Lorsque ce pont (d'Er-Remîla) fut détruit, les Juifs répandirent la nouvelle que sa reconstruction leur incombait, comme aussi les travaux du rempart, afin de profiter de l'occasion pour que le bénéfice de cette action leur en revînt et qu'ils en privassent

(1) Inconnu aujourd'hui et aucune trace du nom d'El-Waqqadîn ne permet de l'identifier ; le nom du « fandaq el-Ouqîd » dans lequel on fabriquait autrefois de l'amadou, avant l'usage des allumettes, dans le quartier des Nekhkhâlîn, n'est pas une indication à retenir. D'ailleurs en ces lieux les constructions ont recouvert la rivière qui est aujourd'hui canalisée en cet endroit.

(2) Le récit de cette inondation et des dégâts commis est rapporté dans *Qirṭâs* (éd. p. 298-299, tous ces passages n'ont pas été traduits par Beaumier) cela eut lieu en 724/1323-1324 ; le souverain Mérinide fit refaire en 725 le pont d'Es-Selsela et en 726 celui d'Eṣ-Ṣabbâghîn.

(des Andalous et des Qarouiyîn) par des ponts pour le passage de l'une à l'autre.

Le premier de ces ponts fut celui d'*Abou Ṭôba* (1) que restaura l'Émir Abou Sa'îd 'Otmân (le Mérinide) — qu'Allâh lui accorde Sa Miséricorde ; le second fut celui d'*Abou Barqôqa* (2), le troisième celui de *Bâb es-Selsela* (3), le quatrième, celui des *Ṣabbâghîn* (4), le cinquième, celui de *Kahf*

---

(1) Ce pont n'existe plus et aucun lieu ne porte actuellement à Fès le nom d'Abou Tôba.

On lira au sujet de ces ponts, le passage qui leur est consacré dans *Djadwat* (éd. p. 26) qui est une mise au point de celui-ci par l'auteur.

(2) Est encore connu sous le nom de Pont d'*Er Reṣîf* entre le quartier de ce nom (rive gauche) et le quartier d'*El-Mokhfiya* (rive droite) ; la rue venant d'El-Mokhfiya et aboutissant à ce pont se nomme encore *Gzem Barqôqa* ; comme autrefois les maisons de cette rue étaient souvent détruites par les crues de l'Oued Fès (*Oued Bou Khrâreb* actuel). On entend encore le dicton :

Eddâr fî gzem Barqôqa ghâlya bfoûla maḥrôqa, « Une maison au Gzem Barqôqa ne vaut pas une fève grillée ». La *Djadwat* dit à propos de ce pont : « il est sur l'Oued Er-Reṣîf ; lorsqu'il fut restauré par Abou l-'Abbâs El-Waṭṭâsî (règna de 932/1526 à 953/1546 et de 955/1548 à 957/1550), Abou Mâlik 'Abd El-Wâḥid ben Aḥmed El-Wancharîsi (assassiné en 955/1549 : voir Ben Cheneb, *Étude sur les Personnages mentionnés dans l'Idjaza de 'Abd El-Qâdir El-Fasy*, p. 284-285 et Cour, *Beni Waṭṭâs*, p. 195-196) a dit et a écrit sur un linteau qui se voit encore en cet endroit, les trois vers :

La beauté d'Er Reṣîf a été renouvelée par Abou l-'Abbâs, gloire des sultans de la famille de Waṭṭâs ; cette beauté a atteint le comble de la perfection, pour quiconque franchit ce (pont) entre les deux 'adoua de Fès ; et cette restauration a eu lieu au milieu de l'an 951 de l'hégire de l'Élu, Envoyé aux humains ». M. Gaillard qui a donné une traduction de ce passage de la *Djadwat* (p. 32) a négligé de traduire cette citation d'El-Wancharîsi.

(3) Le Pont de Bâb Es-Selsela se nomme aujourd'hui *Et-Ṭarrâfîn*, « Les savetiers », parce que les échoppes des savetiers se trouvent en cet endroit.

(4) Le pont des *Ṣabbâghîn*, « des Teinturiers » est évidemment celui auprès duquel se tiennent aujourd'hui les ateliers des teinturiers ; mais il n'est plus connu maintenant que sous le nom « Pont de la rue de Ben Zekkoum » ou encore de « Pont d'El-Khorchef ».

Fotoûḥ fut victorieux de son frère et le tua. Après ce succès il ne voulut pas que subsistât (le nom de ce frère ennemi, pour désigner) la porte de ʿAdjîsa ; il ordonna le changement de ce (nom) et l'abandon (de sa désignation par) son fondateur. On supprima donc la lettre *ʿaïn* de ʿAdjîsa et on la remplaça par l'article, ce qui donna *Bâb El-Djîsa* qu'elle porte encore aujourd'hui.

Après la victoire d'El-Fotoûḥ sur son frère, arrivèrent les Lemtoûna [1] qui l'attaquèrent et l'assiégèrent. El-Fotoûḥ s'échappa de la ville et abandonna le gouverneur de cette place, son cousin El-Moʿanṣir [2]. (Celui-ci y demeura) jusqu'à l'entrée des Lemtoûna qui, à cette occasion, tuèrent les Zenâta [3].

Sous le gouvernement des Lemtoûna, furent démolis les remparts de la partie haute de l'*Oued el-Kebîr* (bas principal de l'Oued Fès) dans le voisinage du *Ḥauḍ es-Safardjel* [4] (Ouest de la ville), ainsi que le rempart du bas de la ville (Est), à hauteur (du quartier) d'*Er Remîla* [5]. Ces remparts avaient été bâtis par Doûnâs, lorsqu'il avait fait construire l'enceinte autour des faubourgs ; il avait fait placer des arcatures avec des grillages en madriers de cèdre d'un travail soigné, pour le passage de l'eau (de la rivière). Il avait également réuni les deux ʿadouas

---

(1) Sur l'histoire des Lemtoûna, voir l'art. « Almoravides » dans l'*Encyclopédie de l'Islâm*.

(2) C'est Moʿansir ben El-Moʿizz ben Zîrî ben ʿAṭiya el-Maghrâoui (cf. *Qirṭâs*, éd. 80).

(3) Il y eut en réalité une première entrée des Almoravides à Fès après la disparition de Moʿansir dans un combat ; elle se fit sans coup férir et l'amân fut accordé aux Zenâta ; mais ils se révoltèrent peu après contre la garnison almoravide (400 hommes) et l'Émir Yoûsof ben Tâchefîn assiégea la ville, la reprit et fit massacrer tous les Maghraoua et les Beni Ifren dans les Mosquées et les rues de la ville en 462 (1069-1070) ; il y eut selon le *Qirṭâs* (p. 81) plus de 20.000 victimes.

(4) Inconnu actuellement dans la toponymie de Fès ; n'est pas mentionné par les auteurs.

(5) Le nom d'Er-Remîla est encore connu à Fès ; le pont actuel de Beïn El-Medoûn est aussi appelé Pont d'Er-Remîla (*Gaillard*, p. 32).

Mo'izz ben 'Aṭîya ben Zaïd entoura de murs tous les faubourgs, dans chaque 'adoua ; il y fit élever des oratoires, des hôtelleries, des bains, etc... Fès ne forma plus alors qu'une seule ville [1] ; puis le pouvoir après Doûnâs (en 452/1060) passa à ses deux fils, El-Fotoûḥ et 'Adjîsa.

El-Fotoûḥ eut pour sa part le quartier des Andalous ; il y fit construire un château-fort pour y demeurer, à l'endroit nommé *El-Keddân* et ouvrit une porte (dans le rempart). Cette porte reçut le nom de ce prince (*Bâb el-Fotoûḥ*).

'Adjîsa reçut en partage le quartier des Qaroûiyîn ; il y fit également construire une qasba, à l'endroit nommé *'aqbet eṣṣa'ter* (la côte du thym) et fit percer une porte dans le rempart ; elle prit son nom (*Bâb 'Adjîsa*) [2].

Or l'inimitié régnait entre les deux frères et ils se firent la guerre. Ils se livrèrent bataille en un lieu connu sous le nom de *Kahf el-Waqqâdîn* [3]. Cette lutte (fratricide) développa les troubles dans le pays du Maghrib, et la cherté de la vie devint excessive, jusqu'au moment où les Lemtouna (Almoravides) apparurent aux confins du Maghrib. Vers cette époque El-

---

(1) Cpr à *Qirṭâs* (éd. p. 79 et s.) ; tous ces passages, depuis le commencement du chapitre, figurent dans la *Djadwat*, p. 25-26, ainsi que la suite.

(2) Bâb el-Fotoûḥ (aujourd'hui Bâb Ftoûḥ) au Sud de Fès, vraisemblablement très voisine de l'ancienne *Bâb el-Qibla* (cf. plan Massignon, p. 220 et plan Gaillard, p. 31, Pl. II) ; quant à Bâb 'Adjîsa, elle remplaçait plus au Nord dans le nouveau rempart succédant au rempart d'Idrîs, l'ancienne *Bâb Ḥisn Sa'doûn* (cf. *Plans* précités) ; elle fut remplacée elle-même au XIIIe siècle lors de la construction du rempart Almohade par le sultan En-Nâṣir, par *Bâb Gîsa* marquant une nouvelle extension de l'enceinte de Fès. *Gîsa* est mis pour *Djîsa* (selon la phonétique du dialecte de Fès) et *Djîsa* serait peut être l'abréviation de *'Adjîsa* (voir ci-dessous). Sur l'histoire de ces deux fils de Doûnâs, voir *Qirṭâs*, éd. p. 80 ; *Djadwat*, p. 28 ; etc.

(3) Ce nom propre n'est donné que par *Djadwat*, *loc. cit.*, qui reproduit textuellement ce passage ; il ne figure pas dans *Qirṭâs* ; il est inconnu aujourd'hui. Les autres noms propres cités ci-devant : *El-Keddân* et *'Aqbet eṣṣa'ter*, sont encore employés dans la toponymie de Fès, ainsi qu'on l'a dit ci-devant.

CHAPITRE II

De ceux qui ont entouré Fès de remparts. — Des Mosquées, édifices (divers) et bains. — Louanges de cette ville et de son Patron, par d'estimables docteurs.

(L'auteur) a dit : La ville de Fès — qu'Allâh le Très Haut la protège — n'a pas cessé, depuis sa fondation, d'être la demeure du *fiqh*, de la science, de la piété et de la foi. Elle est la capitale du Maghrib, son axe, son centre et son pôle à la fois. Elle fut le berceau des Idrisides Hasaniens qui en tracèrent le plan ; (elle fut aussi) la capitale des Zenâta et d'autres souverains musulmans du Maghrib. Les Lamtouna s'y installèrent au début de leur gouvernement sur le Maghrib ; puis il fondèrent la ville de Marrâkech et s'y transportèrent à cause de sa proximité du Sahara. Après eux vinrent les Almohades qui conservèrent (Marrâkech) comme capitale parce qu'elle était voisine de leur pays (le Haut Atlas des Maṣmouda) et se trouvait au centre de leurs tribus. C'est du moins ce qu'a rapporté l'auteur du *Miqbâs* et d'autres.

Durant cette période, les Émirs et les rois ne cessèrent de faire des constructions à Fès ; les habitants élevèrent des bâtisses dans les quartiers des deux villes (Fès-des-Andalous et Fès-des-Qaroûiyîn, séparées par l'Oued Fès), si bien que les (groupes d')habitations se réunirent de chaque côté, et cela fut ainsi jusqu'à la fin du règne des Zenâta [1].

Parmi les Émirs des Zenâta, Doûnâs ben Ḥamâna ben El-

---

(1) Le pouvoir des Zenâta disparut en 460 (1067-1068 de J.-C.) avec l'entrée victorieuse à Fès de Yousof ben Tâchefîn (cf. *Qirtâs*, éd. p. 81).

nom de « Choûlî » [1] avec lequel on prépare des (mets) variés avec divers légumes, et les plats (ainsi préparés) n'ont pas l'odeur de poisson [2].

(Citons encore) parmi les avantages (de Fès), l'inclination des gens à habiter cette ville. Depuis sa fondation, elle est habitée par une population variée, gens des campagnes et des villes qui ont émigré vers elle de toutes les contrées, éloignées ou voisines. Il n'est pas de ville, de pays qui n'ait à Fès des représentants, tenant commerce, habitation, industrie ou emploi. Aussi bien y trouve-t-on une agglomération comme il n'en est dans aucune autre cité ; les commerçants y sont venus, ainsi que les artisans, de toutes les régions, et tous les négoces y ont réussi, les biens de la terre y sont amenés (de partout), les ressources du monde entier s'y trouvent groupées et les grâces divines s'y sont épanouies.

C'est ainsi qu'il n'y a pas de savants plus distingués que ceux de Fès, ni d'enseignement des (sciences) traditionnelles plus ferme que le leur, ni de théologien scolastique meilleur que ceux de Fès, ni de lecteur (de Qoran) plus exact dans sa récitation, ni de médecin plus avisé, ni d'écrivain plus élégant, ni de prédicateur plus éloquent, ni de censeur des mœurs plus sévère, ni de poète plus délicat, ni d'artisan plus sûr de lui, ni de conteur plus disert que ceux de cette ville [3].

---

(1) Dozy (*Supp. aux Dict.*, I, 806) y voit « l'esturgeon ». Ce poisson a donné son nom à une rivière à l'Est de Tlemcen, l'Oued Choûli, affluent de l'Isser.

(2) A quelques variantes près ces renseignements figurent dans l'*Istibṣâr* (tr. p. 130-131), qui en ajoute d'autres sur le Sbou, les possibilités d'irrigation, ainsi que sur un bac suspendu pour la traversée de ce fleuve.

(3) Pour ces derniers passages on comparera ce que dit l'auteur du *Qirṭâs* (éd. Fès, p. 20).

poutres en cèdre, du Menzel de Khaoulân jusqu'à la Ma'moura de Salé, sur des radeaux que confectionnaient les marins.

Le fleuve Sbou sort d'une grotte inspirant l'effroi, entourée d'épais fourrés, dans le pays de Fâzâz (1); puis il traverse bientôt le pays des Waritîn (2). Quant à la source elle-même, on n'en peut atteindre le fond.

Les Berbères des environs ont fait diverses observations au sujet de cette source. Par exemple, si d'un malade ils veulent savoir s'il guérira ou s'il mourra, ils le transportent à la source, à l'endroit que l'on redoute; ils le plongent (dans l'eau) jusqu'à ce qu'il devienne presque noir, puis ils le retirent. Si le sang coule de sa bouche, ils en tirent l'heureux présage qu'il vivra ; s'il le sang ne coule pas, ils ne doutent pas qu'il mourra. En ce (présage) ils ont pleine confiance et nul ne le nie.

L'auteur de l'*Istibṣâr fî 'ajâïb el-Amṣâr* le mentionne (3). En fait les ignorants seuls agissent ainsi, car si l'on faisait une semblable expérience, le patient en mourrait. Mais on raconte là-dessus et sur des actes de ce genre des récits qui ont eu des témoins et ont été vraiment expérimentés.

Dans le Sbou, on pêche la grande alose qui remonte de la Ma'moura de Salé jusqu'à la source de ce fleuve (4). On y pêche également le poisson appelé El-Qorb (5) qui pèse un quintal et même davantage ; on y trouve encore le poisson connu sous le

---

(1) C'est le massif montagneux et forestier au Sud de Fès (voir les *Cartes* et *Istibṣar*, tr. p. 132 et n. 3).

(2) Sur ces Beni-Guariten de Léon, voir Massignon, p. 219 et les références indiquées ; y ajouter : *Djaḍwat*, p. 25.

(3) Tout ce passage se trouve en effet dans l'*Istibṣâr* (tr. p. 129-130). Au l. de معتاد ou de متعارف que donne la note 2 de la page 130, il vaut mieux lire avec notre Mst. متصادف ; il est cité également par *Djaḍwat* (éd. p. 25).

(4) Cpr : *Istibṣâr*, tr. p. 130.

(5) D'après Fagnan (*Istibṣâr*, tr. 130 n. 5) ce serait le thon ; orthographié *qirb* par Freytag ; notre Mst. donnait عرب ; ce mot sous l'un et l'autre forme manque chez Dozy.

l'Oued Fès, puis ensuite sur des chars de bois que traînaient des hommes, pour l'amener à la Médersa Ṣahrîj[1] située dans le quartier des Andalous. Quelques années plus tard le bassin fut transporté de cette Médersa dans celle (d'El-Meṣbâḥiya)[2] que (le sultan Abou l-Ḥasan) avait fait construire (en 749 = 1348) à côté de (la Mosquée d')El-Qarouiyîn. C'est ce bassin qui se trouve aujourd'hui au milieu de l'atrium de cette Médersa ; il fut amené d'Alméria en l'an 725 (1324-1325)[3].

On peut se demander comment on a pu calculer le poids de ce bassin. Ceux qui l'ont amené, lorsqu'ils furent sur le point de le débarquer, firent une marque au niveau de l'eau sur le bateau qui le portait. Puis il le débarquèrent et versèrent (dans le bateau) des quintaux de sable, pesé par petites quantités, jusqu'à ce que l'eau atteignit, sur le bateau, le niveau primitivement marqué Ensuite le sable fut enlevé et l'on sut par ce moyen le poids du bassin[4]. C'est ce qu'a rapporté un témoin oculaire. On prétend que ces faits furent consignés par un écrit, grâce auquel fut renseigné le Commandeur des Croyants (sic) Abou-l-Ḥasan — qu'Allâh lui soit miséricordieux !

Une opération analogue avait été faite pour les Portes d'El-Mahdiya qui furent construites en fer, au temps de ʿObaïd Allâh ; le poids de chaque battant était de mille quintaux au dire d'El-Bekri[5].

L'Émir Abou-l-Ḥasan envoyait de nombreuses charges de

(1) J'ai décrit cette Médersa dans mes *Inscriptions*, p. 116 à 168.

(2) Voir des détails sur cette Médersa dans mes *Inscriptions*, p. 229 à 255

(3) Et la Médersa Ṣahrîj avait été fondée en 721. C'est ici que se termine la citation de ce texte dans la *Djadwal*, p. 24 de l'éd.

(4) Sur cette manière de peser, on pourra voir également : *Nozhat el-Hâdi*, éd. 170 171, et tr. 262, qui cite la *Djadwal*. Mais Ibn el-Qâḍi ajoute un commentaire de son professeur dont la naïveté est piquante ; il dit que cette manière de peser n'est possible que si l'on remplace le corps à peser, dans la barque, par un corps lourd et non par de la laine ou des substances légères.

(5) Voir la description de ces portes d'El-Mahdiya chez El-Bekri (trad. J. A., 5ᵉ série, t. XII, p. 484-485).

d'El-Mahdiya, en 552 (1157 J.-C.). J'ai trouvé cette indication écrite de la main du faqîh Abou 'Abdallâh Mohammed fils du qâdi Aḥmed ben Mimoun el-Fichtâli [1].

Le Commandeur des Croyants Abou 'Inân [2] donna également l'ordre de faire deux vaisseaux de guerre, dans le port de Khaoulân, dont l'un à deux mâts pouvant porter cent vingt guerriers ; le second était un challir portant deux cents guerriers ; ils furent lancés sur le fleuve Sbou et naviguèrent jusqu'à la (forêt de) Ma'moura de Salé [3]. Ceci eut lieu en l'an 756 (1355) sous la direction de l'homme de confiance du souverain Abou 'Otmân Sa'îd ben Khazar. Celui-ci avait déjà transporté pour notre maître, feu l'Émir des Musulmans Aboul-Ḥasan (le Mérinide) [4] un bassin de marbre blanc du poids de cent quarante-trois quintaux, qui fut amené d'Alméria jusqu'à la ville de Larache ; de là on lui fit remonter la rivière de Qṣar 'Abd el-Karîm [5]. De cette rivière il fut placé sur un char de bois que traînèrent les (gens des) tribus et leurs chefs, jusqu'au village des Oulâd Mokharreba [6] situé sur les bords du Ṣbou. De là il fut transporté sur ce fleuve jusqu'à son confluent avec

---

(1) Sur ce cadi, mort en 777 (1375-1376) qui fut investi de la charge de cadi de Fès par le Mérinide Abou 'Inân (cf. *Djadwat*, éd. 146-147). Quant à l'expédition contre El-Mahdiya d'Ifrîqiya, elle eut lieu en 553 selon les chroniqueurs et la place fut enlevée aux Chrétiens de Sicile par 'Abd el-Moumen qui l'avait attaquée avec sa flotte en même temps que par terre.

(2) Sur ce souverain mérinide et son titre califien, voir mes *Inscriptions*, p. 9, note 1 et *passim*.

(3) Le port de Khaoulân était un amont du confluent de l'Oued Fès et du Sbou. La Ma'moura de Salé est la forêt actuelle de chêne-liège de la Mamora des cartes qui arrive non loin du Sbou et du port de Kenitra, à une trentaine de kilomètres de Salé.

(4) Père d'Abou 'Inân (cf. mes *Inscriptions*, *pass.*).

(5) Dans la *Djadwat* (éd. p. 24) qui reproduit ce passage de notre texte, on lit Qṣar K'tâma, c'est-à-dire El-Qṣar el-Kebir (cf. *Istibṣâr* et références, p. 140 note 2) qui est aussi nommé Qṣar 'Abd El-Krim et Qṣar Ṣanhâdja. La rivière en question est le Lokkous des cartes. Cf. aussi Michaux Bellaire (*Arch. maroc.*, vol. VI, n°s II, III-IV).

(6) Je ne connais pas de village, ni de fraction de tribu de ce nom.

que son eau est douce, que les arbres y croissent, que les fruits y mûrissent, que les (terres à) céréales y sont fertiles, que les ressources y sont abondantes, que le caractère des habitants y est amène, que ceux-ci y sont beaux de visage et de forme, que leur intelligence est séduisante, qu'il y a peu de différence entre les uns et les autres dans le naturel, les caractères physiques, la beauté, la propreté. Les habitants de Fès surpassent les autres hommes dans les sciences, les arts et l'aptitude au négoce.

(Citons) encore à l'avantage de cette ville que ses habitants sont peu enclins à la désobéissance envers leurs chefs, qu'ils sont particulièrement soumis à leurs administrateurs et à leurs préfets [1].

La proximité du fleuve Sbou sur lequel peuvent voguer les barques et les petits bateaux jusqu'à l'Océan (Atlantique) et qu'ils peuvent remonter de l'Océan jusqu'au confluent de l'Oued Fès [2] (est aussi un avantage). C'est ainsi que Fès eut un atelier de construction de barques et de bateaux, à l'endroit nommé El-Hobbâlât, sur le territoire des Beni 'Abbouda [3] et non loin du confluent de l'Oued Fès et du Sbou, au temps de l'almohade 'Abd el-Moûmen, lorsqu'il voulut entreprendre la conquête

---

(1) Ces deux paragraphes sont très résumés dans *Qirṭâs* (éd. 20). Il est inexact de dire que les habitants de Fès sont dociles à leurs chefs ; l'histoire démontre le contraire ; et c'est pour mieux réduire les rébellions de cette ville que le sultan Saadien Aḥmed el-Mansour fit construire les deux bastions existant encore (990 H.).

(2) Le confluent de l'Oued Fès avec l'Oued Sbou est à 3 kilomètres environ à l'Est de la ville.

Tout ce qui précède des qualités de Fès et de son territoire a été copié par l'auteur de la *Djadouat* (éd. p. 23-24), sans indication d'origine.

(3) Le lieu nommé El-Ḥobbalât (ainsi prononcé, aujourd'hui et non الهبالات que donne notre texte) existe encore sous ce nom. C'est une partie des jardins et des champs situés à l'Est de Fès, en allant vers l'Oued Sbou. Il y a près de là un endroit que l'on nomme aujourd'hui Dâr eṣ-Ṣin'a « les ateliers » où l'on prétend que se fabriquaient jadis les embarcations pour la navigation sur le Sbou. Les Beni 'Abbouda sont inconnus aujourd'hui dans cette région.

ses fleurs de toutes les variétés de la terre. C'est ainsi qu'il n'est pas difficile à quiconque désire quoi que ce soit de ces produits (de s'en procurer).

Il ne manque pas non plus à Fès et dans ses environs de gibier rampant, volant et marchant.

Non loin de la ville sont des sources chaudes comme celles de Khaoulân [1], de Ouachtâna et d'Abou Ya'qoub [2]. Ces sources possèdent des établissements pour prendre le bain et se soigner. L'Émir des Musulmans Abou-l-Ḥasan prit soin de faire construire un établissement à la source chaude de Khaoulân ; cet établissement bien construit facilitait aux baigneurs les avantages et les profits du bain [3].

A Fès la chaleur, ni le froid ne sont excessifs et les deux saisons (extrêmes, l'été et l'hiver) y sont tempérées et s'y font à leur moment ; le passage de l'automne à l'hiver se passe sans transition sensible de température ; il en est de même pour toutes les autres saisons dans lesquelles on passe de l'une à l'autre insensiblement.

C'est pour cette raison que le territoire de Fès se rapproche du climat tempéré, que sa terre est favorable (aux cultures),

---

(1) C'est aujourd'hui la source thermale de Sidi Harâzem. C'est le *Chaulan* de Léon (II, p. 194) qui nous apprend qu'à son époque les bourgeois de Fès s'y rendaient une fois l'an, au mois d'avril. C'était vraisemblablement à l'occasion de la fête existant encore et connue sous le nom de « Fête du Sultan des Tolba » qui a lieu toujours en avril. Les habitants de Fès continuent à quitter la ville à ce moment mais ils vont camper sur les bords de l'Oued Fès en amont de la ville.

(2) La source chaude d'Abou Ya'qoub est encore très fréquentée aujourd'hui par les malades marocains ; elle est à 25 kilomètres au Nord-Ouest de Fès. (Cf. *France-Maroc*, 15 octobre 1917, p. 31-32). Quant à Ouachtâna, il vaudrait mieux lire avec *Qirṭâs* (éd. p. 20) Bou Chtâta qui est encore le nom d'un col à l'Est du Djebel Zalagh, à 5 ou 6 kilomètres à l'Est-Nord-Est de Fès et non loin duquel se trouve en effet une source thermale.

(3) L'établissement d'Abou-l-Ḥasan existait encore au XVIe siècle au dire de Léon (II, 195) ; il n'en reste rien aujourd'hui.

Ce passage relatif à ces sources thermales est cité dans *Qirṭâs* (éd. p. 20).

ches et de sable ; et ces produits sont de diverses variétés[1] dont il est facile aux habitants de tirer les avantages.

Entre autres ressources de Fès, citons encore le bois de cèdre amené à la ville des montagnes des Beni Yazgha a environ trente milles (au Sud) de Fès. Il en arrive chaque jour de nombreuses charges, de sorte qu'il n'en manque jamais[2]. Ce bois peut demeurer, en des lieux que n'atteint pas l'eau, pendant mille ans et davantage, sans se détériorer et sans être attaqué par les vers.

Citons encore les bois (d'essences) nombreuses qui arrivent à Fès de tous côtés, notamment du Djebel Bahloul[3]. Ces bois arrivent chaque jour par charges (de bêtes de sommes) de bois de chêne vert et de charbon en quantités innombrables.

Fès a sur son territoire des cultures considérables, tant en terrains irrigables qu'en terres à céréales ; (sa région) compte aussi de nombreux villages, comme n'en possède (le territoire d') aucune autre ville du Maghrib.

Elle a l'avantage d'être éloignée des régions où l'on à redouter les troubles et les incursions armées.

Elle se distingue par la production de toute sorte de fruits d'espèces diverses, par la variété de ses plantes potagères et de ses nombreux légumes, ainsi que par ses plantes d'agrément et

---

(1) J'ai eu l'occasion, dans mon étude des *Industries de la Céramique à Fès* (p. 20-21), de remarquer que l'argile à potier était de deux couleurs et de deux qualités dont l'une ne peut pas servir à la faïence émaillée.

(2) Ces forêts couronnent les sommets du Moyen Atlas ; les poutres utilisées à Fès comme bois de charpente ou de menuiserie sont débitées sur place et transportées à dos de mulet à la ville (cf. mes *Inscriptions*, p. 360). Aujourd'hui avec le Protectorat et l'exploitation intensive du bois de ces forêts, il est à craindre que ces réserves qui ont largement suffi aux besoins des villes marocaines jusqu'à ce jour, ne soient bientôt épuisées.

(3) Ce passage se trouve dans *Qirṭâs*, éd. p. 18. Quant au Djebel Bahloul, il est connu aujourd'hui sous le nom de Kandar ; c'est un pic montagneux au Sud et à une quarantaine de kilomètres de Fès. Sur les B. Bahloûl ou les Bahâlil voir ma note : *Inscriptions de Fès*, p. 59, note 1 ; Léon l'Africain, II, p. 362.

de même. Elle se digère rapidement. Ce sont là des qualités (pour l'eau) que recherchent les médecins. On retire de cette rivière le coquillage précieux qui donne la perle, d'où son nom de rivière des Perles.

Parmi les vertus de cette eau (citons celles-ci) : elle réduit les calculs de la vessie ; elle chasse les lentes de la tête et les pous du corps de celui qui s'en sert pour se laver et qui en boit pendant longtemps. Employée sans savon pour laver le linge, elle le blanchit, lui donne la propreté et une bonne odeur. On y rencontre aussi les crabes, employés dans la médecine, alors que l'on n'en trouve que fort peu dans les autres rivières. On pêche dans ce fleuve diverses espèces de poissons comme le « labîn », le mulet, l'anguille, la « boga »[1] qui sont tous excellents et très utiles.

Les eaux de cette ville se distinguent en eaux de sources, de puits et des rivières. L'eau des sources est douce et pure, fraîche l'été, tiède l'hiver, selon le désir de chacun ; c'est le contraire pour l'eau de rivière, de sorte que l'on trouve de l'eau tiède ou froide en toute saison. Cela contribue à la pureté et à la propreté.

Des mines sont voisines de la ville, comme par exemple les mines de sel qui s'étendent du village d'Essâṭibî jusqu'à l'Oued Mekes[2], sur une distance de dix-huit milles. Parmi les surprenantes vertus du sol de ces mines, c'est qu'il est tout entier ensemencé en céréales ; et l'on rencontre des attelages, au milieu du sel, parmi la tendre verdure (des céréales), inclinant ses tiges, par une faveur et une grâce divines.

Il y a aussi des carrières de gyps, d'argile, de différentes ro-

(1) J'ignore ce qu'est le « lâbîn » ; et je ne connais pas non plus le nom français de la « boga » (cf. Dozy, *Supp. aux Dict.*, I, 129).

(2) Il s'agit ici de la région au Nord et Nord-Est de Fès. Je n'ai pu identifier le village d'Essâṭibî ; quant à l'*Oued Mkes*, il porte encore ce nom et la route de Fès au col du Zegota le traverse sur un ancien pont. Le sel abonde autour de Fès, notamment au Nord-Est, du côté de l'Arb'a de Tissa, la route Gouraud de Fès à Taza passe auprès de montagnes de sel gemme. (Voir aussi mes *Industries de la Céramique à Fès*, 228-229).

la domine (à l'Ouest), à environ six milles (de la ville : exactement 14 kilomètres) ; il sort d'environ soixante sources jaillissantes ; l'une d'elles se trouvant vers le Sud [1] et quelques autres vers l'Ouest dont l'eau s'écoule vers l'Est. Cette rivière est d'un coup d'œil étonnant, à cause de la pureté de l'eau et de son cours sur les cailloux.

L'eau sortie de ces diverses sources se réunit pour former un fleuve important qui coule dans une large plaine. C'est au point que le courant est comme imperceptible à cause du peu de pente du terrain, jusqu'au moment où la rivière descend dans la ville où elle se divise en un faisceau de nombreux bras ; elle divise la plupart des quartiers et se ramifie dans chacun d'eux ; elle dessert les mosquées, les fontaines, les maisons particulières, les moulins, les bains et arrose les jardins. Puis la rivière sort de la ville emportant les ordures et les déchets [2].

Ce fleuve n'a pas de pareil pour sa pureté, la douceur de son eau et de ses rives, la fraîcheur en été de ses sources, dont l'eau est tiède en hiver [3]. Cette eau s'échauffe très vite et se refroidit

---

(1) Ici sans doute l'auteur veut parler d'une source très abondante au Sud-Est et à plus de 10 kilomètres de la ville, non loin d'un bourg important que je n'ai pu identifier pendant mon séjour à Fès, et dont il ne reste plus que des ruines, notamment un minaret décapité : *Essoum'a el-Mgerreja*.

(2) La répartition des eaux de l'Oued Fès dans la ville est l'une des plus étonnantes créations des anciens gouvernements ; les eaux sont canalisées de telle façon que tout un groupe de canaux alimente les vasques à ablutions, les bassins et les fontaines d'une maison à l'autre, tandis qu'un autre groupe dessert les latrines publiques et privées et correspond au réseau très complet des égouts se déversant tous finalement dans le bras central traversant la ville d'ouest en est et formant une sorte de grand collecteur à ciel ouvert, nommé pour cette raison *Oued Bou-Khrâreb*. Les Ingénieurs français du Protectorat n'ont rien eu à toucher au système des égouts, pas plus qu'au réseau des canaux distributeurs des eaux de la ville.

(3) C'est une qualité que les Indigènes de l'Afrique du Nord attribuent à toutes les sources dont l'eau garde une température à peu près constante l'hiver comme l'été ; car la température de l'air ambiant, froide ou chaude fait paraître l'eau, par contraste, chaude ou froide.

— est une société — gardons-en le souvenir — qui jette le trouble dans l'âme.

Son atrium, en été, est plein de bienfaits (par sa fraîcheur) ; c'est là que le soir les étrangers se rendent ;

Là, va t'asseoir auprès de la vasque ; désaltère-toi et bois-y à longs traits de ma part, je t'en serai reconnaissant » (1).

Un autre poète a dit encore : *Basîṭ*

« *'Adouat-el-Qarouiyîn, toi qui es généreuse, puisse ton rivage honoré ne cesser d'être peuplé !*

Qu'Allâh ne t'enlève point le manteau de Ses Grâces ; ton nom a repoussé le crime et l'injustice ».

Et un autre : *Ṭawîl*

« *(Fès) n'a-t-elle point sur les autres cités une grande supériorité que nul ne s'oppose à admettre ;*

N'est-elle point la terre (d'élection) de tous les serviteurs d'Allâh ; et tous (y sont également) les serviteurs de son roi ».

Les sages ont dit : « Ne cherchez à habiter qu'un pays dans lequel se trouve un sultan puissant, un habile médecin, une rivière d'eau courante, un qadi équitable, un marché achalandé ».

Et aussi : « La meilleure des villes est celle qui réunit cinq qualités : une rivière, de fructueux labours, des affaires faciles, un rempart bien fortifié, un sultan puissant grâce auquel la réussite arrive dans les entreprises et la sécurité règne dans la région ».

Or Fès réunit ces qualités qui font d'elle la perfection des cités et leur illustration. Elle a même en outre de nombreux avantages dont je vais exposer quelques-uns (2).

Le fleuve qui l'arrose, connu sous le nom de *Nahr el-Djawâhir* (la rivière des perles, prend sa source dans la plaine qui)

(1) Ces vers sont cités dans : *Qirṭâs* (éd. p. 19) et *Azhâr* (p. 153).

(2) Cpr. *Qirṭâs* (éd. p. 18) un passage analogue.

(Qu'est ce vent?) est-ce ton zéphyr ou bien un souffle qui nous repose? (Qu'est cette eau) est-ce ton eau fraîche et limpide ou de l'argent (qui coule)? ton territoire est une terre que sillonnent les fleuves, ainsi que les groupes d'hommes, les souks et les chemins »[1].

Un autre poète a dit : *Kâmil*

« *C'est une ville à laquelle la colombe a prêté son collier et que le paon a revêtu de son plumage.*

On dirait que ses fleuves roulent du vin et que le seuil de chaque maison est une coupe (attirante) »[2].

(Voici des vers) du faqîh Abou Abdallâh (Mohammed) El-Maghîlî dans (sa) description de Fès qu'il aimait, lorsqu'il fut nommé qâdi de la ville d'Azemmour. *Kâmil*

« *O Fès! qu'Allâh fasse vivre ton sol par l'humidité! qu'Il t'arrose de la pluie du nuage généreux!*

O Paradis de ce monde![3] *toi qui surpasse Hims*[4] *par ton panorama spendide, admirable,*

Des maisons surplombant des maisons, au pied desquelles coule une eau plus agréable que le vin délicieux!

Des jardins (comme) de la soie décorée de dessins ressemblant à des serpents ou à des lions!

Dans la Mosquée d'El-Qarouîyîn — que son nom soit ennobli

---

(1) Ces trois vers sont cités dans *Qirṭâs*, éd. p. 18; *El-Azhâr el-'Aṭira*, p. 154.

(2) Ces deux vers sont du poète Ibn el-Labbâna qui les a écrits pour Majorque. Ils sont cités par Maqqari, *Nafḥ eṭṭîb* (éd. Leyde t. I, p 104) et ont été traduits en français par Dugat (*Nafḥ eṭṭîb*, éd. p. XXX de l'introduction) et le premier a été traduit en anglais par de Gayangos et en espagnol par Campaner. Je les ai cités moi-même dans mes *Benou Ghânya*, p. 37. Sur l'auteur et ces deux vers on consultera *Benou Ghanya*, p. 36 note 4 et p. 37 note 1. Ces vers ne figurent pas dans les descriptions de Fès donnés par les auteurs musulmans, on ne les rencontre que dans le texte traduit ici.

(3) Une variante donne : Paradis de l'Éternité (*Qirṭâs*, éd. 19).

(4) Une variante donne : le Caire (*Azhâr*, p. 153).

On raconte qu'il fut enterré dans la Mosquée des Chorfa, auprès du mur oriental [1].

Un poète, à ce sujet, a composé ces (deux) vers : *Ṭawîl*

Les demeures du peuple d'Allâh sont dans la famille de Son Prophète ; donne ton affection à de tels hommes et à certaine demeure,

« A la ville d'Idrîs fils d'Idrîs dans laquelle le tombeau du fondateur est brillant comme un flambeau, (dans laquelle) son tombeau est illustre ! » [2].

La cause de sa mort, selon El-Bekri (éd. p. 123) est due à ce qu'ayant mangé du raisin (frais) il fut étouffé par un grain et mourut sur-le-champ — qu'Allâh lui accorde sa miséricorde !

Idrîs laissa pour fils, au rapport d'Ibn Ḥazm [3], treize enfants mâles : Idrîs, Aḥmed, 'Abdallah, Yaḥîa, El-Ḥasan, El-Ḥosaïn, Dâwoûd, Mohammed, 'Abdallah, Isâ, 'Omar, Dja'far, El-Qâsim. D'aucuns y ajoutent Ḥamza ; d'autres en donnent un plus grand nombre [4].

Moḥammed lui succéda ; il était l'aîné.

A propos des mérites de Fès, il a été dit : *Basîṭ*

« O Fès ! c'est à toi que l'on cherche à ravir toute beauté ; quant à tes habitants, je les félicite car ils sont bien dotés.

---

(1) Les dires des chroniqueurs musulmans au sujet de l'emplacement du tombeau d'Idrîs II ne concordent pas : selon les uns il est enterré à Fès dans la Mosquée des Chorfa ; selon d'autres il est à Oulili à côté du tombeau de son père Idrîs Ier.

(2) Ces deux vers sont cités dans *El-Azhâr*, p. 162

(3) Ibn Ḥazm dans sa *Djamharat el-Ansâb* (cf. Boigues, p. 130 et 136).

(4) Le *Qirṭâs* comme El-Bekri n'en donnent que douze ; Ibn Ḥazm en indique quatorze ; Ech Chatibi, dans son *El-Djomân fi Mokhtaṣar Akhbâr Ezzamân* va jusqu'à quinze.

L'auteur de *El-Azhar* (p. 180) qui donne à ce propos d'abondantes indications, dit notamment : « Idrîs II avait un penchant très marqué pour les femmes, suivant la parole attribuée à son ancêtre le Prophète : ce qu'il y a pour moi de plus cher en ce monde ce sont les femmes et les parfums ». Il ajoute qu'Idrîs II laissa plus de soixante enfants.

Il en partit en expédition guerrière contre Tlemcen, désirant qu'il n'y ait qu'une seule autorité pour fortifier la religion. Il fut victorieux, conquit la ville, en examina les ressources, répara les remparts ainsi que la Mosquée qui se trouvait à Agâdîr et la dota d'une chaire sur laquelle il fit inscrire son nom. C'est ce que l'on trouve chez Ibn Ghâleb et chez l'auteur d'*El-Anîs*[1]. Quant à 'Abdel-Malek el-Qîrouânî il a dit dans son Miqbâs : Je suis entré dans la Mosquée de Tlemcen en 555 (1160) et j'ai vu au fronton de la chaire des planches de l'ancienne chaire qui y avaient été clouées et qui portaient l'inscription suivante : « Ceci est ce qu'a ordonné l'Imâm Idrîs b. Idrîs b. 'Abdallâh b. Ḥasan b. el-Ḥasan b. 'Alî b. Abî Ṭâleb — qu'Allâh soit satisfait de ce personnage — dans le mois de moḥarren 199 ».

Ensuite l'Imâm Idrîs revint à Fès qu'il ne quitta plus jusqu'à sa mort — qu'Allâh lui soit miséricordieux — le premier jour de rabî' I, 213 (20 mai 828). Il était âgé de 38 ans et 8 mois[2].

Le temps qui s'était écoulé (depuis la mort de son père) entre la durée de la tutelle et (les deux mois avant) sa naissance, fut de 10 ans et 10 mois ; la durée de son règne (effectif) fut de vingt-sept ans[3].

---

(1) J'ai indiqué les passages de ces auteurs que j'ai cités dans mes *Fouilles sur l'emplacement de l'ancienne Mosquée d'Agâdîr* (ext. de la *Revue Africaine*, n° 288, Alger, 1913).

(2) Ce passage figure aussi dans le *Qirṭâs* (éd. p. 31) ; mais la date de rabî I n'est pas donnée par ces auteurs. Il se pourrait qu'elle soit inexacte, car on dit généralement qu'Idrîs mourut étouffé en mangeant une grappe de raisin dont un grain lui resta dans le gosier. Or rabî' I correspondant au mois de mai, il n'y a pas de raisin à cette époque. Au sujet de cette date et de la cause de la mort on consultera le chapitre qu'y consacre El-Kittâni dans ses *El-Azhâr*, p. 159 et s. ; il renferme aussi une bibliographie assez complète des auteurs ayant parlé d'Idrîs. Certains donnent pour cette mort la date du 12 rabî' II (1er juillet 828) et pour cause une grappe de raisin empoisonnée.

(3) En tenant compte de ces chiffres, il serait mort à l'âge de 37 ans et 8 mois. Cependant on verra dans *El-Azhâr* que les auteurs ne sont pas d'accord sur son âge à sa mort.

et dit : « O mon Dieu ! Vous savez certes qu'en bâtissant cette « ville je n'ai point été poussé par la (vaine) gloire, l'orgueil « (le désir de) renommée, la vanité, mais que j'ai seulement « voulu que Vous y soyez adoré, que Votre Livre y soit récité, « que les règles fixées par Vous y subsistent ainsi que la Loi « de Votre Religion et de la Voie de Votre Prophète Mohammed « — qu'Allâh lui accorde Ses Grâces et lui donne le Salut — « tant que le Monde durera.

« O mon Dieu ! Secondez les habitants de cette ville vers le « Bien ! aidez-les à l'accomplir, Soyez leur Secours contre « leurs ennemis, gratifiez-les de biens, écartez d'eux les trou- « bles et les dissensions. Certes Vous êtes puissant en toutes « choses ».

Cette invocation donna confiance aux fidèles, et les biens se multiplièrent dans cette ville où se manifestèrent les bénédictions [1].

L'Imâm Idrîs demeura dans la ville jusqu'en l'an 197 (812-813). Il partit alors en expédition contre ce qui restait d'infidèles à Nefîs et dans le pays des Maṣmouda [2]. Il atteignit ces régions et pénétra dans la ville de Nefîs ainsi que dans celle d'Aghmât [3] et fit la conquête de tout le pays des Maṣmoûda. Puis il rentra à Fès où il demeura jusqu'en moḥarrem de l'an 199 (août-sept. 814).

---

(1) Cette invocation d'Idrîs est textuellement rapportée d'après Ibn Ghaleb, dans le *Qirṭâs* (éd. p. 30) qui ajoute quelques précisions sur l'abondance qui régna à Fès pendant les cinquante années qui suivirent la fondation.

(2) *Nefîs* dans le Sud marocain (cf. Bekri, éd. 160 ; Idrîsi, éd. p. 63) ; sur la rivière du même nom qui descend du Haut Atlas de Tinmâl pays des *Maṣmoûda*, tribu d'Ibn Toumart, le Mahdi des Almohades.

Cette expédition d'Idrîs est mentionnée par la plupart des chroniqueurs qui ont parlé de son règne et aussi par le Géographe El Bekri (éd. p. 123).

(3) Au Sud de Marrâkech et au pied du Haut-Atlas, sur le versant nord ; on lira des détails sur cette ville chez tous les Géographes et notamment chez Bekri (éd. 153 et s.), Idrîsi (éd. 65-67).

confluent avec le fleuve *Sbou*. Les environs furent également ensemencés de différentes céréales et le sol fut ainsi couvert d'arbres et de céréales. Les bénéfices et le profit de ces cultures se manifestèrent par des récoltes en toute saison ; les avantages (pour la région) se multiplièrent et la population s'accrut : des gens de toute condition, de tous les pays et de tous les métiers s'y rendirent ; elle fut habitée par des faqîh et des savants, des commerçants et des artisans [1].

Quand la ville fut peuplée, que les sujets (d'Idrîs) furent convenablement installés, un vendredi il monta en chaire et fit la « Khotba » [2] ; lorsque le prône fut achevé il éleva les mains

---

(1) L'auteur du *Qirṭâs* (éd. p. 27) a dit à peu près ceci, mais il a cependant été un peu plus loin dans le passage suivant : « (Les habitants) plantèrent, sur les deux côtés de la rivière depuis sa source dans la plaine de Sâïs, jusqu'à son confluent dans le fleuve Sbou, des arbres, des figuiers, des oliviers, et diverses espèces d'arbres fruitiers ; la terre fut partout ensemencée et plantée d'arbres ; les arbres fruitiers et les figuiers inclinèrent leurs branches et produisirent des fruits dès la première année. Ce (miracle) était dû à la « baraka » de l'Imâm Idrîs — qu'Allâh soit satisfait de lui — et à celle de ses purs ancêtres — qu'Allâh leur accorde Ses Grâces — ainsi qu'à la pieuse foi d'Idrîs, à l'excellence du terrain, à la qualité de l'eau et à la douceur du climat... ».

(2) On sait que la *Khoṭba* est le prône prononcé par l'*Imâm* ou par le *Khaṭîb* (selon les époques et les lieux) avant la grande prière du Vendredi.

La *Khoṭba*, malgré le rituel orthodoxe ne se fait pas partout exactement de la même façon. Généralement le prédicateur — qui était à l'origine le Prophète lui-même et ensuite les grands Khalifes ses successeurs — se tient au milieu des degrés du « minbar », le bâton rituel dans la main droite ; il divise son prône en deux parties : la première est une exhortation au Bien et a pour base un ou plusieurs « ḥadîṯ » appropriés aux circonstances et aux temps de l'année (ramadan, etc.) ou aux calamités (sécheresse, famine, etc.) ; la seconde partie, séparée de la première par un arrêt de quelques instants pendant lesquels le prédicateur s'assied sur le minbar, comporte seulement une invocation en faveur du Prophète, de sa Famille et de ses Compagnons, des Khalifes orthodoxes et finalement du Sultan si l'on est en terre d'Islâm. Ce prône est généralement lu et psalmodié. Lorsque le prédicateur a une communication à faire aux fidèles, à lire par exemple une lettre ou un rescrit du Sultan, il le fait habituellement aussitôt que la prière est terminée, et cette prière en commun suit immédiatement le prône.

là, était libre et exempte de ce droit. Il a établi que dans tel endroit (par exemple) s'élèvaient maisons, jardins, fondaq, etc., le propriétaire ayant disparu ou étant mort sans laisser d'héritier, ces biens étaient tombés sous le contrôle du gouverneur (de la ville) en qualité de « *gzâ* ». (Le Gouverneur dès lors les donnait en location à long terme (*gzâ*) et en percevait légalement le loyer ; ou encore, si ces immeubles (d'état) étaient tombés en ruine, le Gouverneur les donnait en (*gzâ*) [1] : telle est (en la matière) l'opinion de nos anciens maîtres.

Lorsque l'Imâm Idrîs eut achevé la construction des remparts de la ville et de sa mosquée-cathédrale [2], il installa les gens venus d'Andalousie auprès de lui dans la partie orientale de la ville qui fut nommée pour cette raison *'adouat el-Andalous ;* ceux venus d'El-Qirowân furent installés dans la partie occidentale qui reçut, pour ce motif, le nom de *'adouat el-Qarouiyîn* [3]. Puis il leur ordonna de continuer à bâtir et à planter. Les habitants construisirent donc des maisons d'habitations, des oratoires, des boutiques et plantèrent des arbres d'essences diverses sur les deux côtés de la rivière, à partir de sa source (à 14 kilomètres de Fès) dans la plaine de *Sâïs*, jusqu'à son

---

(1) Le *gzâ* étant une location à long terme et généralement à bas prix, les locataires faisaient à leurs frais les grosses réparations aux immeubles ainsi loués.

(2) Le texte dit « La Mosquée de la *Khoṭba* ». Or la *Khoṭba* ou prône se fait sur une chaire (minbar) et nous savons que Idrîs I et II dotaient d'une chaire en bois les Mosquées qu'ils construisaient, comme ils le firent pour la Mosquée qu'ils fondèrent à Tlemcen.

(3) Ce passage est donné avec un peu plus de détails par *Qirṭâs* (éd. p. 28). Idrîs II qui n'avait pas grande confiance dans les Berbères, s'entourait et peuplait sa cour d'Arabes venus d'Ifrîqiya et d'Espagne.

En ce qui concerne le peuplement de Fès le *Qirṭâs* montre aussi que dès la fondation de nombreux Juifs s'y établirent moyennant le paiement de l'impôt légal de la « djizya ». Ces Juifs furent astreints à habiter la partie de la rive gauche comprise entre *Aghlan* et *Bâb Ḥisn Sa'doun :* c'est encore le quartier qui porte aujourd'hui le nom de *Fondaq el-Ihoudî*, bien que depuis la fondation de *Fès ejdîd* à la fin du XIIIe siècle, les Juifs de *Fès l'Ancienne* aient dû aller habiter la *Ville Nouvelle*.

qu'Il soit exalté — furent amenés à la reconstruire. Ils la mirent dans l'état où nous la voyons aujourd'hui.

Cette reconstruction eut lieu en 708 (1308-1309 J.-C.) [1].

Au cours des travaux dont on vient de parler (Idrîs) ordonna aux habitants de construire des maisons et de faire des plantations. Il les y convia (en leur disant) que quiconque aurait bâti en quelque endroit ou y aurait fait des plantations, avant l'achèvement du rempart (le terrain bâti ou planté) lui appartiendrait ; ce serait un don (fait par lui) pour (l'amour d') Allâh — qu'Il soit béni et exalté. Par là (Idrîs) montrait — et Allâh est le mieux instruit de tout ceci — que ceux qui auraient construit (leur maison) ou planté (leur jardin) à l'achèvement du rempart ne seraient que les usufruitiers du terrain (en « *istidjâr* »). Telle est l'origine du (droit de) « *gzâ* » [2] dans quelques parties de la ville (de Fès). Or certain gouverneur de Fès a enquêté sur le point de savoir pourquoi telle maison était placée sous le droit de « *gzâ* », et telle autre, voisine de celle-

---

(1) On lit dans le *Qirṭâs* (éd. p. 29) : « La Mosquée des Chorfa demeura dans l'état où elle avait été construite par Idrîs ben Idrîs, sans que ni souverain ni sujet n'y ajoute rien par respect et déférence pour ce qu'avait fondé Idrîs, jusqu'au temps où son toit tomba, ses murs méritèrent d'être remplacés et que tout l'édifice menaçât ruine, par suite de l'ancienneté et de la vétusté. Alors sa restauration fut décidée par le faqîh, secondé (par Allâh) El-Hâdjj, le béni Abou Medyan Cho'îb fils du faqîh El Hadjj, le pieux, feu Abou 'Abdallah ben Abou Medyan, pour l'amour d'Allâh le Très-Haut, et en vue d'obtenir pardon et récompense ; il entreprit la démolition et la reconstruction de cette Mosquée qu'il remit dans son ancien état sans aucune modification, en l'an 708 ». C'est en cet endroit que s'élève la zaouïa actuelle de M. Idrîs, sanctuaire réputé, qui est de date récente puisque ce furent les Chorfa de la dynastie actuelle qui ont ordonné tous ces travaux au cours desquels les traces et les ruines de l'ancienne mosquée ont sans doute totalement disparu. On consultera sur ces constructions les textes des chroniques de l'époque marocaine des Chorfa et Gaillard, p. 10 à 13.

(2) J'ai montré ce qu'il fallait entendre à Fès par le « droit de *gzâ* » dans mes *Inscriptions*, p. 127 note 1. Le *Qirṭâs* (éd. p. 22) qui donne ce passage relatif aux instructions d'Idrîs faites aux habitants de Fès, ne parle pas de cette dernière interprétation relative au droit de « *gzâ* ».

Puis le rempart fut continué sur le bord de la rivière et là fut percée une porte du nom *Bâb el-Faradj*, connue aujourd'hui sous le nom de *Bâb Esseisa'a*; de là le rempart fut poursuivi vers les *Sources d'Ibn Eṣ-Ṣâdi* connues actuellement sous le nom de *Sources des Karrâzîn*. Une porte fut ouverte en cet endroit et nommée *Bâb el-Ḥadîd*. Le rempart fut continué vers le sommet de *'Aqbat el-Jorf* où fut percée la porte dite *Bâb el-Qal'a* (1), puis il rejoignit la porte dite *Bâb Ifrîqiya*.

(Cela fait, l'Imâm Idrîs) fit bâtir une *Mosquée* touchant à sa demeure; elle est aujourd'hui connue sous le nom de *Mosquée des Chorfa*. Elle ne fut guère modifiée depuis sa construction par l'Imâm Idrîs ben Idrîs, jusqu'au jour où son toit se trouva détérioré, ses murs dignes d'être remplacés et que l'édifice menaçât ruine. Alors quelques parents par alliance des Chorfa, habitants du quartier, en vue d'une récompense d'Allâh —

---

que voici : « Il arriva de la sorte à *'Aqbat eṣṣa'tar* Il y fit percer une porte qui fut nommée *Bâb Ḥiṣn Sa'doûn*, puis il fit descendre le rempart jusqu'au commencement d'*Aghlân*, où fut construite une autre porte qu'il nomma *Bâb el-Fa'as*; il entoura ensuite Aghlân avec le rempart jusqu'au bord de la grande rivière séparant les deux 'adoua, il y fit une porte qui reçut le nom de *Bâb el Faṣîl*; ce fut la porte que l'on franchissait pour aller d'une 'adoua (ville) à l'autre. Ensuite il fit passer la rivière au rempart puis remonta le cours sur la rive d'une longueur de cinq « masâfa » et ouvrit là une porte, nommée *Bâb el-Faradj* qui porte aujourd'hui le nom de *Bâb Esseisala*; là il fit traverser de nouveau la rivière au rempart, pour la faire passer du côté d'El-Qarouiyîn : il lui fit suivre le cours de la grande rivière au pied de la *Qal'a*, jusqu'aux sources d'Ibn Eṣṣâdi et jusqu'au *Djorf* où il fit percer la porte dite *Bâb el-Ḥadîd*, qui se trouve en haut de la *Qal'a*, dans la partie qui suit le *Djorf*; puis le rempart fut amené à *Bâb Ifriqîya* ». (Cf. *Qirṭâs*, éd. 23) et Gaillard, 5 6).

(1) Le nom de cette porte ne figure ni dans le *Qirṭâs*, ni sur les plans de Fès à l'époque idriside. Qu'était cette *qal'a* ? Elle n'existait pas encore au moment de la construction du rempart de Fès par Idrîs, sans quoi les auteurs n'auraient pas manqué de nous la signaler parmi les constructions dues au fondateur de Fès. Si donc une porte fut ménagée en cet endroit et sous ce nom dans le rempart ce fut certainement plus tard et notre auteur ici fait vraisemblablement une erreur. Il doit confondre ici avec le rempart almohade et prendre la *qal'a* pour la *qaṣba* ou le *qaṣr* des Almohades dont nous aurons à parler ci après.

fut percée et reçut le nom de *Bâb Ifrîqîya* (1), nom qu'elle a gardé jusqu'à ce jour; elle fut restaurée et élargie par l'Émîr El-Mostaʿïn, dans le mois de chawwâl 760 (août-sept. 1359) (2).

Or les environs de la source qui se trouvait là formaient un vaste marécage, très fourré, dans lequel détroussait les passants un nègre du nom de ʿAllou. L'Imâm Idrîs en ayant été informé et en ayant acquis la certitude, ordonna que le (nègre Allou) fût crucifié contre un arbre en ces lieux et laissé là jusqu'à ce que ses membres soient tombés en pourriture. La source reçut le nom de ce nègre (3).

Le rempart passa successivement par *ʿAïn Derdoûr* (4), par *ʿAqbat-eṣ-ṣaʿter* (5) où fut percée une porte nommée *Bâb el-Faṣîl*. C'est celle que nous avons précédemment mentionnée et qui porte aujourd'hui le nom de *Bâb en-Noqba* (6).

---

l'Est et à une quarantaine de kilomètres deux sources voisines l'une du nom de *ʿAïn Allou* et l'autre appelée *ʿAïn Tallout*, ce dernier mot étant en berbère le féminin du premier.

(1) M. Gaillard, indique l'emplacement de cette porte dans son plan de Fès sous les Idrissides, mais n'en parle pas dans le texte; elle figure aussi sur le plan de Massignon, avec comme second nom celui de *Bâb Aṣlîten*. Tout ce passage de notre texte relatif aux remparts du quartier des Qarouiyïne figure dans le *Qirṭâs* (éd. p. 22-23).

(2) L'Émir mérinide ALou Sâlim Ibrâhîm ben Abi-l-Ḥasan, surnommé El-Mostaʿïn billâh, fut proclamé un vendredi, au milieu de chaʿbân 760 (juillet 1359) et fut tué le jeudi 4 du mois de ḏou-l-qaʿda 762 (23 sept. 1361). Cf. *Rawḍat en-Nisrîn* (tr. p. 86).

(3) Il semble bien qu'il y ait eu là un véritable « sacrifice de construction » que les chroniqueurs ont cherché à expliquer à leur façon.

(4) Beaumier dans sa traduction du *Qirṭâs* (tr. p. 46) donne par erreur *Aïn Derdoun* ; le texte du *Qirṭâs* (p. 22 *in princ.*) et la trad. Gaillard (p. 4) donnent ʿAïn Derdoura.

(5) « A également conservé son nom jusqu'à nos jours et se trouve à *El-Haffaʿîn*, près de *Bâb Elqisa*. Nous pouvons ainsi nous rendre compte de l'emplacement de l'ancienne porte *Ḥiṣn Saʿdoun* qui s'est conservé assez longtemps et qu'Idrîsi appelle porte *Ḥiṣn Jedid*. » Gaillard, p. 7.

(6) Il y a ici entre notre texte et celui du *Qirṭâs* de notables différences. Il est vraisemblable que le texte du *Qirṭâs* a été suivi par notre auteur ; il est en tous cas préférable de suivre pour ce passage le texte du *Qirṭâs*

Le rempart allait ensuite jusqu'à *Bâb el-Qibla* ci-devant mentionnée.

La ville (ʿadoua des Andalous) était ainsi entièrement entourée par le rempart.

(Idrîs) fit construire à l'intérieur de la ville une Mosquée avec prône, dans le voisinage d'un puits, et cette Mosquée reçut le nom de *Djamiʿ-l-Achyâkh*.

En ce qui concerne la *ʿadouat-el-Qarouiyîne*, sa fondation commença au début de rabîʿ I de l'an 193 (déc. 808).

(Idrîs) s'installa à l'endroit connu (alors) sous le nom de *Maqarmeda* et aujourd'hui sous celui de *Dâr el-Qîtoûn*, dans le voisinage de la *Mosquée des Chorfa*, où se trouve (encore) la demeure des descendants de l'Imâm Idrîs[1] — qu'Allâh nous fasse profiter de leurs (grâces) et qu'Il nous fasse ressusciter au milieu d'eux.

Les remparts d'enceinte de ce (quartier) furent commencés à partir de la naissance de la côte de *ʿAïn Allou*[2] où une porte

---

ce mot voir l'*Index* de *Avenzoar, sa vie et ses œuvres* par G. Colin (in-8°, Paris, Leroux, 1911, p. 183)] se transportèrent de l'extérieur de Bâb el-Khoukha (où ils étaient) et s'installèrent dans les grottes qui sont voisines de la rivière, où sont les silos à grain et la jennat el-Moḍâra. Ils y restèrent jusqu'à l'avènement des Mérinides. La proximité des lépreux, dont l'existence, le lavage des effets, des vases et des objets malpropres dans le fleuve de Fès, était un danger pour les habitants; le cas fut soumis au (sultan) Abou Yousof Yaʿqoub; celui-ci ordonna au Gouverneur de la ville.... de les éloigner de la rivière; il les installa dans les Grottes du Bordj El-Kaoukab, en dehors de Bâb El-Djisa. . en l'an 658 (1259-1260) ».

(1) Au sujet de ces constructions le texte du *Qirṭâs* (p. 22 de l'éd.) qui a servi de modèle à celui-ci, est plus complet. Comme il a été médiocrement traduit par Beaumier (tr. p. 44), voici ce passage : « (Idrîs) se transporta de la ʿadouat el-Andalous à (la ʿadouat el-Qarouiyîn) et descendit à l'endroit nommé *Maqarmeda* [Gaillard (p. 10) appelle ce lieu, avec Beaumier, Kermouda], y dressa sa tente et fit entreprendre la construction de la Mosquée; c'est celle qui est connue aujourd'hui sous le nom de *Djâmiʿ Echchorfa*.... et il y mit le prône; puis il fit bâtir là sa maison, nommée aujourd'hui Dâr el-Qîṭoûn et habitée par les Chorfa El-Djouṭiyoûn ses descendants ».

(2) Sur *ʿAïn Allou* ou *ʿAïn Alloun* voir mes *Inscriptions*, p. 109, n. 3. Ce mot Allou est berbère et l'on retrouve dans la région de Tlemcen à

Puis il fit passer le rempart vers (l'endroit appelé) *Râs Madjarr el-Farh*[1] où il ouvrit une porte du nom de *Bâb Abou Sofyân*, et le rempart continua par *Djrwâwa* où fut percée la porte, *Bâb El-Kanîsa*, aujourd'hui connue sous le nom de *Bâb El-Khoukha*[2]. C'est en dehors de cette porte qu'habitaient les malades afin que leurs odeurs soient emportées par les vents de l'ouest qui dominent à Fès (sans passer sur la ville) et pour que ces malades ne se servent de l'eau qu'après sa sortie de la ville et qu'il n'y ait par là aucun danger pour (les habitants de) Fès.

Plus tard, les malades furent transportés de cet endroit aux Grottes de *Bâb Ech-Chari'a*[3] dans la haute ville, à l'époque de la famine[4], et ils s'y installèrent. De là ils furent emmenés dans la grotte voisine du *Bordj el-Kaoukab* où ils demeurent encore aujourd'hui.

---

(1) Le *Qirṭâs* (éd. p. 23) et GAILLARD donnent à cet emplacement le nom de Râs Ḥadjar el-Farh.

(2) Cette porte ne prit le nom de *Bâb Khoukha* que lorsqu'elle fut reconstruite par l'Ahmohade En Nasir en 601 (cf. *Qirṭâs*, éd. p. 23).

Les portes mentionnées sous le nom qui leur fut donné au temps d'Idris, figurent sur le plan MASSIGNON et avec plus de détails sur le plan donné par GAILLARD (p. 30).

Tous ces détails de la construction sont vraisemblablement tirés par cet auteur du *Qirṭâs* qui les a donnés à peu près dans les mêmes termes.

Le *Qirṭâs* ajoute que c'était par Bâb el Kanîsa que sortaient les voyageurs pour Tlemcen. Il indique aussi le quartier réservé aux malades hors de cette porte. C'est d'après ces indications que M. GAILLARD a établi son plan de *Fès sous les Idrissites* ; il y fait figurer ce quartier des malades sous le nom de « maladrerie » à l'extérieur et entre Bâb el-Kanisa (écrit *el-Karrisa* par erreur) et Bâb Abou Sofyan. Voir aussi GAILLARD, p. 7-10 ; BEKRI, éd. p. 116.

(3) Fondée en 1214 de J.-C. par l'Almohade En-Nâṣir. Le nouvel emplacement de la « maladrerie » est indiqué par M. GAILLARD dans son Plan de *Fès sous les Ahmohades* (*loc. cit.*, p. 31).

(4) Le texte du *Qirṭâs* (éd. p. 23-24) est plus explicite pour ce passage ; le voici : « Lorsque eu lieu la grande famine qui désola le Maghrib.... de l'an 619 à 637, lorsque Allah décida la ruine de l'empire Almohade et l'avènement du gouvernement Mérinide — qu'Allâh fasse durer ce dernier — dans cette période de famine et de troubles, les lépreux [الجذمى], sur

jour du mois de rabî' I de l'an 192 (4 janvier 808). L'Imâm Idrîs demeurait alors sur cette rive, à l'endroit connu sous le nom de *Djrwâwâ*, où il avait établi son campement et ses tentes. Le rempart de la ville fut commencé du côté de la *qibla* (1) et une porte, ouverte en cet endroit fut nommée *Bâb el-qibla* (Porte du Sud) ; puis le rempart passa à l'endroit nommé *Djrwâwa* et aux *Z toûn ben 'Aṭiya*, où l'on ouvrit une porte qui fut appelée *Bâb Djrwâwa* (2). Il fit passer ensuite le rempart au lieu nommé *El-Mokhfiya* (3), jusqu'à la grande rivière (4), à *Barzakh* (5) où il ouvrit une porte que l'on nomma *Bâb el-Mokhfiya* (c'est le *Bâb Solaïmân* du plan Massignon) ; elle se trouvait en face de la porte *Bâb el-Faraj* (6) dans la *'adoua des Qarouiyîne*.

Il conduisit ensuite le rempart du côté d'*Echchiboûba* où il ouvrit la porte *Bâb el-Faṣîl*, connue de nos jours sous le nom de *Bâb Ennoqba*, dans la 'adoua des Qarouiyîne.

---

(1) Dans ce texte il faut entendre par le *Sud* le mot *qibla* qui est la direction de la Mekke en réalité. Mais l'orientation, qui est celle des *miḥrâb* des Mosquées est généralement mauvaise et beaucoup trop au Sud. On verra plus loin dans ce texte même ce qui est dit au sujet de l'orientation du miḥrâb de la Mosquée d'El-Qarouiyîne et d'autres Mosquées ainsi que l'opinion des savants de Fès à ce sujet. Sur l'orientation de certains miḥrâb de Fès, notamment de ceux des Médersas, voir mes *Inscriptions arabes de Fès*. Sur cette Porte on consultera les plans Massignon et Gaillard, et le passage du *Qirṭâs* (éd. p. 24).

(2) C'est la porte nommée Bâb al Faouarah (ou Bâb Azzitoun dans le plan de *Fâs des Idrisides* de Massignon (p 221).

(3) C'est encore un quartier de Fès qui porte ce nom. (Cf. *Plan Orthlieb*).

(4) Le *Plan Massignon* indique cette rivière sous le nom de « Oued el-Djaouahîr » ; c'est le bras principal de l'Oued Fès partageant la ville et servant aujourd'hui encore de grand collecteur des égouts, ce qui lui a valu son nom actuel d' « Oued Bou Khrâreb » à propos duquel Houdas a commis une erreur dans une note de sa traduction de la *Nozhat el-Hâdi* (p. 72 note 1).

(5) Ce quartier devait être la partie nord de la Mokhfiya. Voir *Plan Massignon* cité.

(6) Sur cette porte et la transformation de son nom en Bâb Sidi Faraj, voir mes *Inscriptions*, p. 75-76 et passim.

empans[1], d'une largeur d'un empan, du poids de soixante livres[2] et d'un travail très ancien. La ville reçut son nom du nom de cette (pioche : *fès*), et c'est El-Moḍaffari qui a rapporté cette version.

On dit encore que ce nom (de Fès) vient de ce que, lorsque l'Imâm Idrîs eut achevé la fondation de la ville, on lui demanda : « Comment la nommeras-tu ? » — « Je lui donnerai, répondit-il, le nom de la ville qui fut avant elle sur cet emplacement, celle dont le dévot m'a dit qu'elle existait autrefois, qu'elle avait été fondée par les Anciens, détruite mille ans avant l'Islâm, et qu'elle s'appelait *Sèf* ; cependant je renverserai les lettres de cet ancien nom ». C'est ce qui a donné *Fès*[3]. Cette version a été rapportée par Abou-l-Ḥasan ben 'Abdallâh ben Abi Zar' dans son ouvrage intitulé El-Anîs[4].

Au dire des historiens qui ont retracé l'histoire de Fès, qui ont fait des recherches sur les fastes de cette ville et les récits qui s'y rapportent, la fondation de Fès eut lieu à peu près comme nous allons le rapporter :

La *'Adoua*[5] *des Andalous* fut commencée le jeudi premier

---

(1) Je n'ai aucun renseignement sur la longueur de l'empan. Il serait toutefois possible de la retrouver aisément, car ce texte nous donne ici même une série de mesures en empan, de hauteurs et de largeurs de portes, de minarets, etc., dont quelques-uns existent encore sans changement depuis l'époque où ce livre a été écrit.

(2) La « livre » (*rṭal*) a toujours été d'un poids variant avec les villes et avec le temps.

(3) Fâs serait l'orthographe régulière de ce nom de ville ; mais avec l'*imâla* la prononciation de ce mot est *Fès* ; l'orthographe officielle *Fez* ne répond donc ni à l'orthographe de ce mot arabe ni à sa prononciation ; c'est l'orthographe adoptée par les Espagnols.

(4) Ce passage ne figure pas dans l'édition de Fès du *Qirṭâs*, ni dans les traductions.

(5) Le mot *'adoua* (rive) s'applique bien aux deux quartiers de Fès, bâtis l'un, *'adoua des Andalous* sur la *rive* droite de l'Oued Fès, l'autre *'adoua des Qarouiyine*, sur la *rive* gauche. Aujourd'hui on nomme simplement *'adoua* la partie de la ville sur la rive droite, l'autre partie (rive gauche) a perdu le nom de *'adoua*, c'est la *Médîna*.

pont de 'Azîla, dans Fès. Or cet endroit était alors couvert d'une végétation d'ifs, de chênes et d'autres arbres. Dans les fouilles (qu'il faisait) il trouva un morceau de marbre représentant une femme sur la poitrine de laquelle était sculptée l'inscription hindoue suivante :

« Ce lieu est l'emplacement d'un therme ; il fut habité pendant mille ans ; puis il fut ruiné ; sur son emplacement fut élevé un temple pour le culte » [1].

On raconte que l'Imâm Idrîs, lorsqu'il entreprit la fondation de la ville, y travailla lui-même avec les artisans et les ouvriers. On lui avait confectionné (dans ce but) une pioche d'or et d'argent. Il la prit et s'en servit pour commencer les fondations et en marquer le tracé aux ouvriers qui répétaient (le mot « pioche (*fès*) ») au cours de leur travail de construction ; ils disaient : « apportez la pioche (*fès*), prenez la pioche, creusez avec la pioche ». C'est pour cette raison que la ville fut nommée Fès (pioche).

C'est ce qu'a rapporté l'auteur de l'*Istibṣâr* [2] ; mais cette version — et Allâh est le mieux renseigné — est inexacte, car l'Imâm Idrîs — qu'Allâh soit satisfait de lui ! n'ignorait pas que l'emploi de l'or (pour un outil de ce genre) est interdit aux hommes.

On prétend, et avec plus de raison, que lorsqu'il se mit à creuser les fondations du côté de la *qibla*, on trouva dans la tranchée une grande pioche (*fès*) d'une longueur de quatre

---

(1) C'est généralement aux Romains que les Indigènes nord africains attribuent les monuments et les ruines dont ils ignorent l'origine (Cprz : *Revue africaine*, I, 363 et ma note 1 p. 6 dans *Les Beni Snoûs et leurs Mosquées* ext. du *Bulletin archéologique*, 1920 — Paris Nationale), parfois aux Egyptiens, comme Qṣar Far'oûn qui est Volubilis, rarement aux Hindous, comme ici ; cependant pour certaines plantes exotiques ils les font provenir de l'Inde, comme le cactus qui est nommé suivant les régions « figuier des Chrétiens » ou « (arbre) hindou [*hendiya*] ».

(2) Ce passage ne figure pas dans la traduction donnée par M. Fagnan de l'*Istibṣâr*.

gieuse) et le séjour de l'orthodoxie, grâce à la bénédiction attachée à la personne (du fondateur) et à son invocation. Qu'Allâh soit satisfait de lui !

Ibn Ghâleb [1] a raconté dans son *Târîkh* : lorsque l'Imâm Idrîs prit la résolution de construire Fès et qu'il en eut déterminé l'emplacement (il advint) qu'un vieillard très âgé, un moine, vivant en solitaire dans un ermitage voisin de ces lieux, passa près de lui, s'arrêta, le salua et lui dit : « Prince ! que veux-tu faire entre ces deux montagnes ? »

— « Je veux, répondit Idrîs, y fonder une ville que j'habiterai et où demeureront mes enfants après moi, afin que l'on y adore Allâh, le Très-Haut, que l'on y récite Son Livre, que l'on y maintienne Ses Commandements ».

— « Prince ! reprit le dévot, j'ai une communication à te (faire) à ce propos ».

— « Quoi donc, homme de dévotion ? » s'écria (Idrîs).

Et le dévot poursuivit : « Un dévot vivait avant moi en ces demeures, il y est mort il y a cent ans ; il m'a appris qu'un nommé Idrîs, de la famille des Prophètes restaurerait ces habitations, ferait revivre leurs traces, rétablirait ce qui (en) est effacé ; cette (ville) prendrait une grande importance, aurait une puissance considérable, la religion de l'Islâm ne cesserait d'y demeurer jusqu'au Jour de la Résurrection ».

— « Qu'Allâh soit loué ! s'écria l'Imâm, je suis Idrîs, j'appartiens à la famille des Prophètes et je bâtirai cette ville s'il plaît à Allâh ! »

Cet incident fut de ceux qui fortifièrent la résolution d'Idrîs de bâtir cette (ville). Ce qui tend à prouver (l'exactitude des dires du dévot) — et Allâh est le mieux instruit (de la vérité) — est qu'El-Barnousi [2] lui-même a raconté qu'un homme d'entre les Juifs creusait les fondations d'une maison auprès du

(1) Cette citation d'Ibn Ghâleb figure aussi dans le *Qirṭâs* (éd. p. 21, tr. p. 42).

(2) Ce passage d'El-Barnousi est tiré du *Qirṭâs*, éd. p. 21 *in fine*.

« Mes charmes ont fui et se sont effacés ; il ne reste sur (mes) os, ni chair ni peau !

« Comment alors (me comporter) ô mon Dieu ! avec le Feu qui approche. Et Ton Feu (est tel) que la pierre la plus dure ne lui résiste pas.

« Qui sait (cependant) si Celui qui pardonne les fautes ne me pardonnera point les miennes ? Le Seigneur n'a-t-il pas bien souvent pardonné à (Son) Serviteur coupable ? ».

La plus grande partie de ce que je viens de rapporter dans ce chapitre est tirée des *Mâdarik* et d'autres livres. Ceux qui voudront de plus amples détails consulteront mon *Kitâb El-Mostafâd fi manâqib El-'Ibâd*.

Revenons à notre sujet. Lorsque l'Imâm Idrîs eut résolu (de fonder) la ville de Fès, après qu'il eut été informé des (avantages) de l'emplacement, de l'air, des vents et de l'eau, qu'il eut reconnu l'éloignement (du territoire choisi) du désert, de la mer, des montagnes élevées, des terres salées et stériles, eut su que (les conditions de) la situation étaient favorables à la fondation (projetée), il leva la main vers le Ciel et invoqua Dieu en disant : « O mon Dieu ! fais que cette ville soit la demeure de la science et du *fiqh !* qu'elle soit un lieu où l'on récitera Ton Livre et où se maintiendront Tes Prescriptions ! Fais que sa populations soit fidèle à la *Sonna* et à la doctrine orthodoxe tant que Tu feras durer cette ville »[1]. Puis il ajouta : « Au nom d'Allâh, Clément et Miséricordieux ! Louange à Allâh » « la Terre est à Lui, il la donne en partage à qui Il veut d'entre Ses Serviteurs ; la Fin heureuse est à ceux qui le craignent »[2].

Ensuite il prit en main l'outil et se mit à creuser les fondations. Les ouvriers poursuivirent ce (travail).

(Cette ville) n'a cessé d'être la demeure de la Science (reli-

(1) Ces paroles d'Idrîs citées ici, sont tirées du *Qirtâs* (éd. p. 20 ; tr. p. 41).

(2) *Qoran*, VII, 125.

'Inân [1] — qu'Allâh lui accorda sa miséricorde — a restauré son mausolée et y a fait placer un marbre sur lequel le nom du défunt a été sculpté, ainsi que la date de sa mort. Ce marbre a été dressé à la tête du tombeau en l'an 754 (1353-1354 J.-C.).

Ibn Et-Tabbân [2] a raconté qu'un homme du Maghrib lui dit en 357 : J'ai fait un songe à Er-Ramâda et j'y ai vu le ciel et la terre qui pleuraient. « Qu'est cela »? me suis-je écrié. Il me fut répondu : « Abou Maïmoûna Darrâs ben Isma'îl est mort ». Or il en était justement ainsi.

(Darras) répétait souvent les vers suivants : (*Eṭ-Ṭawîl*)

« J'ai été négligent et (pourtant) le trépas marchait sur mes traces, je n'avais point de viatique et le voyage à faire était long ! [3].

« Je gratifiais mon corps d'un vêtement moelleux et (pourtant) mon corps ne pouvait échapper au vêtement de l'Épreuve ».

« Je me vois étendu dans le lieu de l'Épreuve, ayant par-dessus moi (la terre qui) comble (la fosse), et par-dessous la pierre du tombeau !

---

(1) Il faudrait lire « L'Amîr el-Mouminîn » Aboû 'Inân, qui est le fameux sultan Mérinide de Fès à propos duquel on peut consulter mes *Inscriptions*, chap. I et III, et p. 256.

(2) Ces paroles d'Ibn et Tabbân et le nom de ce personnage ne figurent pas dans le passage de ce livre plagié par Ibn El-Qâḍî dans sa *Djaḍwat*. Je n'ai aucun renseignement sur ce personnage.

(3) Ibn El-Qâḍî qui reproduit ces vers en ajoute un 7e ; il remplace le second hémistiche du premier vers par :

وَإِن لَّمْ أَرُحْ مَيِّتًا فَلَا بُدَّ أَن أَغْدُو

et donne un second vers qui a pour second hémistiche celui de notre premier vers, et pour premier hémistiche :

أَرَى الْعُمْرَ قَدْ وَلَّى وَلَمْ أَبْلُغِ الْمُنَى

Voici la traduction de ces deux hémistiches s'intercalant entre les deux du vers donné ici : « Et si je ne suis point mort, il faut bien que je marche ».

« J'aperçois l'existence qui s'en va et je ne suis pas encore parvenu à mon désir ».

attention [1]. C'est dans cette situation (de malékites) que les Andalous sont demeurés jusqu'à nos jours.

Quant à Darrâs il reçut ce nom à cause des nombreuses leçons (*dars*) qu'il fit sur la science (religieuse). Il est originaire de la ville de Fès. Il reçut l'enseignement des maîtres en exercice dans sa ville natale (Fès). Il fut en Ifrîqîya l'élève de Abou Bakr ben El-Labbâd [2] et d'autres professeurs. En Espagne il étudia auprès des maîtres qui s'y trouvaient. Il fit le pèlerinage (de la Mekke) et à cette occasion assista aux leçons de 'Alî ben Abî Maṭar à Alexandrie ; il entendit expliquer par celui-ci le livre d'Ibn El-Mawwâz, qu'il expliqua à son tour à El-Qirawân. Ce fut là qu'il eut pour disciples Abou Moḥammed ben Abî Zaîd El-Qirawânî [3] et Abou l-Ḥasan El-Qâbisî. Il alla en Espagne pour y faire la guerre sainte et prolongea son séjour dans ce pays. Il (y) eut pour disciples Abou l-Faradj 'Abdoûs ben Khalaf et Khalaf ben Abî Dja'far.

Il est du nombre des ḥâfiḍ qui comptent parmi les gens vertueux et pieux, parmi ceux qui ont eu en dépôt le maḍhab de Mâlek et de ses disciples. Il mourut à Fès en 357 (967-968 J.-C.) [4] et son tombeau se trouve en dehors de la porte des Djîriyîn [5], il est célèbre et les vœux que l'on y fait sont exaucés. L'une des Mosquées de Fès porte son nom. L'Emîr Abou

---

(1) Pourtant Ibn Ḥazm qui défendit l'école de Dâwûd, et qui vécut de 384 (994 J.-C.) à 456 (1064 J. C.) n'était pas de ceux « aux paroles de qui l'on ne prête pas attention ».

(2) Jurisconsulte malékite d'El-Qirawân, mort le 14 ṣafar (4 oct. 944), cf. *Tabaqât*, *loc. cit.*, p. 82 et note 1, et passim.

(3) Né à El Qirawân en 310 (922-923) ; il y mourut en 386 (996 J.-C.), voir sa biographie et la bibliographie qui s'y rapporte dans *Encyclopédie*, s. v.

La *Djaḍwat* (p. 122) qui plagie ce passage dit que Darrâs à El-Qirawân descendit chez Ibn Abî Zaîd.

(4) Ibn el-Qâḍî (*Djaḍwat*, p. 122) ajoute ici : « J'ai trouvé chez certains historiens que Darrâs était mort en l'an 362 (972 de J.-C.) ».

(5) Connue aujourd'hui sous le nom de Bâb El-Ḥamra, ajoute Ibn el-Qâḍi (*Djaḍwat*, 122).

jusqu'au moment où se rendirent auprès de Mâlek, Ziyâd ben 'Abderrahmân et Qar'oûs ben El-'Abbâs, ainsi que d'autres après eux deux. Ils rapportèrent la science de Mâlek et l'exposèrent aux Musulmans, en raison de sa supériorité et parce que les Imâms la suivaient. Ses mérites furent reconnus et (les règles de) cette école furent l'objet de l'enseignement jusqu'à l'époque où l'Espagne passa au pouvoir de Hichâm ben 'Abderrahmân ben Mo'âwîya ben 'Abd el-Malek ben Marwân (1). (Ce Khalife) imposa à tous le madhab de Mâlek ; les jugements et les décisions juridiques furent rendus selon les règles de cette école. Cela eut lieu entre 170 (786-787 J.-C.) et 179 (795-796) du vivant de Mâlek (2) — qu'Allâh lui soit miséricordieux.

Le grand mufti était alors Ṣa'ṣ'a ben Sollâm, imâm (du madhab) d'El-Awouzâï. D'autres des compagnons de Mâlek s'étaient (également) joints à lui. (Mais) les Musulmans furent obligés de suivre le madhab (de Mâlek) et ils furent amenés à le suivre de préférence à tout autre.

Cependant, des voyageurs et des étrangers avaient introduit en Espagne quelque peu des madhab de l'Imâm Echchâfi'î, de Aboû Ḥanîfa, de Aḥmed (Ibn Ḥanbal) et de Dâwoûd (3). Toutefois ils ne parvinrent pas à étendre (le nombre de leurs partisans) et ces diverses écoles disparurent à la mort de ces sectateurs, à l'exception (de quelques musulmans) qui suivirent ces écoles personnellement et aux paroles de qui l'on ne prêtait pas

---

(1) Second Khalife omayyade d'Espagne, régna de 172 à 180 (788-196) ; cf. *Encyclopédie de l'Islâm*, s. v.

(2) 179 est justement l'année de la mort de Mâlek.

(3) Les Imâms Ech Chafi'î, Aboû Ḥanîfa et Ḥanbal sont avec Mâlek les quatre fondateurs des écoles ou madhab orthodoxes définitivement admises dans l'Islâm. Quant à Dâwoûd (ben Khalaf El-Iṣfahâni Abou Solaïmân) son madhab, comme celui d'El-Aoûzâï, cité plus haut, n'eut qu'un succès sans durée. Il eut pourtant un défenseur en Espagne dans Ibn Ḥazm. (Cf. sur Dâwoûd — né en 200 H., mort en 270 — *Encyclopédie de l'Islâm*, s. v.).

drie en l'an 399 (1008-1009 J.-C.). C'est ainsi que l'a rapporté l'auteur des Madârik[1]. Quant à Darrâs — qu'Allâh lui soit miséricordieux — il était de ceux qui ont introduit le maḏhab de Mâlik — qu'Allâh soit satisfait de lui — dans le Maghrib. Auparavant la plupart des gens suivaient de maḏhab des gens de Koufa[2], jusqu'au jour où 'Alî ben Ziyâd[3], Ibn Achras[4], Ahmed ben Bohloûl ben Râchid[5], puis ensuite Forât (ben Moḥammed El-'Abdî)[6] et d'autres ḥâfiḍ[7] adoptèrent (les règles de) l'école de Mâlek.

Un grand nombre de musulmans la suivirent également. Ce maḏhab ne cessa de s'étendre et de se manifester jusqu'au jour où vint Soḥnoûn[8]. Il attaqua les défauts de ceux qui faisaient opposition (à l'École de Mâlek) et après lui le maḏhab malékite s'établit parmi ses compagnons et rayonna dans tout le Maghrib jusqu'à nos jours.

En ce qui concerne les Musulmans d'Espagne, depuis la conquête de ce pays, ils suivaient les opinions d'El-Awouzâï[9]

(1) Il s'agit du *Tartîb el-Madârik wa Taqrîb el-Masâlik lima 'rifat â'lâm maḏhab Mâlik*, du Qâḍî 'Iyâḍ, non encore publié à ce jour (voir Brockelmann, I, 369-370) et souvent cité par Ben Cheneb dans ses *Tabaqât*.

(2) C'est-à-dire le *maḏhab* d'Abou Ḥanîfa (s. ce personnage, voir *Encyclopédie de l'Islâm*, s. v.).

(3) Sur 'Alî ben Ziyâd El-Ḥimṣi, voir Ben Cheneb, *Tabaqât*, tr. p. 101 et note 1.

(4) Abou Mas'oûd 'Abd er-Raḥmân (ou 'Abd Er-Raḥîm) Ibn Achras, habitait Tunis et était d'origine arabe. Voir *Tabaqât loc. cit.*, tr. p. 348, note 1 et passim.

(5) Sur ce personnage voir une anecdote *Tabaqât* (*loc. cit.*, p. 122).

(6) Disciple de Soḥnoun, voir *Tabaqat, loc. cit.*, tr. 227 et passim. J'ai cru devoir corriger pour ces deux derniers noms propres le texte du mst, comme il est indiqué dans le texte publié ici

(7) Gens de bonne mémoire dans la science des ḥadîṯ (cf. *Taqrîb*, 249 s. v.).

(8) Voir la biographie de ce célèbre docteur musulman, *Tabaqât, loc. cit.* (p. 176 et passim) ainsi que la bibliographie qui s'y rapporte (p. 176 n. 1).

(9) El-Awouzâï ('Abd Er-Raḥmân ben 'Amr) né à Ba'albekk en 88 (707) mort à Beyrouth en 157 (774), « passe pour avoir été l'*Imâm* de la Syrie, et le Maghrib même et l'Espagne suivirent, dit-on, son maḏhab ». Cf. *Encyclopédie de l'Islâm*, s. v. A ajouter à la bibliographie qui y est donnée : *Tadj El-'Arous*, s. v. et *Tabaqât, loc. cit.*, p. 106, n. 3 et passim.

drie, d'après Mohammed ben Ibrâhîm El-Mowâz [1] le tenant de 'Abd Errahmân ben El-Qâsim [2], de Mâlek ben Anas [3], de Mohammed ben Chihâb Ez-Zohrî [4], de Sa'îd ben El-Mosayyeb [5] d'Abou Horaïra [6] — qu'Allâh soit satisfait de lui — que le Prophète — qu'Allâh lui accorde Ses Grâces et le Salut — aurait dit : « Il y aura en Occident une ville qui se nommera Fès ; ses habitants seront les meilleurs de ceux de l'Occident pour s'orienter (dans la prière) [7] ; ils seront aussi les plus nombreux à faire la prière ; ils suivront la *sonna*, formeront une communauté et adopteront la voie de la Vérité sans cesser de la suivre ; ceux qui leur feront de l'opposition ne leur nuiront pas, car Allâh écartera des habitants (de Fès) ce qu'ils détesteront, jusqu'au Jour de la Résurrection » [8].

Or Ibn Abî Maṭar est Abou l-Ḥasan 'Alî ben 'Abd Allâh ben Abî Maṭar, l'un des descendants d'Abou Moûsa El-Ach'arî [9] ; il exauçait les prières (qu'on lui adressait). Il mourut à Alexan-

---

(1) Sur ce personnage, savant jurisconsulte malikite d'Égypte, né en rajab 180 (sept.-oct. 776), mort à Damas le 11 dû lqa'da (14 janv. 873), et la bibliographie utile, voyez *Tabaqât*, p. 254 note 1.

(2) Sur ce personnage et la bibliographie à consulter à son sujet, voyez *Tabaqât*, *op. cit.*, p. 138 note 1.

(3) Le grand Imâm qui a donné son nom à l'école malékite.

(4) Était un « *Tâbi'* », voyez sur ce personnage : *Taqrîb* (p. 4 note 3 et passim) ; *Tabaqât*, *op. cit.*, p. 24.

(5) L'un des sept jurisconsultes de Médine, gendre d'Abou Horaïra, mourut en 94 (712-713), cf. *Taqrîb* (p. 40 note 1). La biographie de ce personnage et la bibliographie à consulter figurent dans *Tabaqât*, *loc. cit.*, p. 74 note 1, et passim.

(6) Compagnon du Prophète, mort à Médine, voir sa biographie et la bibliographie qui s'y rapporte ap. *Tabaqât*, *op. cit.*, p. 7 note 1 ; et dans *Encyclopédie de l'Islâm*, s. v.

(7) On verra plus loin ce que qu'il faut penser de cette affirmation, à propos de la mauvaise orientation des « miḥrâb » de Fès.

(8) Ce ḥadîṯ apocryphe figure dans le *Qirtâs* (éd. de Fès, p. 21).

(9) Il s'agit sans doute de Abou Mousa 'Abdallah ben Qaïs, gouverneur de divers districts dans les premières années de l'Islâm. Il mourut vraisemblablement à Koufa vers 42 ou 52 de l'hégire. Cf. *Encyclopédie de l'Islâm*, s. v. El-Ash'arî.

Cela eut lieu en 191 (806-807 J.-C.)[1]. Puis l'Imâm Idrîs planta ses tentes et s'installa à l'endroit nommé Djerwâwa de la *'adoua* (actuelle) des Andalous ; et les Djerwâwa entourèrent ce camp (d'une palissade) en bois. L'emplacement porte encore le nom de Djerwâwa.

L'Imâm Idrîs se transporta ensuite à l'endroit nommé Maqarmeda de la *'adoua* des Qarouiyîna[2], où se trouve le Dâr El-Qîṭoûn attenant à la Mosquée des Chorfa, puis il commença la construction, comme on le dira plus loin. Tels sont les dires d'Ibn Er-Raqîq[3] et d'autres.

Parmi les mérites de cette ville et ses avantages, suivant la constante tradition, signalons que l'on trouve dans le livre de Darrâs Isma'îl[4], surnommé Ibn Maïmoûna, dans l'exemplaire écrit de sa main — qu'Allâh le Très-Haut lui accorde sa Miséricorde — ceci : 'Alî ben Abi Maṭar[5] m'a raconté à Alexan-

---

Beaumier (p. 35) on lit « ben Malek El-Anṣâri Er-Regrâgi ». *Eddorr* (éd. p. 174) le nomme Aboû l-Hoṣaïn 'Abd Allâh ben 'Abd el-Malik El-Anṣâri et Ibn Khaldoûn (*Berb.*, II, 562). Abou l-Hasan 'Abd el-Malik el-Khazradji.

(1) Comme d'ordinaire, pour cette période, les chroniques musulmanes ne sont pas d'accord sur la date ; celle-ci est également celle du *Qirṭâs* ; tandis qu'Ibn Khaldoun, met l'événement postérieurement à 192.

(2) Chacun sait que Fès, comme cela sera dit plus loin d'ailleurs, était dès l'origine divisée par la rivière qui la traverse en deux quartiers qui au début formèrent deux villes distinctes et qui furent et sont encore connues sous les noms de *'adouat El-Andalous* « rive des Andalous » (rive droite) et *'adouat El-Qarouwiyîne* « rive des Qairouaniens » (rive gauche).

(3) Sur ce fonctionnaire des Beni-Zîrî à El-Qirowân qui écrivit divers ouvrages, dont une chronique de l'Afrique du Nord, souvent citée par les auteurs musulmans, on consultera : Brockelmann (I, 135) ; *Berb.* (I, 292 n. 3). Il mourut en 383 (993 de J.-C.).

(4) La biographie de ce personnage figure ci-après et a été plagiée de cet auteur par l'auteur de la *Djadwat* (éd. p. 121 à 123) Il mourut à Fès en 357 (967-8 J.-C.) comme le porte son épitaphe, bien que certains biographes le fassent mourir en 362. Son tombeau fut restauré en 754/1353, par ordre du Mérinide Abou 'Inân Fâres ; voir aussi sur Darrâs : *El-Azhar*, éd. p. 121.

(5) Ce personnage qui m'est inconnu est bien appelé du même nom qu'ici dans *Djadwat* (p. 121) ; le texte du *Qirṭâs* (éd. p. 21) le nomme Abou Maṭar.

de soixante points d'émergence dont l'eau s'écoulait sur de petits cailloux. Après avoir bu de cette eau, 'Omaïr la trouvant agréable suivit le cours de la rivière jusqu'à ce qu'il arriva à l'endroit où s'élève (aujourd'hui) la ville de Fès. Il examina la vallée sur les deux berges : ce n'était qu'un marécage couvert d'épais fourrés, tout ruisselant de sources et de ruisseaux. En certains endroits de ce ravin étaient des huttes de branchage servant d'habitation à des gens de fractions des Zenâta, connus sous le noms de Zwâgha et de Benî Yar'as [1].

'Omaïr revint auprès de l'Imâm Idrîs et l'informa du terrain qu'il avait trouvé ; il lui exposa combien ce lieu lui avait plu par l'abondance de ses eaux, la qualité du terrain, la douceur du climat et par sa salubrité. L'Imâm Idrîs en fut enchanté ; il interrogea son vizir sur les possesseurs du sol. Il lui fut répondu que c'était une fraction des Zwâgha [2] connue sous le nom de Beni El-Khaïr « Les Fils du Bien ». L'Imâm Idrîs s'écria : « Voici qui est de bon augure ».

Il leur envoya donc des émissaires et leur acheta le terrain de l'emplacement (de la ville) pour six mille drachmes. Le prix leur en fut remis [3] et le contrat consigné dans un acte rédigé par le secrétaire d'Idrîs, Abou-l-Hoṣaïn 'Abd Allâh ben Malik El-Mâliki El-Anṣârî El-Makhzoûmi [4].

---

(1) Le nom de cette fraction est diversement écrit par les auteurs musulmans : بنو يزغتن dans *Qirṭâs* (éd. Fès, p. 17 *in princip.*) et dans *Djadwat* (éd. Fès, p. 14) ; dans *Eddorr* (éd. Fès, 271) et dans la trad. Beaumier du *Qirṭâs* (tr. p. 34), c'est بني يرغسن, qui se rapproche de notre بنو يرغس et aussi de la leçon d'Ibn Khaldoun et de Slawî qui le plagie (*Istiqsa*, I, 72) بني يرغسن (cf. *Berb.*, tr. II, 362). Je ne connais pas actuellement de tribu marocaine de l'un de ces noms et je crois qu'il faudrait sans doute lire بني يزغى « Beni Yazgha » qui est le nom d'une tribu de la région de Fès et au Sud de cette ville, à l'heure actuelle.

(2) C'est encore le nom du territoire qui se trouve sur la rive droite de l'Oued Fès à partir de la ville en amont.

(3) Tout ce qui précède jusqu'ici est plagié de *Qirṭas* (éd. Fès, p. 16-17) qui est ici plus complet cependant.

(4) Ce nom propre figure aussi dans *Qirṭas* (éd. de Fès, p. 17) mais avec la variante « ben Malik El-Khazradji El-Anṣâri » ; dans la trad.

cheval à la tête d'un groupe de personnes de choix. Il parcourut le pays environnant et parvint au Mont Zâlagh. Ce fut là qu'il décida de bâtir une grande ville. Mais il s'aperçut que les ravages (causés par les eaux) seraient considérables au moment des grandes pluies. Il se transporta vers l'Oued Sbou, et c'est là qu'il résolut de construire sa capitale. Il s'aperçut cependant que le fleuve en débordant atteindrait la ville, à la saison des pluies, et demeura perplexe sur (le choix de l'emplacement) où il bâtirait. Il chargea son vizir 'Omaïr ben Moṣa'b El-Azdî [1] de lui chercher l'endroit où il (fonderait) la ville.

'Omaïr, à la tête d'un groupe de ses gens, se mit à la recherche de ce qui lui avait été demandé. Il traversa ces régions et s'arrêta à une source d'eau courante ; il y fit ses ablutions, lui et ses compagnons et avec eux il fit en ce lieu sa prière. Il demanda ensuite à Allâh de faciliter ses recherches et de lui faire trouver un emplacement dont Il serait satisfait pour Son culte [2].

Cette source fut dès lors nommée du (nom) de ce (vizir), 'Aïn 'Omaïr (nom qu'elle a conservé) jusqu'à ce jour [3].

'Omaïr monta ensuite à cheval et se dirigea vers la plaine de Saïs [4], poursuivant ses recherches. Il arriva aux sources qui donnent l'Oued Fès. Il y avait là de nombreuses sources, plus

---

(1) C'est ce nom que donne à ce vizir l'auteur du *Qirṭâs* (éd. Fès. p. 15) qui est plus détaillé pour les événements rapportés ici. Voir aussi Ibn Khaldoun (*Berb.*, II, 561). Suivent le *Qirṭâs* pour ces passages *Djaḍwat* (éd. p. 12), et *Eddorr* (éd. p. 270 et suiv.).

(2) On sait que dans l'Islâm le moment le plus favorable pour demander une grâce à Allâh (*eddu'â*) est celui qui suit immédiatement la prière.

(3) Tout ceci est dans *Qirṭas* (éd. p. 15-16 ; tr. Beaumier, 31-33) et dans les deux ouvrages qui l'ont plagié : *Djaḍwat* et *Eddorr*, *loc. cit.* Quant à cette source de 'Aïn 'Omaïr elle est encore connue sous ce nom aujourd'hui et se trouve au S.-O. de la ville européenne de Fès, près de Dâr Dabîbagh.

(4) S'étend entre Fès et Meknés ; partant de 'Aïn 'Omaïr, le vizir se dirigea donc vers l'Ouest, à l'opposé par conséquent de l'emplacement actuel de Fès qui est au N.-E. de cette source.

« *Notre ancêtre Hâchim n'a-t-il pas solidement maintenu sa* « *(noble) origine et conseillé à ses fils de frapper (l'ennemi) à* « *coup de lance et de sabre ?*

« *Nous ne nous lasserons point de la guerre à moins qu'elle ne* « *se lasse de nous ; et nous ne nous plaindrons pas de ce qui* « *amène au but.*

« *Nous demeurons les gardiens et les protecteurs (des nôtres),* « *alors que les âmes des (plus) braves s'envolent de terreur* [1] ».

Des (partisans) vinrent auprès de lui de toutes les régions et arrivèrent de toutes les villes. De ce nombre il y avait environ cinq cents cavaliers d'Ifrîqîya et d'Espagne, Qaïsites, (gens des tribus arabes) des Azd, des Khazradj, des Madladj, des Benî Yaḥṣob et d'autres [2]. L'Imâm Idrîs se réjouit de leur venue, leur fit des cadeaux, les honora, les traita avec considération et en fit sa cour, à l'exclusion des Berbères. Grâce à ces (Arabes) sa puissance s'accrut, car il était auparavant isolé parmi les Berbères.

Lorsque l'Imâm Idrîs se rendit compte du (solide) établissement de son autorité, de l'importance de son empire, du nombre croissant des gens de sa suite et qu'il vit que la ville d'Oulîlî devenait trop étroite pour (cette population), il résolut de la quitter et de bâtir une ville dans laquelle il habiterait, lui, les principaux de sa cour, les troupes régulières et les hauts fonctionnaires de l'État.

Après avoir demandé l'approbation d'Allâh [3], il monta à

---

(1) Les deux premiers de ces trois vers sont cités par Bekri (éd. 123) ; les trois vers sont cités dans *Djadwat* (éd. p. 15).

(2) Ce passage est cité dans *Qirṭâs* (éd. p. 15) ; voir aussi *Berb.* (tr. II, 561) ; l'auteur de la *Djadwat* qui plagie le *Qirṭâs* pour ce passage donne comme lui la date de 139 pour celle de l'arrivée de ces partisans arabes ; même observation pour *Eddorr* (éd p. 270).

Le fait est d'importance car les détails qui l'accompagnent ici et chez les chroniqueurs montrent qu'Idrîs II n'avait qu'une confiance limitée dans le dévouement des Berbères et voulait s'entourer d'une sorte de garde d'Arabes qu'il a toujours conservée autour de lui.

(3) Sur la prière de « l'Istikhâra », cf. *Bull. soc. géog. d'Oran*, de 1908.

« touchant au maintien de la justice, vous le trouverez auprès « de nous.... »

Ensuite il demanda au peuple de le proclamer ; ce qui fut fait. Puis il l'exhorta à s'appliquer à obéir à Allâh et à lui-même. Le peuple fut émerveillé de son éloquence, de son langage, de la pondération de son intelligence, de sa facilité d'élocution et de ses qualités. Lorsqu'il descendit de la chaire, le peuple se hâta de le proclamer sultan. On se bouscula pour l'approcher et pour baiser ses mains [1]. Il fut proclamé par toutes les tribus du Maghrib, telles que Zenâta, Aourba, Ṣanhadja, Ghomâra et tous les Berbères.

Ainsi sa proclamation fut complète [2], son autorité se raffermit dans le Maghrib, son gouvernement se développa, son empire s'agrandit, ses armées devinrent puissantes et ses troupes nombreuses.

Nous rapporterons de lui (ces vers) qu'il disait en luttant contre des rebelles : (Eṭ-Ṭawîl)

---

(1) La cérémonie du baise-main en signe de soumission est courante dans la vie publique et privée des musulmans maghribins. Elle fait partie également des rites de la magie de ce pays, comme le baiser en général, et celui qui donne le baiser reçoit par là du personnage sacré ou de la chose sacrée une parcelle de la *baraka* dont ce personnage ou cette chose sont détenteurs perpétuels (comme les saints) ou temporaires (comme le professeur d'Université à Fès après sa leçon finale du *Mokhtaṣar* de Khalîl : Cf. mon *coup d'œil sur l'Islâm en Berbérie*, p. 45-46). La cérémonie du baise-main dans la proclamation du sultan par le peuple a certainement la même origine magique.

Eddorr (éd. p. 174) donne des détails abondants sur la cérémonie de la *baï'a* d'Idrîs II à Oulîlî ; il donne le nom des grands dignitaires du royaume dont le nombre était réduit à trois : un vizir, un qâḍî et un secrétaire.

(2) Selon l'auteur de *Eddorr* (éd. 174) il y eut deux proclamations successives à cinq mois de distance, préparées par Rachid ; mais celui-ci n'assista pas à la seconde qui eut lieu la 1re rabî I. 188 H. (17 fév. 804) parce qu'il avait été assassiné par un émissaire de (Ibrâhîm) Ibn el-Aghlab, le gouverneur d'Ifrîqîya. Sur ce dernier fait on pourra consulter Ibn Khaldoun (*Berb.*, tr. II, 561, différent de tr. I, 401, le *Qirṭâs*, (éd. Fès, p. 14), Bekri (éd. 122-123) *Bayân* (tr. I, 304) qui présente ici une importante lacune.

à l'art de lancer la flèche et, lorsqu'Idrîs eut onze ans accomplis ou à peu près cet âge, Râchid le fit proclamer souverain par toutes les tribus. Cette proclamation eut lieu à la Mosquée d'Oulîlî [1] le vendredi 1er rabî' I, de l'an 186 (10 mars 802). Il s'était écoulé — en comptant [2] les deux mois de gestation — depuis la mort de son père, et durant la régence de Râchid, dix ans et dix mois.

Le jour de sa proclamation, Idrîs II monta en chaire et fit un prône dans lequel il dit notamment [3] :

« Louange à Allâh ! Je lui rends grâce, je recherche Son « Pardon, j'implore Son Secours et je m'en remets à Lui ! Je « me réfugie en Allâh contre le mal qui est en moi et contre le « mal de tous les méchants. J'atteste qu'il n'y a d'autre divinité « qu'Allâh et que Moḥammed est Son Serviteur et Son Envoyé. « Il l'a adressé aux Êtres (des Mondes) pour leur annoncer la « nouvelle, pour leur faire des admonestations et les amener « à Allâh, avec Sa Permission. Il est un flambeau éclatant. « Qu'Allâh lui accorde Ses Grâces, ainsi qu'aux membres de sa « famille dont Allâh a écarté la turpitude et qu'Il a purifiés !

« O peuple ! nous avons pris en main cette autorité qui « procure une ample récompense à ceux qui l'exercent avec « bonté et qui est comptée pour crime à ceux qui (l'exercent) « avec perversité. Quant à nous — et qu'Allâh en soit loué — « nos intentions sont bonnes ; ne dirigez point vos assemblées « vers d'autres que vers nous. Ce que vous nous demanderez

(1) Mêmes indications ap. *Qirṭâs*, éd. p. 12 ; la *Djadwat*, p. 11 ; *Eddorr*, p. 167-168 qui cite comme tiré de *El-'Anîs*. Le *Qirṭâs* donne (éd. p. 14) le même mois, mais de 188 H. ; c'est aussi 188 la date donnée par *Berb.*, tr II, 561.

(2) Il faudrait lire plutôt « sans compter les deux mois de gestation ».

(3) Le texte de cette allocution d'Idrîs II au peuple est à peu de mots près tout à fait semblable à celui que donne le *Qirṭâs* (éd. p. 14) ; la traduction de ce texte par Beaumier (de 1860) est mauvaise, comme d'habitude (trad. p. 29). Le texte de cette même allocution est reproduit par *Eddorr* (éd. p. 213-214) et par *Djadwat* (éd. p. 12).

foule en ces lieux, de toutes les parties du Maghrib [1]. Ce fut au point que l'on redouta des troubles à cette occasion. L'Émir des Musulmans, Abou Sa'îd ben Ya'qoûb ben 'Abd el-Ḥaqq — qu'Allâh approuve ses actions — envoya (l'ordre) de disperser la foule et d'arrêter les troubles survenus pour ce motif. C'est ainsi que je l'ai lu sur un rescrit royal contenant cette décision.

Lorsque Idrîs mourut [2], il laissait une esclave-concubine lui appartenant, une berbère du nom de Kenza, qui était enceinte de sept mois. Elle mit au monde un fils ressemblant beaucoup à son père Idrîs. Cet événement eut lieu en rajab de 175 (novembre 791) [3] et l'enfant reçut le nom de son père. Râchîd, l'affranchi d'Idrîs s'occupa de lui, le prit sous sa tutelle. Quand il fut sevré et qu'il eut grandi, il lui donna la meilleure éducation, lui fit apprendre le Qoran que (le jeune Idrîs) sut par cœur à l'âge de huit ans ; il lui enseigna aussi la *sonna* (ici dans le sens de *Ḥadîṯ*), le *fiqh*, la poésie, les sentences des Arabes et leurs maximes, ainsi que la politique ; il l'exerça à l'équitation,

(1) Ce miracle n'est pas relaté par l'auteur du *Eddorr* qui s'étend cependant fort complaisamment sur les miracles du figuier qui était primitivement planté sur le tombeau d'Idrîs, avant la construction du mausolée actuel (construit en 1070 H.) et sur ceux d'Idrîs lui-même surtout de son vivant (cf. éd. 163-167).

(2) Le passage qui suit se trouve dans la *Djadwat* (éd. p. 10-11) qui plagie encore le *Qirṭâs* (éd. Fès p. 11), comme notre auteur du reste. L'auteur du *Qirṭâs* cite ce passage d'après Abou Moḥammed 'Abd el-Malik ben Maḥmoud El-Warrâq dans son livre intitulé *El-Miqbâs*, d'après El-Bekrî, El-Barnoûsî, et d'autres. L'ouvrage d'El-Warrâq est une des sources du *Qirṭâs*, et c'est sans doute d'après le *Qirṭâs* que notre auteur et celui de la *Djadwat* le citent parfois. C'est aussi l'une des sources du *Bayân* (cf. tr. I, 377 et passim) qui donne à ce livre le titre de *El-Miqbâs fî Akhbâri Fâs*. Mais l'auteur du *Bayân*, donne à cet auteur les noms de Abou Marowân 'Abd el-Malik ben Moûsâ El-Warrâq. C'est par erreur que dans sa traduction des *Berbères*, de Slane a lu *El-Miyâs* pour *El-Miqbâs* (tr. II. 137). Cet ouvrage ne nous est connu que par ces citations et les recherches que j'ai faites à Fès pour en retrouver un exemplaire sont demeurées vaines.

(3) Même mois de 177 d'après *Qirṭâs*, éd. p. 12 ; *Eddorr*, éd. 171 ; Qalqachandi rapporte seulement qu'Idrîs II fut proclamé en 188 à l'âge de 11 ans, ce qui mettrait en 177 la date de sa naissance (cf. t. v, p. 181).

bre 791)[1]. La durée du règne d'Idrîs avait été de deux ans et huit mois.

Ici finit ce qu'a raconté El-Bekrî dans son (*Kitâb*) *El-Masâlik* (*wal-Mamâlik*)[2].

D'après El-Moḍaffarî, un poète a dit : (El-Kâmil).

« *Pensais-tu, ô Idrîs, que tu échapperais à la ruse du Khalife, ou que la fuite te pouvait sauver ?*

« *Les épées de ce souverain sont puissantes lorsque sa colère les conduit ; les longues existences sont bien raccourcies par elles.*

« *Il faut qu'elles t'atteignent ! même si tu te faufiles dans une ville, ton séjour n'y durera point.*

« *(Ce Khalife) est un souverain dont la Mort suit les ordres : quand il parle le destin lui obéit* »[3].

Idrîs — qu'Allâh soit satisfait de lui — fut enterré en dehors de la porte d'Oulîlî et l'on ne cessa de s'appliquer à venir en pèlerinage à son tombeau, d'y adresser des vœux pour (la réalisation des) désirs et ces vœux sont exaucés.

Le corps d'Idrîs apparut (dans le tombeau) enveloppé de son linceul, en l'an 718 (1318-1319 de J.-C.), et le peuple arriva en

---

(1) Le récit donné dans le *Bayân* (trad. I, 97-98) est très différent de ceci mais la date est la même ; le récit donné dans la *Djadwat* est plus complet, il est tiré du *Qirṭâs* (éd. p. 9-10). Selon ces textes l'événement aurait eu lieu à la fin de rabî' I, de 176 ou 177 (en rabî' I, 177 dit *Eddorr* éd. p. 153). La durée du règne aurait été de 5 ans et 7 mois selon *Djadwat* et *Eddorr*, qui donnent d'autres opinions sur les causes de la mort d'Idrîs. 'Abderraḥmân Ibn Khaldoun et son frère Yaḥia donnent également la date de 175 (cf. Berb., tr. II, 561 ; mes *Rois de Tlemcen*, I, 102). On verra aussi les versions de cette mort données par d'autres chroniqueurs ou géographes musulmans, *Istiqṣa*, éd. I, 69-70 ; *Istibṣâr*, tr. 151-155, etc. On lira dans *Bekrî* (édit. p. 118 à 122) l'histoire d'Idrîs Ier qui diffère sensiblement du récit ci-dessus ; Qalqachandi fait mourir Idrîs en 175 (t. V, p. 160).

(2) Voir la biographie d'El-Bekri et la liste de ses ouvrages ap. de Slane dans sa préface à l'édition de la *Description de l'Afrique septentrionale*.

(3) *Djadwat* cite ces vers (sauf le dernier) comme ayant pour auteur un poète de la Cour d'Haroûn Er-Rachîd.

qu'il était l'un des affranchis de son père, que les nouvelles (des succès) d'Idrîs lui étaient parvenues et qu'il venait se mettre à son service en raison de son amitié et de sa qualité de client de la famille, puisque personne ne traitait avec justice les gens de cette famille à qui nul ne pouvait être comparé.

Idrîs le prit pour compagnon, se fia à ses déclarations et se réjouit de l'avoir avec lui, si bien qu'il ne se reposait, ne mangeait ou ne buvait sans l'avoir avec lui.

Quant à Solaïman il ne cessait d'épier l'occasion et de chercher le moyen de le tuer. Mais il n'arrivait pas à ses fins, à cause de la surveillance constante de Rachîd, l'affranchi d'Idrîs qui ne laissait jamais son maître et ne le quittait pas. Un jour cependant, Rachîd s'absenta pour quelque affaire. Solaïmân entra auprès d'Idrîs, qu'il trouva seul, et lui dit : « Puissé-je me dévouer pour vous, ô Monseigneur ! J'ai apporté d'Orient une fiole de parfum pour mon usage [1], mais je considère que l Imâm en est plus digne que moi. Prenez-la donc pour vous parfumer, car je préfère vous la donner que de la garder pour moi ». Puis il la lui présenta et la lui remit. Idrîs prit la fiole, la déboucha et en aspira (le parfum). L'ayant vu faire ainsi, Solaïmân avec atteint son but et réalisé son espérance. Il s'esquiva et sortit comme s'il avait un besoin à satisfaire. Il rentra chez lui, enfourcha un excellent cheval qu'il avait et qu'il tenait prêt pour cette éventualité ; puis il quitta Oulîlî pour chercher son salut (dans la fuite).

Or la fiole renfermait du poison. Lorsque Idrîs eut aspiré, le parfum qu'elle contenait s'éleva dans ses narines et atteignit le cerveau. Il s'évanouit et tomba mort. Cet événement eut lieu à la fin du mois de rabî' II de l'an 175 (septem-

(1) *Eddorr* (éd. p. 152) qui donne tous ces détails rapporte aussi les paroles de Solaïmân, mais ajoute ici : voyant que dans ce pays-ci il n'y a pas de parfums.

(Moḥammed) — sur lui soient les Grâces divines et le Salut — avait annoncé. On lit en effet dans le *Ṣaḥîḥ* que le Prophète a dit : « La terre s'est présentée à moi en raccourci et (Dieu) m'a fait voir les régions orientales et occidentales : le gouvernement de mon peuple s'étendra sur toutes les régions du globe qui se sont offertes à moi en raccourci »[1].

Lorsque Idrîs vint camper auprès de Tlemcen, l'Émir de cette ville, Moḥammed ben Khazer (ben Ṣoûlât) El-Maghrâwi vint le trouver et le proclama ; les tribus qui se trouvaient là firent de même et (Idrîs) fit son entrée dans Tlemcen ; le gouvernement du Maghrib lui appartint en entier[2]. Ces nouvelles parvinrent à (Hâroûn) Er Rachîd. Il en fut ennuyé et préoccupé et redouta, si (Idrîs) se rendait en Ifrîqîya qu'il n'arrivât jusqu'à lui, car il connaissait les mérites d'Idrîs, ses qualités et l'affection du peuple pour la famille du Prophète d'Allâh — qu'Allâh lui accorde ses Grâces et son Salut. (Hâroûn) Er Rachîd lui dépêcha donc un émissaire pour l'assassiner.

Il choisit dans cette intention Solaïman ben Djarîr[3]. Cet envoyé quitta donc Bagdâd et arriva en Maghrib. Il se rendit auprès d'Idrîs dans la ville d'Oulîlî et lui présenta ses salutations. Idrîs lui demanda son nom, son origine, le pays d'où il venait et la raison de sa venue en Maghrib. Solaïmân lui raconta

---

(1) Voir ce *ḥadîṯ* ap. 'Iyâḍ. *K. echchifâ*, I, ٢٨٤ (Constantinople, 1312).

(2) Au sujet de l'entrée d'Idrîs Ier à Tlemcen, en 173 (789-790) voy. *Berbères*, trad. II, 560 ; *Qirṭâs*, édit. p. 8 ; *Djadwat*, édit. 9, qui plagie le Qirṭâs ; *Eddorr*, édit. p. 148 et s. ; mes *Fouilles sur l'emplacement de l'Ancienne Mosquée d'Agâdîr (Tlemcen)*, dans *Revue africaine*, n°s 288, 1er trim. 1913.

(3) L'auteur du *Bayân* (tr. I, 97) le nomme Ech-Chemmâkh ; Ibn Khaldoun (*Berb.* tr II, 560) : Solaïmân ben Ḥoraïz (par suite d'une erreur de lecture de points : حريز pour جريس) surnommé Ech-Chemmakh et en fait un affranchi d'El-Mahdî, père d'Haroûn Er-Rachîd ; mais c'est sous le nom de Solaïmân ben Djarîr que le présentent : *Qirṭâs*, éd. p. 9 et trad. Beaumier, p. 19 et 20 ; Yaḥia Ibn Khaldoûn, dans les *Rois de Tlemcen*, I, p. 101 ; *Djadwat*, qui plagie le *Qirṭâs*, éd. p. 9 ; *Eddorr*, éd. p. 151.

descendit chez son chef, l'Émîr Isḥâq ben Mohammed ben 'Abdallâh El-Aoûrbî. Celui-ci le reçut et le traita avec générosité ; il s'efforça de le servir avec dévouement.

L'installation d'Idrîs à Oulîlî date du premier du mois de l'an 172 (9 août 788)[1]. Il demeura chez ce (chef berbère), et les populations (des environs) vinrent à lui en grand nombre. Lorsque l'on fut au mois de ramaḍan de cette année-là, toutes les tribus berbères (de la région)[2] le proclamèrent sultan.

Cette proclamation étant terminée, Idrîs, ayant obtenu le titre de sultan et son rang s'étant élevé, leva une troupe imposante parmi les tribus berbères et partit à sa tête du côté du Tâmesnâ[3]. Il conquit Chella[4] et toutes les forteresses (de cette région), puis il atteignit Tâdla[5], réduisit les forteresses de cette province et arriva jusqu'à Mâssa.

La plupart des habitants de ce pays suivaient la religion du Nazaréen, des Juifs et des Mages. Les Musulmans y étaient rares. Toutes ces populations embrassèrent alors l'Islâm ; ce fut au point qu'il ne resta pas en Maghrib un seul endroit où l'on n'adorât pas Allâh[6]. Cela est conforme à ce que le Prophète

(1) Cette date est donnée par l'auteur *Eddorr*, éd. p. 141 *in fine*.

(2) *Berb.* tr. II, 159, donne les noms des nombreuses tribus du Maghrib qui se rallièrent à sa cause.

(3) Léon l'Africain (éd. Schefer, II, 3 et suiv.) donne comme limites à cette province les rivières Bou Regreg et Oumm errabî' le Moyen Atlas et l'Océan. C'est l'ancien pays des Berghouâṭa (Bekri, p. 87 *in princ.*).

(4) Sur les bords (rive g.) du Bou Regreg, près de son embouchure et à côté de Rabat. Il n'en reste aujourd'hui que des ruines (remparts, mosquée, tombeaux de Mérinides) : cf. Léon, II, 24 et suiv. et notes.

(5) Point stratégique important dans les premières années du Protectorat français au Maroc. Sur cette ville ancienne, voir *El-Istibṣar*, trad. p. 162.

(6) Ce passage figure dans la *Djaḍwat* (p. 8), mais non le ḥadît qui le suit. La *Djaḍwat* montre comment s'y prit Idrîs pour amener l'islamisation du pays ; on y trouve ensuite le récit plus détaillé qu'ici de l'expédition de Tlemcen, d'après le *Qirṭâs* (éd. p. 8) dont le nom n'est pas cité d'ailleurs ; on lira d'abondants détails sur tout ceci dans *Eddorr* (éd. p. 144 et suiv.) qui ne cite pas non plus le ḥadît ci-dessous.

« Plût au Ciel que ma mère ne m'eût pas donné le jour... pour ne point rencontrer à Fakhkh ni Ḥosaïn, ni Ḥasan ».

Idrîs ben ʿAbdallah ben Ḥasan ben Ḥasan ben ʿAlî ben Abî Tâleb s'enfuit du combat, à ce que raconte El-Moḍaffarî, et atteignit le Caire avec son affranchi Râchid [1]. Or à la tête du service de la poste de cette ville se trouvait Wâdiḥ, affranchi de Sâlih ben Manṣour [2] qui le confia au courrier postal partant pour le Maghrib. Idrîs arriva de la sorte dans un quartier de Tanger, puis à Oulîlî, capitale du Zerhoun. Les tribus berbères accueillirent avec faveur son appel, sa cause grandit et sa réputation rayonna.

Or cette ville (d'Oulîlî) était ancienne. On dit qu'elle fut construite par les Coptes et on la nomme aujourd'hui Qṣar (pour Qaṣr) Fer'oûn [3]; elle se trouve sur le territoire des Oulâd Ta'lou et au centre de régions peuplées; son sol est fertile et riche en eau, en plantations et en oliviers. La ville d'Oulîlî avait un rempart important dont il reste une partie debout : et ceci est un sujet de méditation pour ceux qui réfléchissent.

Lorsque notre seigneur Idrîs arriva dans la ville d'Oulîlî, il

---

(1) L'auteur du *Eddorr* entre dans de longs détails pour démontrer que Râchid était d'origine berbère, de la tribu des Aourba et dit que ce serait la raison pour laquelle cet affranchi amena Idrîs en Maghrib et dans sa propre tribu (cf. p. 139).

(2) On trouvera d'abondants détails sur ce voyage d'Idrîs, son séjour au Caire, son passage en Maghrib notamment par Tlemcen, dans la *Djadwat* (p. 7) qui plagie en partie le *Qirṭâs* (éd. 5-7), dans *Eddorr* (141 et suiv.) et dans *Bayân* (I, 97). Notre mst. portait par erreur : وعلى بريدها وصالح مولى صالح بن منصور. Cprz. aussi à *Berb.* tr. II, 559.

(3) Oulîlî, le « Gualili » de Léon (*Afrique*, éd. Schefer, II, 200), la « Tiulit » de Marmol, est la ville romaine de « Volubilis » du IIIe siècle (Caracalla), où d'importantes fouilles et travaux de restauration ont été faits par M. L. Chatelain (cf. p. ex. *Bull. archéolog. de Paris*, 1916, 1re livraison). Les Indigènes du pays appellent encore ceci Qṣar Fer'oûn « Le château du Pharaon ». Le village musulman actuel dans lequel est enterré Idrîs, se trouve à 300m à l'Est, sur un piton rocheux dominant de beaux jardins d'oliviers.

C'est du moins ainsi — Fakhkh — qu'El-Bekri écrit ce mot, au chapitre de la lettre *fâ*, avec un *techdîd* sur le *khâ* portant un point. Cependant beaucoup de ceux qui ne sont pas versés dans l'Histoire donnent à ce mot un *djîm*, alors qu'en réalité il faut un *khâ* comme je viens de le dire.

Cette bataille de Fakhkh eut lieu le samedi, jour de Tarawîya, huitième du mois de ḍou-l-ḥijja de l'an 169 (J.-C.) [1].

(El-Motaqârib).

C'est à ce propos qu'un poète a dit :

« *Il faut que je pleure sur El-Hosaïn et El-Ḥasan et que je me lamente !*

« *Ainsi que sur le fils de la Noble qu'ils ont abandonné sans linceul !*

« *Ils l'ont abandonné à Fakhkh un matin, sans demeure pour son séjour !*

« *Ces hommes étaient généreux ; ils ont été tués ; mais ils n'étaient ni inconscients, ni lâches !*

« *Ils se sont lavés de la bassesse de caractère, comme on lave la crasse des vêtements* [2].

« *Les fidèles ont été dirigés dans la bonne voie par leur aïeul (le Prophète) ; les grâces qui leur appartiennent dépassent celles des autres mortels* » [3].

Après la mort de Ḥosaïn, son meurtrier Moḥammed ben Solaïman revint auprès de lui ; ses compagnons se mirent à réciter la « chahâda » tandis qu'il s'écriait :

---

(1) La bataille de Fakhkh est assimilée à celle de Kerbela chez les Chiites. Voir sur cette bataille : *Encyclopédie de l'Islâm* s. v. ; Yaqût, s. v. ; *Bayân*, tr. I, 303 et n. 2 ; *Eddorr*, éd. 122-123 ; Ṭabari, *loc. cit.*

(2) Ces cinq vers sont cités dans *Eddorr*, p. 123 ; mais le suivant n'y figure pas.

(3) Ces six vers sont cités par Yaqût, s. v. Fakhkh ; par Ibn El-Qadi dans la *Djadwat*, p. 7.

voir ; saisissant son épée, il frappa pour se défendre, mais sans voir (ses adversaires). Idrîs passant alors derrière lui le frappa et l'étendit à terre, puis les deux frères le percèrent de leur sabre et le tuèrent (1).

A la suite de ces faits un groupe (de partisans) des 'Abbâsides fut tué à Médine. Puis Mobârek (2) le Turc vint à leur secours ; mais il les abandonna bientôt.

Ḥosaïn demeura onze jours à Médine, ainsi que ses compagnons, qui l'abandonnèrent alors, et il gagna La Mekke.

Or cette année-là s'étaient rendus au pèlerinage : Moḥammed ben Solaïmân ben 'Alî ben Moḥammed ben 'Abdallâh ben El-'Abbâs, El-'Abbâs ben Moḥammed ben 'Alî, Moûsâ ben 'Isâ ben Moûsâ ben El-'Abbâs ; Solaïmân ben Abî Dja'far el-Manṣoûr était le chef du groupe.

Ils étaient parvenus à dou Ṭawâ (3) à la tête de 4.000 cavaliers. D'autre part un rescrit (du Khalife) El-Hâdî était arrivé, nommant Moḥammed ben Solaïmân, chef de guerre. Celui-ci envoya en avant Abou Kâmil client de Ismâ'îl ben 'Alî. Lorsque cet embassadeur vit l'ennemi, il passa de son côté, mais il fut pris et tué. Puis Moḥammed ben Solaïmân attaqua Ḥosaïn, le battit et le tua ainsi que la plupart de ses partisans (4). Leurs cadavres restèrent sur le terrain pendant trois jours jusqu'à ce que les oiseaux de proie et les bêtes sauvages les aient dévorés. Cette bataille eut lieu à Fakhkh, territoire sur lequel se trouve un village, à une distance de trois milles de La Mekke — qu'Allâh l'ennoblisse.

---

(1) Les auteurs du *Bayân* et du *Eddorr* ne donnent pas ces détails jusqu'au combat de Fakhkh ; ils figurent chez Ṭabari, III, 554.

(2) Nous avons lu مبارك avec Yaqût (III, 854) et *Ṭabari* (III, 555), au lieu de Barmek برمك que donne notre manuscrit.

(3) Vallée près de La Mekke, mentionnée dans *Qoran*, XX, 12, cf. Yaqût, III, 533. Ce récit est tronqué, voir plutôt *Ṭabari* (III, 557).

(4) Ces renseignements sur la victoire de Mohammed ben Solaïmân et la mort de Ḥosaïn figurent dans *Bayân*, trad. I, 97 ; *Qirtâs*, p. 5 de l'éd. de Fès ; *Berb.* trad. II, 559 ; et la plupart des chroniques ; voir aussi Yaqût s. v. Fakhkh.

La cause de la venue d'Idrîs de l'Orient en Maghrib, d'après le récit de Moḥammed ben Djarîr Eṭ-Ṭabarî [1] et d'autres auteurs, est que Isḥâq ben 'Isâ, l'Émir de Médine, se rendit auprès du Khalife Moûsâ El-Hâdî ben Mohammed el-Mahdî ben Abî Dja'far El-Manṣour et se fit remplacer à Médine par 'Omar ben 'Abd el-Azîz ben 'Abdallâh ben 'Omar ben El-Khaṭṭâb — qu'Allâh soit satisfait de ce dernier !

Or celui-ci manifesta des contradictions dans ses sentences. Ḥosaïn [2] ben 'Alî ben Ḥasan (el-Moṭenna) ben Ḥasan (es-Sibṭ) ben 'Alî ben Abî Ṭâleb (cousin d'Idrîs) le désapprouva et le peuple se mit en rebellion contre ce gouvernement, demandant à Ḥosaïn d'accepter le pouvoir. Celui-ci s'assit donc sur le *minbar* (de la Mosquée). Il portait un turban blanc. Le peuple vint le proclamer et prêter serment de fidélité sur le Qoran et la Sunna du Prophète Mohammed.

Khâled el-Berberî vint, à la tête de deux cents soldats du *Djond* pour attaquer Ḥosaïn. Les deux fils de 'Abdallâh ben Ḥasan ben Ḥasan ben 'Alî ben Abî Ṭâleb s'avancèrent pour le combattre. Ces deux fils (de 'Abdallâh) étaient Yaḥîa et Idrîs [3].

Yaḥîa porta un coup à Khâled, sur le devant du casque qui fut brisé et le nez de l'adversaire en fut tranché. Les yeux de Khâled furent inondés de sang, ce qui lui enleva la faculté de

---

(1) Né en 224, mort en 310 H. cf. Wüstenfeld, n° 94 et la liste des ouvrages d'Eṭ-Ṭabarî *ibid*, p. 32 ; et *Eddorr*, éd. note marginale, p. 119. Ces faits sont rapportés avec beaucoup de détail par Ṭabari, *Annales*, édit. de Leipzig, t. III, p. 552 et suiv.

(2) La plupart des auteurs qui ont parlé de ces événements nomment ce personnage El-Ḥosaïn ; nous avons gardé ici l'orthographe de notre manuscrit, Ḥosaïn, qui est aussi celle donnée par Yaqût et quelques autres ; voir notamment Qalqachandi, t. V, p. 14. .

Nous croyons que dans l'emploi ou non de l'article, soit dans le *Ism* soit dans la *Kunîa* il n'y a pas de règles aussi précises que le pense M. de Castries [dans ses *Sources* (archives et Biblioth. d'Angleterre, t. I, p. XXVI)] et l'on trouve fréquemment El-Ḥasan, El-Qâsim à côté de Ḥasan et de Qâsim, par exemple.

(3) Cette version diffère de celle que donne l'auteur du *Bayân*, I, 303 de la trad.

pas, une (grande) partie des Berbères qui s'étaient faits musulmans abjura.

(Le Khalife omayyade) El-Walîd ben 'Abd el-Malik ben Marowân ben El-Ḥakem envoya en Maghrib, comme Gouverneur, Moûsâ ben Noṣaïr, en l'an 92 (710-711 J.-C.) [1]. Il alla jusqu'à Ceuta et à Tanger et de là passa en Espagne dont il fît la conquête avec son client Târiq ben Zayyâd [2]. Avec lui, une partie des (Berbères) du Maghrib se soumit encore à l'Islamisme. Et (les conversions continuèrent) jusqu'au jour où il ne resta plus dans ce pays un seul endroit où l'on n'adorât pas l'Allâh Ta'âla [3], par suite de la venue de l'Ami d'Allâh, le vertueux Idrîs ben 'Abdallâh (El-Kamal) ben Ḥasan (El-Motenna) ben Ḥasan (Es-Sibṭ) ben 'Alî ben Abi Ṭâleb [4] qu'Allâh soit satisfait de ce dernier !

---

(1) Cette date de 92 n'est certainement pas exacte, bien que l'auteur de la *Djadwat* qui a copié ce passage (p. 6) la donne sans sourciller. Il y a peu de dates qui soient l'objet de plus de divergences entre les auteurs musulmans pour l'histoire de la Berbérie à cette époque. Pour celle de l'envoi de Moûsâ ben Noṣaïr, voir la note de de Slane dans sa traduction des *Berbères* (I, 343, n° 2).

(2) Târiq passa le premier et seul en Espagne, avec douze mille Berbères, en 93 (711-712) ou en 92, selon l'auteur du *Bayân* (tr. I. 36) et En-Nowaïrî (*loc. cit.*, I, 345) ; grâce à la complicité du Comte Julien, de Ceuta (cf. Codera, *El llamado Conde D. Julián*, dans les *Estudios críticos de Historia arabe española*, Zaragoza 1903, p. 45 et suiv.). Voir aussi mes *Rois de Tlemcen*, I, 98. Quant au Gouverneur Moûsâ il n'y passa que l'année suivante, jaloux des succès de son préfet de Tanger, Târiq ben Zayyâd.

(3) C'est le Dieu de l'Islâm, tel que l'a défini le professeur hollandais M. Snouck Hurgronje dans sa *Politique musulmane de la Hollande* (in *Rev. du Monde Musulman*, 1911, p. 382-383).

(4) Pour les divers noms de cette généalogie, j'ai adopté l'orthographe fournie par les meilleurs auteurs ; elle diffère un peu de celle donnée par l'auteur de la *Zahrat el-As* et par le plagiaire Ibn el-Qâḍi (*Djadwat*, p. 6) qui cite tout ce passage. On lira d'abondants détails sur Idrîs et les causes de sa venue en Maghrib chez nombre d'auteurs musulmans ; citons seulement ici : *Eddorr* (éd. 71 in medio et suiv) ; *Berb.* II. 559 et suiv. ; *Qirṭas* (éd. Fès, p. 7 et suiv.) et en général tous les chroniqueurs de ce pays.

Plus tard, après la mission du Prophète (Mohammed) — qu'Allâh lui accorde Ses Grâces et le Salut — le règne des (quatre) khalifes orthodoxes, Abou Bekr, 'Omar, 'Otman et 'Ali — qu'Allâh soit satisfait d'eux tous — et l'avènement du gouvernement des Omayyades, Yazîd ben Mo'awîya chargea 'Oqba ben Nafî' el-Fihrî du gouvernement du Maghrib, en 62 (681-2 J.-C.) (1).

'Oqba fit la conquête d'une partie de ce pays et parvint jusqu'à l'Océan Atlantique, vers Mâssa. Faisant entrer son cheval dans la mer (jusqu'au poitrail), il s'écria : « Et que sur vous soit le Salut ! » Ses compagnons de s'écrier alors : « Mais qui donc salues-tu ? ami d'Allâh ! » — « C'est, répliqua 'Oqba, le peuple de Jonas (2) — sur celui-ci soit le Salut — qui m'a salué, et je lui ai répondu. Si la mer ne m'en empêchait, je vous montrerais ce peuple » (3).

Ce fut alors que, en présence de 'Oqba, une partie du Maghrib embrassa l'Islamisme. Mais lorsque ce général revint sur ses

---

(1) Notre auteur parle ici du second Gouvernement de 'Oqba (cf. En-Nowaïrî, ap. *Berb.* tr. I, 331) car le premier Gouvernement dont fut chargé 'Oqba en Ifrîqîya par le Khalife omayyade Mo'awîya eut lieu en 50 (670) [cf. En-Nowaïrî, *loc. cit.* I, 327], ou en 46 (666-7) selon Ibn 'Abd el-Ḥakem (*loc. cit.*, I. 308). On lit d'autre part dans les *Tabaqât*, (trad. p. 50-51) « 'Oqba pénétra en Ifrîqîya une première fois en 56 (675-676) sous le Khalifat de Mo'awîya et une seconde fois en 61 (680-681) sous le Khalifat de Yazîd ». L'auteur du *Bayân* (tr. I, 13-18) ne permet pas de préciser, à cause des nombreuses lacunes que renferme son texte. On pourra consulter encore ma note 1, p. 97 du t. I de mes *Rois de Tlemcen*. Tout le passage que nous avons ici a été reproduit sauf quelques variantes insignifiantes par la *Djadwat*, p. 6.

(2) Allusion à *Qoran*, X, 98. La formule de salut employée ici par 'Oqba est celle qui est habituelle pour *répondre* au salut qui vous est donné par des Croyants.

(3) Ces paroles de Oqba sont très différentes de celles que d'autres chroniqueurs musulmans mettent dans la bouche de ce conquérant arabe au moment où il arriva sur les bords de l'Océan Atlantique (cf. p. ex. En-Nowaïrî, *loc. cit.*, I. 333).

Les Berbères des côtes Marocaines de l'Océan font encore aujourd'hui des sacrifices de victimes aux divinités de cette mer.

répandirent dans le pays entre l'emplacement de (l'actuelle) El-Qirowân et la côte de la Mer d'Andalousie [1]. Or, avant leur venue, ce pays appartenait aux Roum qui, à l'arrivée des Berbères, émigrèrent [2] vers la Sicile, grande île de la Mer (Méditerranée), en face du pays d'Ifrîqîya. Puis les Africains d'entre les Roum [3] revinrent s'installer dans les villes qu'ils occupaient, les Berbères leur ayant accordé la paix. Ces Berbères en effet méprisaient de résider dans les villes, préférant demeurer dans les montagnes, les steppes ou les dépressions, en raison de leur état de pasteurs de chameaux, de bœufs et de moutons et parce qu'ils habitaient sous des tentes de peau ou de poil. Les villes restèrent donc aux Roum, tandis que les montagnes et les steppes désertiques devinrent berbères [4].

Les Berbères pratiquaient alors diverses religions.

---

(1) Ce passage est copié presque littéralement d'Ibn 'Abd el Ḥakem (cf. *Berb.* tr. I, 301). J'ai pu le comparer au texte des deux msts. de Paris (actuels 1686-1687), sur lesquels de Slane a fait sa traduction, grâce à l'obligeance de mon ami E. Destaing qui a pris la peine de relever pour moi ce passage dans les textes de la Bibliothèque nationale où il figure au f° 107 v° du n° 1686 et aux pages 231-232 du n° 1687.

(2) Notre texte donne ici خلت الروم « Les Roum émigrèrent » tandis que Ibn 'Abd el-Ḥakam emploie : خلا من كان بها من الروم ce qui donne sensiblement le même sens.

(3) De Slane traduit ce mot الروم par « les Grecs » tandis qu'il réserve aux « Romains » le vocable أفرانج (voy. par ex. *Berbères*, tr. I, 208). Ce sont là des désirs de précision qui non seulement ne concordent pas avec l'histoire, mais qui ne répondent pas certainement au sentiment de l'auteur musulman traduit ici. Avec cet auteur j'estime qu'il vaut mieux conserver le terme vague de Roum, du texte (voir *Berb.* tr. I, 321 note 1). Quant au mot arabe que j'ai traduit ici, comme de Slane, par « Africains » il est أفارقة dans notre texte et أفارن chez Ibn 'Abd el-Ḥakam. Ibn el-Qâdî (*Djadwat*, p. 5) qui donne ce passage a supprimé أفارقة, tandis que l'auteur d'*Eddorr en-nafîs* (p. 127) rapporte textuellement ce passage.

(4) La *Djadwat* donne en supplément ici tout un passage (p. 5), d'après Eṭ-ṭabarî, sur les rois des Berbères et leur origine. Il vaut mieux en tous cas se reporter à ce que dit Ibn Khaldoun (tr. de Slane, I, 167 et suiv.) pour avoir une idée de la façon dont les auteurs musulmans solutionnent ce problème que la science moderne n'est pas parvenue à élucider.

Fès, aurait dit aux habitants : « Renseignez-moi sur le statut de votre territoire : est-ce une terre de conquête pacifique (*ṣolḥ*) ou de conquête violente (*'unuwa*) ? »

« Nous ne saurions, s'écrièrent-ils, vous donner de réponse jusqu'à l'arrivée du *fâqîh* Abou Djîda ben Aḥmed ».

Puis Abou Djîda étant venu, le gouverneur l'interrogea et il répondit : « Fès n'est ni un territoire de *ṣolḥ* ni une terre de *'unuwa*, car c'est sur place que les habitants de cette ville ont (spontanément) embrassé l'Islamisme ».

Le Gouverneur s'écria alors (s'adressant aux habitants de Fès) : « Cet homme vous a tiré d'affaire ».

Or Abou Djîda[1] est celui qui est enterré en dehors (et non loin) de la porte dite Bâb Bani Mosâfir, l'une des portes de Fès. Les vœux que l'on fait auprès de son tombeau sont exaucés. Ce personnage — qu'Allâh (nous) concilie ses faveurs — a fait des miracles ; qui désire les connaître n'a qu'à consulter l'ouvrage intitulé *Kitâb el-mostafâd fi ḍikri s-sâliḥîn min Fâs wa l-'Ubbâd* dont l'auteur est Abou 'Abdallâh Mohammed ben 'Abd El-Karîm El-Fandalâwî, connu sous le nom d'El-Kittâni[2].

*
* *

Les Berbères ; les premiers conquérants arabes. — Les causes de l'établissement des Berbères en Maghrib, lorsqu'ils vinrent de Palestine, sont les suivantes : Lorsque le roi des Berbères, Djaloût (Goliath) fut tué par Dawoûd (David) — sur lui soit le Salut — les Berbères émigrèrent vers le Maghrib et se

(1) Célèbre mystique enterré à Fès près de la porte qui a pris son nom (*Bâb Sîdi Bou Jîda*) et qui se nommait jadis Bâb Bani Mosâfir.

La biographie d'Abou Djîda se trouve par exemple dans *El Azhâr* (éd. Fès, p. 108) où il est dit qu'il fut un des plus grands savants de Fès. On ignore la date de sa mort ; mais il était contemporain de Derrâs b. Ismâ'îl, mort en 357.

(2) Mohammed ben 'Ali ben 'Abd El-Karîm el-Fandalâwî, connu sous le nom d'El-Kittâni, mort à Fès en dû l-ḥijja 597 (sept. 1202) enterré au dehors de Bâb Gîsa. (Cf. *Salwat*, éd. III, 173). Ce passage d'El-Kittâni figure dans *El-Azhâr* (éd. p. 108).

pacifique, et que les habitants, restés sur leur sol, auraient obtenu (des Musulmans) la paix (sans avoir pris les armes pour défendre leur pays). S'il en était ainsi, serait licite la vente des terres des uns aux autres.

La troisième opinion est que le statut est mélangé, car certains habitants ont fui en abandonnant leurs biens [1]. Quant à ceux qui sont restés et ont gardé leurs biens, ceux-ci en ont conservé la propriété. Ceci est l'opinion la plus vraisemblable. Mais Allâh est le mieux instruit (de ces questions).

Ed Dâwûdi a rapporté dans son *Kitâb el-Uṣûl* [2] (Traité des sources du droit) : « Bien des opinions ont cours à ce sujet, mais le point de vue qu'il importe de considérer est que ces terres doivent conserver le statut qu'elles ont eu durant les derniers siècles et qu'elles restent la propriété de leurs possesseurs, à moins que les renseignements recueillis à leur sujet n'indiquent que ces possesseurs sont détenteurs de mauvaise foi et que les vrais propriétaires ont émigré ».

Ettâdilî El-Hâfiḍ [3] a dit que les habitants du Maghrib avaient embrassé l'Islamisme et étaient restés sur leurs terres.

On raconte que l'un des gouverneurs nommés par Manṣoûr ben Abî 'Amir [4], lorsqu'il s'était rendu maître du territoire de

---

(1) Ces immeubles deviennent alors biens de l'Etat musulman.

(2) Ed Dâwûdi est celui qui est enterré à Tlemcen ; on trouvera sa biographie dans mes *Rois de Tlemcen*, I, 83, n° 91 ; *Dibâj*, 49, etc. Le plagiaire Ibn el Qâḍî qui donne à peu près exactement tous ces passages de notre auteur a supprimé cette opinion d'Ed Dâwûdi.

(3) Il est difficile de préciser quel est ce personnage. J'en connais au moins deux de ce nom : Yûsof b. Yaḥia b. 'Isâ b. 'Abderrahmân ettâdilî auteur du *Kitâb ettachowwuf ilâ rijâl ettaṣowwuf* et Ahmed b. Abi l-Qâsim Ezzamrâni et-tâdilî auteur du *Kitâb el-Mo'azzâ fî manâqib echcheikh Abu Ya'zâ* ; est-ce du premier (qui écrivait en 617 H.) qu'il s'agit ici ? le second est mort en 1013 H. (1604), c'est-à-dire plus d'un siècle après l'auteur de ce texte.

(4) Régent d'Espagne sous les Omayyades et tuteur du Khalife Hichâm (cf. *Bayân*, tr. II, 418 et suiv., *Berbères*, II, 15 à 152). Il fait agrandir la Mosquée d'El-Qarouiyine (*Berbères*, tr. II, 565 ; *Qirtas*, éd. Fès. 37). El-Manṣour mourut des suites de ses blessures reçues au combat de Qala'at en nser et ramaḍan 392 (1002 J.-C.).

Ce climat, d'après les savants, donne des pays riches, de bonnes terres, un sol fertile ; les sources y abondent ainsi que les fleuves. Il y a (dans ces régions) peu de grandes plaines dans lesquelles règne le simoun. La température y est égale durant les quatre saisons, et voisine de la moyenne la plupart du temps. Ce pays donne sans cesse, toute l'année, des produits et des fruits.

Statut juridique des terres. — En ce qui concerne le statut de son sol (au regard du droit), Abou l-Ḥasan El-Qābisî [1] dans son commentaire du *Muwaṭṭa* de *Mâlik* — qu'Allâh lui soit miséricordieux — au chapitre de la guerre sainte a dit : « Les auteurs ne sont pas d'accord au sujet (du statut) du territoire du Maghrib : A-t-il été conquis de vive force (*'unuwa*) ou pacifiquement (*ṣolḥ*) ou bien comprend-il des territoires variés comme statut ? Il y a trois opinions [2].

La première ressort du rapport d'Ibn el-Qâsim selon Mâlik. D'après cette opinion, le pays a été conquis par les armes, puisque est accordée au souverain (à l'Imâm) l'administration des mines (de ce pays). S'il en était ainsi, ne serait pas licite la vente de quelque parcelle que ce soit de ce territoire, comme (cela se passe pour) le pays de Misr (Le Caire) ou de Tanger, parce que ces pays ont été conquis de vive force (par les Musulmans).

La seconde opinion est que le Maghrib est terre de conquête

(1) Le passage suivant figure dans la *Djadwat* (p. 4 lig. 21) qui appelle ce commentateur Abu-l-Ḥasan *ibn* el-Qâbisî. Il est reproduit aussi dans le *Eddorr ennafîs* éd. Fès, 126 ; *K. el-Istiqṣa*, I, 41 (ici d'ap. la *Djadwat*).

(2) On trouve des détails sur le statut des terres du Maghrib dans *Ettafsîr wattashil...* de 'Abd Errahman Errachidi (éd. Fès, 1317, trad. Abou Bekr « *Du bail a complant* » (ext. de la *Rev Alg. Tunis. Maroc. de Législation et de jurisprudence*, avril-juin 1917, t. à p. p. 22). La meilleure étude sur le statut immobilier dans l'Islâm est celle de Van Berchem, *La propriété territoriale et l'impôt foncier* (75 p. in-8, Genève, 1886).

Quant à El-Qâbisî (Abou-l-Ḥasan' Alî ben Mohammed ben Khalaf) sa biographie se trouve dans Ibn Khallikan (éd. de Paris, I, p 469) ; il naquit en 324 H. et mourut en 403 ; il est enterré à El-Qirowân.

où se trouve le siège du Gouvernement d'Ifrîqîya, va des montagnes de Barqa et d'Aoutân aux montagnes des Nefoûsa [1] ; le second est le Maghrib central ; il commence à Tâhart et va jusqu'à la montagne de Ceuta et aux Monts Deren [2] ; le troisième comprend le Soûs extrême et sa limite occidentale est l'Océan Atlantique ; il va de Mâssa au Sahara des Almoravides [3].

Ce quatrième climat se trouve juste au milieu des sept climats (dans lesquels les géographes arabes ont partagé le monde connu d'eux) qu'ont déterminés les Sages de l'Inde. C'est le plus peuplé. C'est dans ce climat que se trouve Babylone, la Péninsule arabique, le reste du pays des Berbères dans l'Extrême Occident, une partie des villes de l'Espagne comme Séville, Cordoue, Grenade, Alméria, Murcie ; il comprend aussi Bagdâd.

Ce climat étant tempéré, les peuples qui en jouissent sont aussi d'un tempérament moyen. Ils n'ont pas la méchanceté des Grecs, la noirceur des Abyssins, la grossièreté des Turcs, la rudesse des Montagnards, la laideur des Chinois. De même qu'ils ont un physique moyen, ils sont doués d'intelligence, de perspicacité et de science. C'est dans ce sens qu'a parlé d'eux l'auteur du *Mo thich* [4] et d'autres.

---

(1) L'auteur ne s'aperçoit même pas que le Djebel Nefousa ne saurait être la limite occidentale de l'Ifrîqîya, puisqu'il est à l'est de la capitale, El-Qirowân, de cette province, comme il le dit lui-même. Il vaut mieux suivre ici le texte de la *Djaḍwat* (p. 3) qui donne : الى جبال نفوسة وتاهرت ; mais ces indications demeurent très vagues et celles d'Ibn Khaldoun (Berb. tr. I, 194) n'ont guère plus de valeur.

(2) Haut Atlas marocain.

(3) Mâssa, à l'embouchure de l'Oued Mâssa sur l'Atlantique, à une journée au Sud de l'embouchure de l'Oued Sous. Quant au Sahara des Almoravides, c'est la partie du Grand Désert voisine du Haut Sénégal-Niger (cf. *Encyclopédie de l'Islâm*, sub. Almoravides).

L'auteur de la *Djaḍwat* (p. 4) ajoute ici des développements et reprend treize lignes plus bas par le passage qui suit dans notre texte.

(4) Ce livre est une sorte d'Encyclopédie, écrite par Ibn El-Djaûzî, né à Bagdâd en 500 (1106), mort en 597 (cf. BROCKELMANN, I, 499-506. La citation de cette source n'est pas donnée dans la *Djaḍwat*, p. 4.

Un certain poète a dit : (*El-Mojtaṭ*)

« *Le Gharb est bon et la preuve en est que c'est de lui qu'on attend la lune* (1), *tandis que le soleil se dirige vers lui* » (2).

Abou l-Djaldjâl dans ses *Ṭabaqât el-Aṭibba*. « Classes des Médecins » (3) a raconté que l'Empereur (?) des Grecs écrivit un jour à son gouverneur du territoire de Babylone de lui envoyer le sage Socrate (!) avec tous les égards et la considération (nécessaires) ; il lui ordonna en même temps de donner à ce personnage plusieurs quintaux d'or pour l'(inviter) à partir. Mais Socrate s'y refusa pour la seule raison de l'excellence du climat (de Babylone) sur un autre climat. Or Babylone est dans le quatrième climat, auquel appartient Fès.

Le commencement du Maghrib, selon ce qu'a dit l'auteur de la Djaghrâfîya (4) se trouve aux montagnes (du pays) de Barqa et à celles d'Awoutân (5) vers l'Orient. Ces montagnes sont à la limite (occidentale) des provinces de l'Égypte et à l'extrémité (orientale) des provinces d'El-Qirowân (Cairouan).

Le Gharb (Maghrib) se divise en trois territoires : le premier

---

(1) L'auteur fait allusion au croissant (*hilâl* et non *badar* comme le porte le vers) qui apparaît au couchant, lors de la nouvelle lune, et que les Musulmans de ce pays observent en particulier pour connaître le commencement et la fin du mois de ramaḍan.

(2) Ibn el-Qâḍi (*Djaḍwat*, p. 3) cite ces deux verset en ajoute deux autres qui leur sont préférables :

الغرب شيٌ مليح ولي عليه أدلّة

الشمس تسعي اليه ومنه تبدو الأهلّة

« Le Gharb est bon et j'en ai des preuves : le soleil se dirige de son côté et c'est de lui qu'apparaissent les croissants de la lune ».

(3) Cet auteur et son livre me sont inconnus.

(4) Mohammed ben Abi Bakr Ez-Zohri vivait en l'an 532 à Grenade ; il est l'auteur du *Kitâb el-Djaghrâfîya* (cf. Brockelmann, I, 476, 477 ; Boigues, 393).

(5) Sur ces limites, voir de préférence : *Berbères*, tr. I, 186-194.

Des avantages du pays (Ses limites et son climat). — On a rapporté, d'après Sofyân ben 'Oyaïna [1], d'après le Prophète — qu'Allâh lui accorde Ses Grâces et le Salut — ce propos : « Il existe dans le Maghrib une porte ouverte pour le retour à Allâh (elle a une largeur de) quarante années de marche, et Allâh ne la fermera que lorsque le soleil se lèvera au couchant » [2].

Cette parole a été rapportée par Ibn Erraqîq [3]. Dans les Recueils sérieux (de *ḥadîṯ*), au rapport de Sa'îd ben Abî Waqqâs [4] et d'autres « traditionnistes » (on lit) que l'Envoyé d'Allâh — qu'Allâh lui accorde Ses Grâces et le Salut — a dit : « Les peuples du Maghrib ne cesseront de suivre la Vérité jusqu'à l'Heure (du jugement dernier) » [5].

Et ce même *ḥadîṯ*, par une autre transmission, est rapporté ainsi : « et ne leur nuiront point ceux qui les contrarieront ou les abandonneront, jusqu'à l'Heure (du jugement dernier) ».

Quant aux habitants du Maghrib, on désigne sous ce nom les peuples de l'Occident, c'est-à-dire (du pays qui est) à l'opposé de l'Orient, selon la plus véridique interprétation et les plus claires démonstrations.

En réalité le pays du Gharb (ou Maghrib) est celui qui se trouve dans la partie occidentale du Monde.

---

(1) Sur ce « traditionniste » né à Koufa en 107 (725 J.-C.), mort à La Mekke, en 198 (814 J.-C.), voy. *Tabaqat*, tr., p. 8. note 2 qui donne une bibliographie complète. Quoi qu'en disent les auteurs musulmans, ce Sofyân aurait passé, aux yeux de quelques-uns, pour un *fraudeur* de Traditions. (Cf. *Taqrîb*, pp. 51 et 83, notes).

(2) On sait que parmi les signes qui, selon l'orthodoxie musulmane, marqueront la Fin du Monde, il y aura le lever du soleil à l'Occident. Ce *ḥadîṯ* et les suivants ainsi que les autres renseignements donnés ici, figurent dans le *Eddur ennafîs fî manâqib el Imâm Idrîs* éd. Fès, p. 124 ; et dans le chap. sur les mérites du climat de Fès, dans la *Djadwat*, p. 3 et 5.

(3) Cf. Brockelmann, I, 355, et *Berbères*, tr. I, 292, note 3; Ibn Erraqîq est mort en 383.

(4) Sur ce Compagnon du Prophète, voy. *Tahdîb el-Asmâ*, 275.

(5) Cette parole est rapportée un peu différemment dans mes *Rois de Tlemcen*, t. I, 9. Voir aussi ce *ḥadîṯ* cité dans divers ouvrages et notamment dans la *Djadwat*, p. 3.

TRADUCTION FRANÇAISE

Louanges à Allâh ! A Lui qui a mis la louange en tête du *Livre* (le Qoran) et en a fait la première parole des créatures au Jour du Compte !

Qu'Allâh accorde Sa Miséricorde à Notre Seigneur Mohammed, choisi parmi les meilleurs des (hommes) intelligents ! Qu'Il soit satisfait de la famille et des Compagnons (de ce Prophète) ! Qu'Il les traite généreusement !

Ce livre comprend deux chapitres : le premier indique quel est celui des Idrissites hoṣaïniens qui a fondé Fès ; le second mentionne ceux qui ont donné à cette ville ses remparts, parle de ses Mosquées, cite les fondateurs de ses palais et de ses thermes. Il rapporte en outre les louanges adressées à cette ville et à ceux des distingués Uléma qui l'ont habitée.

CHAPITRE Ier

Ce premier chapitre appelle des développements sur les avantages du climat, les limites du territoire, le statut juridique des terres, le premier conquérant (musulman) du pays, les raisons de la venue de l'Ami d'Allâh, Idrîs, l'histoire de son fils qui a fondé Fès et tout ce qui s'y rattache, afin qu'on le sache et que l'on soit averti des conséquences qui en découlent.

Gaillard. — *Une ville d'Islâm Fès* (Paris, 1905).

Idrîsî. — Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi, éd. Dozy et de Goeje, Leyde, 1866.

Inscriptions. — *Inscriptions arabes de Fès*, par Alf. Bel, Paris, 1919.

Istiqṣa. — *Kitâbu-l-Istiqṣa li-Akhbâri dowali Maghribi-l-Aqṣa*, par Es-Slâwi, 2 vol. éd. de Fès.

El-Istibṣâr. — *Kitâbu-l-Istibṣâr fi 'adjâibi-l-amṣâr*, tr. Fagnan, Constantine, 1900.

Léon. — *Description de l'Afrique par Jean Léon African*, en 3 vol. éd. Schefer, Paris, 1896-1898.

Massignon. — *Le Maroc dans les premières années du* XVIe *siècle*, d'après Léon l'Africain, Alger, 1906.

Nozhatu-l-Ḥâdi. — *Nozhatu-l-ḥâdi bi-Akhbâri mouloûki-l-qarni-l-ḥâdi*, éd. Houdas, 1888.

Plan Orthlieb. — Plan de Fès en deux feuilles par le Lieutenant Orthlieb, Fès, 1913.

Qirṭâṣ (ou *Rawḍu-l-Qirṭâṣ*). — *El-Anîsu-l-Moṭribu-l-Qirṭâṣ fi Akhbâri moulouki-l-Maghribi wa târîkhi madînati Fâs*, éd. Fès, 1303.

Rois de Tlemcen. — *Kitâbu boghyati-r-rawwâd fi dikri-l-mouloûk min Bani 'Abdi-l-Wâd*, par Yaḥya Ibn Khaldoun, texte et traduct. Alf. Bel, 3 vol. Alger, 1903 à 1913.

Salwat. — *Salwatu-l-ânfâs wa moḥâdaṭatu-l-Aqyâs biman oqbira mina-l-Ulamâi wa-s-Solaḥâi bi Fâs*, de Mohammed ben Dja'far ben Idrîs El-Kittâni, 3 vol. éd. de Fès.

Sources. — *Les Sources inédites de l'Histoire du Maroc* (de 1830 à 1845), par le Comte Henry de Castries, Paris (commencée en 1905).

Tabaqat. — *Kitâb Tabâqâti 'Ulamâi Ifriqiya*, éd. et trad. M. Ben Cheneb, 2 vol. Alger, 1915 et 1920.

Taqrîb. — *Le Taqrîb d'En-Nawâwi*, tr. W. Marçais, Paris, 1902.

Yâqût. — *Mo'djam El-Boldân*, édit. Wüstenfeld, 6 vol. Leipzig, 1866-1873.

Table des abréviations des ouvrages le plus souvent cités dans les notes (ordre alphabétique)

'Ali Bey. — *Voyages de 'Ali Bey El-'Abbâsi en Afrique et en Asie* de 1803 à 1807, 3 vol. et un vol. de pl , Paris, 1814.

Almohades. — *Histoire des Almohades d''Abd El-Wâhid El-Marrakechi*, éd. Dozy, Leyde, 1881, tr. Fagnan, Alger, 1893.

Arch. Maroc. — *Archives marocaines* publiées par la mission scientifique du Maroc.

El-Âzhâr. — *El-Âzhâr El-'Âṭirat-el-Ânfâs bi-ḏikri mahâsini qoṭbi-l-Maghrib wa tâdji madînati Fâs*, par Moḥammed ben Dja'far ben Idrîs El-Kittâni (édit. de Fès).

Bayân. — *El-Bayânu-l-Moghrib fi Akhbâri-l-Maghrib*, éd. Dozy, Leyde, 1848-1851 ; tr. Fagnan, Alger, 2 vol. 1901 et 1904.

Bekri. — *El-Moghrib fi ḏikri bilâd Ifrîqîya wa-l-Maghrib*, par Abou 'Obaïd El-Bekri, éd. de Slane, Alger, 1857.

Beni Waṭṭâs. — *La dynastie marocaine des Beni Waṭṭâs*, par Aug. Cour, Constantine, 1920.

Berbères. — *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*, par Ibn Khaldoun, tr. de Slane, 4 vol., Alger, 1852 à 1856.

Boïgues. — *Historiadores y Geografos arabigo-españoles*, par Fr. Pons Boïgues, 1 vol. Madrid, 1898.

Brockelmann. — *Geschichte der Araber Litteratur*, 2 vol. Berlin, 1898.

Dîbâdj. — *Kitâbu-d-Dîbâdji-l-moḏahheb fi ma'rifati Â'yâni 'Ulamâi-l-Maḏhab*, d'Ibn Farhoûn, éd. de Fès.

Djoḏwat. — *Djoḏwati-l-Iqtibâs fi man ḥalla mina-l-Â'lâmi madînata Fâs*, par Ibn El-Qâḍi (éd. de Fès).

Ed-dorr en-nafîs. — *Ed-doru-n-nafîs wa-n-noûru-l-ânîs fi manâqibi-l-Imâm Idrîs ben Idrîs*, par Ahmed ben 'Abd El-Hayy El-Halabi El-Fâsi (éd. de Fès).

tion du premier Imâm de l'Islâm, Abou Bekr, par le petit groupe des « Compagnons » du Prophète. Avec les Mérinides, c'est le souverain lui-même qui nomme Imâm et Khaṭîb, aussi bien que tous les hauts fonctionnaires de l'administration préparés dans ses Médersas [1].

C'est encore une preuve de ce souci évident chez les Mérinides de renforcer leur autorité politique et de centraliser en leurs mains tous les pouvoirs appartenant au Khalife suprême.

Pour si faible que soit en somme le concours apporté à la documentation sur l'Histoire des Mérinides, envisagée sous le triple aspect, politique, administratif et artistique, par le texte qui est donné ici, on jugera peut-être que ce concours n'était pas à négliger. C'est cette raison qui a dicté la publication du *Kitâb El-As*.

A. B.

---

(1) Voir à ce propos ce que j'ai dit dans *Inscriptions*, p. 87 et suiv.

phie de l'époque mérinide, grâce à ceux qu'offre encore le Maroc (notamment dans les manuscrits arabes que l'on peut y trouver et dans les monuments de l'époque mérinide) on pourra bientôt songer à tracer un tableau assez fidèle et assez complet de ce que fut cette importante dynastie berbère musulmane des Rois de Fès des XIVe et XVe siècles, au double point de vue politique et administratif. Et le jour n'est peut-être pas loin où l'on sera en mesure d'écrire aussi l'histoire de cet art mérinide qui occupe une si large et si honorable place dans l'ensemble de l'art musulman du Maghrib.

En ce qui touche à l'administration, M. G. Marçais a tracé brièvement, dans sa préface à la *Rawḍat En-Nisrîn* (p. XV-XVII) le cadre du Makhzen mérinide [1].

L'auteur de ces lignes a lui-même souligné l'importance de l'art mérinide en étudiant à Fès les principales fondations des souverains de cette dynastie, dans ses *Inscriptions arabes de Fès*.

Quant à la politique du Gouvernement mérinide, au désir de quelques-uns des plus grands souverains de cette dynastie notamment d'Abou-l-Ḥasan — de légitimer leur prétention au titre de Amîr El-Moûminîn, attaché au Khalifat suprême, le regretté Max Van Berchem a donné sur ce point une étude définitive dans le *Journal asiatique* (1907).

Ce sont justement des visées politiques de ce genre que permet d'éclairer un chapitre du *Kitâb El-As* sur la Mosquée d'El-Qarouîyîne, ses Imâms et ses Khaṭîbs, chapitre qui a d'ailleurs son analogue dans le *Qirṭâṣ*. Nous y voyons que, dans le choix de l'Imâm et du Khaṭîb, le Gouvernement mérinide rompit avec la tradition des Gouvernements précédents. Avant lui c'était le titulaire qui désignait son successeur, ou bien c'était le corps des Uléma qui le choisissait, et ceci rappelait assez la nomina-

(1) Sur le gouvernement des Mérinides on lira également les intéressants renseignements donnés par El-Qalqachandi dans son *Ṣobḥ el-A'châ*, tome V, p. 203 à 210 (éd. Caire, 1915).

Parmi les autres sources auxquelles il a puisé, et qu'il cite, sont : le *Miqbâs* de 'Abd El-Malik El-Qîroûani ; c'est le *Kitâb El-Miqbâs* d'El-Warrâq qui est aussi l'une des sources du *Qirṭâs*. L'auteur de ce traité d'histoire est nommé Moḥammed ben 'Abd El-Malik ben Moḥammed El-Warrâq, dans l'édition Tornberg du *Qirṭâs* (p. 10). Ibn El-'Idâri cite également cet ouvrage dans son *Bayân El-Moghrib* sous le titre المقباس في أخبار فاس et lui donne pour auteur Abou Marouân 'Abd El-Malik ben Moûsa El-Warrâq. On le retrouve cité par Ibn Khaldoun (*K. El-'Ibar*, VI, 212) et c'est à tort que de Slane dans sa traduction de l'*H. des Berbères* (II, 137) nomme ce livre *El-Mikyâs*. Cet ouvrage est perdu aujourd'hui [1].

Le *Moqtabis* cité également dans notre texte est le *Kitâb El-Moqtabis fî Akhbâr El-Andalous* qui a pour auteur Ibn Ḥayyân, mort en 469 et sur lequel les dictionnaires biographiques et les ouvrages de littérature donnent d'abondants renseignements [2].

Avec l'auteur du *Qirṭâs* et même sans doute d'après lui, notre auteur cite parfois Ibn Ghâlib sur qui je ne possède aucun renseignement.

Si l'auteur du *Kitâb El-As* a largement plagié le *Qirṭâs*, comme on l'indiquera dans les notes de cette traduction, il a été pillé à son tour par le moderne écrivain marocain Ibn El-Qâḍi qui, dans sa *Djaḍwat El-Iqtibâs* a donné de longs passages de notre texte, sans en indiquer la provenance. Les notes de cette traduction signaleront les passages cités ailleurs.

Grâce aux documents déjà publiés sur l'histoire et l'épigra-

---

(1) Cet auteur et son livre ne sont pas cités dans la *Littérature* de Cl. Huart, ni dans celle de Brockelmann.

(2) Pour ne citer que les ouvrages européens, on trouvera une notice du Ibn Hayyân chez : Wüstenfeld. *Die Geschichtschreiber der Araber*, n° 212, p. 71 ; Pons Boigues, *Historiadores*, etc., n° 114, p. 153-154 ; Brockelmann. *Geschichte der Arabischen Litteratur*, I, 338. Abou Marouân Ḥayyân ben Khalaf ben Ḥosaïn ben Hayyân l'un des meilleurs écrivains de l'Espagne, mourut en 469/1075.

On peut en inférer que son livre n'est pas l'œuvre d'un flatteur, d'un écrivain de cour. Il nous apparaît bien plutôt comme celui d'un musulman sincère qui a cru faire œuvre pie en notant aussi exactement qu'il l'a pu ce qu'il savait de l'histoire de Fès et de ses principaux monuments, d'après ce qu'il avait pu en lire dans les très rares ouvrages en sa possession, d'après ce qu'il avait entendu d'hommes dignes de foi, d'après ce qu'il avait vu par lui-même.

Quand on compare son récit, pour certains passages, au texte du *Qirṭâṣ* d'où il les a tirés, on constate qu'il les a très fidèlement rapportés, sans chercher à les arranger à sa façon. Peut-on lui faire un grief de n'avoir pas toujours dit dans ses citations du *Qirṭâṣ*[1] qu'il empruntait tel ou tel passage à ce livre ? Évidemment nous sommes loin de défendre le plagiat ; mais ce défaut est tellement dans les habitudes des écrivains musulmans, que l'on peut penser que pour eux l'histoire ne se présente pas comme pour nous : du moment qu'un auteur cite exactement le texte donné par un autre, jugé digne de foi, il estime inutile d'en donner le nom.

Toutefois dans notre cas particulier, il est remarquable que le *Kitâb El-As* ne cite guère le *Qirṭâṣ* qu'il a pillé à mainte reprise, et qu'il cite au contraire quelques autres de ses sources avec assez de soin.

Peut-être faut-il l'expliquer par ce fait que le *Qirṭâṣ* déjà à cette époque, une quarantaine d'années après qu'il fut écrit, était, comme aujourd'hui, un ouvrage très connu de tous au Maroc, très répandu dans les milieux s'intéressant à l'Histoire du pays ? Il ne me semble pas qu'il faille supposer que notre auteur, El-Djaznâï, ait voulu, en agissant ainsi, se parer des connaissances d'un autre ; cela ne répondrait pas du moins à la modestie et à la sincérité dont il fait preuve au cours de tout son livre.

(1) Il cite cet ouvrage sous le nom de *El-Anîs*, jamais sous celui de *El-Qirṭâṣ*.

LIBRARY OF THE UNION THEOLOGICAL SEMINARY

sur ce sujet sont le *Rawḍ el-Qirṭâs* écrit en 726, sous Abou Sa'îd le Mérinide, et vers la même époque la *Dakhîrat-es-Saniyya fî târîkhi-d-Daoûlati-l-Marîniyya*, d'un auteur anonyme et dont le texte arabe a été récemment publié à Alger par M. M. Ben Cheneb [1]. Tout au début du XVe siècle, Ibn El-Aḥmar écrivait sa chronique sommaire des Mérinides sous le titre *Rawḍat en-nisrîn fî daoûlati Banî Marîn*, qu'ont récemment publiée et traduite MM. Bouali et G. Marçais [2]. C'est à peu près vers la même époque que l'historien-philosophe Ibn Khaldoun écrivit sa grande Histoire dont de Slane a extrait le texte (et la traduction) de l'*Histoire des Berbères*, qui s'arrête en 796 (1393).

Et notre *Kitâb El-As* vient ainsi apporter à ces rares ouvrages de l'époque mérinide quelques compléments ou quelques confirmations. C'est là son seul mérite.

Quel degré de confiance pouvons-nous accorder aux renseignements fournis par cet ouvrage?

On est frappé, à la lecture de ce texte, de constater que contrairement à ce qui s'est passé pour la plupart des chroniqueurs, des écrivains musulmans de ce pays, celui-ci est particulièrement réservé dans les louanges qu'il aurait souvent eu l'occasion de décerner au Gouvernement de l'époque. Il ne manque pas, comme il est de rigueur, d'appeler sur la tête des sultans mérinides et sur leur gouvernement les bénédictions d'Allâh, mais il ne pousse pas la louange aussi loin que les autres auteurs; bien plus il ne fait même nulle part mention du roi sous le règne duquel il écrivit.

---

(1) L'auteur annonce au début de son livre qu'il le divise en dix chapitres, le dernier traitant du règne du Mérinide Abou Sa'îd (710 à 731 de l'hégire); mais en réalité le texte de l'édition d'Alger s'arrête en 679 sur un récit consacré à la fondation de Fès-la-Nouvelle, sous le règne d'Abou Yoûsof (637 à 685 H.) qui occupe le chapitre 6e; il manque donc les chapitres 7 à 10 annoncés.

(2) 1 vol. Paris, 1917. Ibn El-Ahmar est mort en 807/1404 ou en 810/1407. Sa chronique est tendancieuse et ne fournit pas de renseignements sur les constructions de Fès.

monuments de Fès, par exemple sur la fondation de la ville et de ses remparts par Idrîs II, sur les avantages naturels de l'emplacement choisi, sur les Mosquées d'El-Qarouiyîne et d'El-Andalous, déjà connus par le *Rawḍ El-Qirṭâs*, le *Kitâb El-As* apporte de précieuses indications sur les travaux faits dans ces deux Mosquées postérieurement à la rédaction du *Qirṭâs*, notamment au sujet de la Bibliothèque d'El-Qarouiyîne et des machines à marquer les heures ; on y notera aussi l'importance qu'avait cette Mosquée d'El-Qarouiyîne d'où partait le signal d'appel à la prière, signal auquel se conformaient les Muezzins des autres Mosquées des deux villes de Fès-l'Ancienne et de Fès-la-Nouvelle. C'est même là un usage qui s'est conservé jusqu'à nos jours.

Le *Kitâb El-As* est aussi le seul livre de cette époque ancienne qui nous renseigne un peu sur la fameuse horloge de la Médersa Bou 'anâniya, dont j'ai parlé dans mes *Inscriptions arabes de Fès*. Il est aussi le seul, avec la *Ḍakhîrat Es-Saniya*, à nous fournir la date (679/1270) de la fondation de la Médersa appelée aujourd'hui Medersat-Es-Saffârîn qui est le premier de ces sortes d'établissements à Fès et fut édifiée par les soins du premier souverain mérinide Abou Yoûsof Ya'qoûb. A ce propos même, l'auteur du *Kitâb El-As*, en ce qui touche à l'orientation du « miḥrâb » de cette Médersa donne des détails sur l'orientation inexacte des « miḥrâb » des Mosquées à Fès. Il est curieux, à cette occasion, de constater combien à cette époque, comme encore aujourd'hui, les docteurs musulmans appelés à se prononcer sur une question de droit religieux ont la crainte des responsabilités et se refusent à la moindre innovation.

Pour si rares que soient les documents nouveaux que l'on peut glaner dans le *Kitâb El-As*, il n'en demeure pas moins qu'il fut écrit au XIVe siècle. Or les textes datant du temps des premiers sultans Mérinides et traitant de l'histoire de Fès à cette époque, sont fort rares. Les plus importants ouvrages imprimés

Moḥammed El-'Abbâdi à Fès, le titre attira tout de suite mon attention. Je m'occupais justement alors d'étudier sur place les anciens monuments de cette ville, et tomber sur un texte qui traitait de « la construction de la ville de Fès » était pour moi une bonne fortune.

Après avoir feuilleté le *Kitâb El-As* j'ai été désagréablement surpris, je l'avoue, de n'y trouver, sur les principaux monuments — à part des détails, sur la fondation de la ville par Idrîs et des deux principales Mosquées, figurant déjà dans le *Rawḍ El-Qirtâs* et plus au moins complètement reproduits — que des indications brèves ou de maigre intérêt, au point de vue archéologique ou artistique.

Toutefois, pour la période postérieure à 726/1326, époque à laquelle fut écrit le *Rawḍ El-Qirtâs*, jusque vers 766/1365, nous manquions de renseignements, même sommaires, recueillis par un contemporain, habitant Fès, sur les monuments de cette capitale, sur les Médersas et les autres constructions, effectuées notamment sous le règne du grand bâtisseur que fut Abou l-Ḥasen, le Mérinide, (731/1330 à 751/1350) et sous celui de son fils Abou 'Inân Fâres (749/1339 à 759/1358). A ce point de vue et pour cette période d'une quarantaine d'années, correspondant aux règnes de deux grands Sultans de la dynastie mérinide, le *Kitâb El-As* peut aider à combler quelques lacunes dans nos connaissances.

Mais l'auteur ne s'est pas borné à parler de « constructions » comme le laisserait penser le titre de son livre ; il a fait des digressions sur l'histoire et nous a même conté des histoires sur divers savants de la capitale idrisite. Il y a donc à glaner ici dans les domaines les plus variés et les plus inattendus, comme d'ailleurs dans tant de chroniques musulmanes : droit musulman, coutumes et institutions locales, culte des Saints, folk-lore sont placés dans ce livre à côté de l'histoire de monuments et de quelques épisodes sur le règne de souverains.

En dehors des détails donnés dans ce texte, au sujet des

nâya vint à Fès étudier à l'Université d'El-Qarouiyîne qui semble avoir brillé d'un très vif éclat dès les premiers souverains Mérinides. Là, comme cela se passe encore aujourd'hui, logé dans quelqu'une de ces belles Médersas construites par les rois de l'époque, il suivit les cours de *fiqh* surtout, peut-être aussi ceux de grammaire, professés à la Mosquée ; il lut en outre quelques ouvrages sur l'histoire du Maghrib.

La complaisance avec laquelle il s'étend, en développements, souvent inutiles et déplacés, sur les questions de *fiqh* nous donne à penser que c'était là la branche favorite de ses études. C'est ainsi que l'on est un peu surpris de trouver dans un ouvrage consacré à l'histoire des Monuments de Fès, d'abondants détails sur les personnages qui — au temps des Zirites — ont introduit et fait triompher le *Maḏhab* de Mâlik ben Anas, dans l'Afrique du Nord.

C'était donc avant tout un faqîh musulman, et comme les autres docteurs berbères, il manifeste un grand respect pour les Saints, une ferme croyance en leurs miracles. C'est ainsi qu'il narre avec détails l'apparition du corps intact d'Idrîs Ier dans son tombeau, au Zerhoun, en 718/1318.

Il dit même à ce propos avoir eu entre les mains un document officiel de la cour royale, ce qui donnerait à penser qu'il avait peut-être ses entrées dans le palais royal ou qu'il était en relations avec les hauts fonctionnaires du royaume.

C'est là à peu près tout ce que l'on peut dire de cet auteur obscur. Voyons son livre :

Le livre. — Comme son auteur, le *Kitab El-As* était peu connu des Orientalistes et il n'existe dans aucune bibliothèque publique de Manuscrits arabes, à ma connaissance du moins. Cependant les auteurs marocains, quelques-uns du moins, y ont fait des emprunts ; mais, selon leur habitude de plagiaires, ils ont rarement cité la source de leur documentation.

Lorsque j'ai trouvé ce livre dans la bibliothèque de Si

L'ethnique El-Djaznâi indique que cet auteur était originaire de la tribu berbère, du Rîf méridional, des Djaznâya, que l'on prononce au Maroc Gzennâya. Quant aux épithètes louangeuses de « savant » et de « très savant » accolées à son nom, elles sont de monnaie courante dans le langage des Musulmans, et ne prouvent pas toujours la profondeur du savoir de celui qui les reçoit, ce qui est le cas ici, on le verra. Il est aussi appelé *El-Imâm*, terme très vague, puisque dans l'Islâm tout fidèle peut être « Imâm », c'est-à-dire faire la prière devant les autres, du moment qu'il est sain d'esprit. Peut-être ici faut-il entendre que Abou-l-Ḥasan occupait la fonction officielle d'Imâm dans quelque mosquée de Fès ?

Il nous apprend au cours de son livre qu'il en écrivit un autre sous le titre *Kitâb el-Mostafâd fî Manâqibi-l-'Ibâd* qui nous est d'ailleurs parfaitement inconnu, mais qui par son titre même nous montre que l'auteur avait un penchant pour la ferveur religieuse et les adorateurs zélés d'Allâh Ta'âla, comme tant de ses compatriotes marocains, comme tant de ces Berbères que d'aucuns prétendent si peu religieux et qui le sont au contraire si profondément.

Des indications que l'on trouve dans le *Kitâb El-As*, des formules élogieuses accompagnant le nom des souverains mérinides qui y sont mentionnés, on peut induire avec certitude que l'auteur écrivait au temps des Mérinides. On peut même situer approximativement l'époque vers l'an 766/1365 ; il vivait en tous cas après la mort d'El-Mosta'în billâh Abou Sâlim (mort en 762/1361) puisque, en parlant de ce prince il fait suivre son nom de رحمه الله qui ne s'emploie que pour les morts.

Le talent d'écrivain de cet auteur était bien médiocre si l'on en juge par son livre ; son style est non seulement sans élégance, mais souvent tout juste correct.

Il est à supposer que Abou l-Ḥasan 'Ali, né sans doute dans la tribu berbère, et berbérophone encore aujourd'hui, des Gzen-

BK67
A169

192621

PRÉFACE

Pendant le séjour d'une trentaine de mois que j'ai fait à Fès, j'ai pu, grâce à l'obligeance des lettrés musulmans de cette ville, examiner un grand nombre de manuscrits arabes ; de ceux d'entre eux qui m'ont paru rares, intéressants, parfois même peu connus des Orientalistes j'ai acquis les uns et j'ai fait copier les autres. Le texte dont je donne ici, pour la première fois, une édition et une traduction annotée, a été copié pour moi sur un manuscrit appartenant au faqîh Si Moḥammed El-'Abbâdi, actuellement qâdi de Sefrou ; il a été ensuite collationné par deux de mes amis, 'Uléma de l'Université d'El-Qarouiyîne. On peut donc considérer ce texte comme la reproduction à peu près exacte de la copie — non datée, mais apparemment peu ancienne — de Si Moḥammed El-'Abbâdi.

Dans le manuscrit en question la *Zahrat El-As* est reliée avec d'autres ouvrages manuscrits, notamment avec la *Toḥfa El-Ukhwân biba'ḍi Manâqibi Chorafâi Wazzân*. Cette copie d'une main maghribine était assez nette et occupait 36 folios de $22^{cm} \times 17$ et de 23 lignes à la page.

L'*auteur*. — On lit, en tête du premier folio et dans le titre, le nom de l'auteur : *El-Imâm*, *El-'Alim*, *El-'Allâma*, Abou l-Ḥasan 'Ali El-Djaznai. C'est un personnage totalement inconnu et son nom ne figure même pas dans les dictionnaires biographiques des savants du Maroc. Il n'y a rien non plus dans ce livre qui puisse renseigner sur les qualités de l'auteur ou permettre de préciser l'époque à laquelle il vivait, les traits essentiels de sa biographie.

LIBRARY OF THE
UNION
THEOLOGICAL
SEMINARY
NEW YORK

NOV 6 1940

PUBLICATIONS DE LA FACULTÉ DES LETTRES D'ALGER
BULLETIN DE CORRESPONDANCE AFRICAINE
TOME LIX

ZAHRAT EL-ÂS

(LA FLEUR DU MYRTE)

TRAITANT DE LA

FONDATION DE LA VILLE DE FÈS

PAR

Abou-l-Hasan 'Ali El-Djaznâi

TEXTE ARABE ET TRADUCTION ANNOTÉE

PAR

ALFRED BEL

ALGER
ANCIENNE MAISON BASTIDE-JOURDAN
JULES CARBONEL
IMPRIMEUR-LIBRAIRE DE L'UNIVERSITÉ

1923

ZAHRAT EL-ÂS

(LA FLEUR DU MYRTE)

TRAITANT DE

LA FONDATION DE LA VILLE DE FÈS

18524

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
RESTRICTED
CR61106224
BK67 A169 Zahrat el-as La fle
RECAP